الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

شخصيات استوقفتني



الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

شخصيات استوقفتني



شخصيات استوقفتني / محمد سعيد رمضان البوطي. -
دمشق: دار الفكر، [١٩٩٩]. - ٢٤٤ ص؛ ٢٥سم.
١- ٩٢٠ ب و ط ش ٢- العنوان ٣- البوطي
مكتبة الأسد
ع- ١٤٦٩/ ٨/ ١٩٩٩



٢٠٠٨

دمشق

حاضنة اللغة العربية

دار الفكر - دمشق - برامكة

٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١

٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١

Http://www.fikr.com/

e-mail:fikr@fikr.net

شخصيات استوقفتني

د. محمد سعيد رمضان البوطي

الرقم الاصطلاحي: ١٣٠٠,٠١١

الرقم الدولي: ISBN:1-59239-673-8

الرقم الموضوعي: ٩٢٠

٢٤٤ص، ١٧ × ٢٥ سم

الطبعة السابعة: ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

ط١ ١٩٩٩م

المحتوى

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

الحمد لله وليِّ كل نعمة ، ومصدر كل توفيق ، وملهم كل خير .

اللّهمّ زدني توحيداً لذاتك العليّة ، وصفاتك السّنيـة ، وزدني اللهم تبصيراً بـآلائـك الظاهرة والخفية ، وزدني شكراً لك عليها .

جنِّبني اللَّهم عثرات القلب واللسـان ، وألهمني الإخلاص لـوجهـك ، واختم حيـاتي بأحبِّ الأعمال إليك ، حتى ألقاك وأنت عنِّي راض .

وإنك وحـدك اللهم الـذي يَعلم النيران الخفيـة التي صـاحبتني خلال تـأليفي لهـذا الكتاب . فإن كانت فتنة ، فأسألك اللهم أن تقيني شرها ، وإن كانت خيراً فأسـألك أن تسعدني بثمراته في العاجلة والعقبى .

مدخل .. وبيان

شاء الله عزّ وجلّ أن أتوجَّه إلى تـأليف هـذا الكتـاب ، في ظل ظروف وجـدانيـة ونفسية خاصة ، ومتميزة .

ولست أعني بما أقول ، ظروفاً عـائقـة أو معكِّرة .. بل العكس هو الصحيح ، فقـد **كانت بما تحمله إليّ (ولا تزال) من حرارة الوجدان وتأثيره ، حـافزاً كبيراً للتوجُّـه إلى** هذا العمل العلمي والمضيّ فيه !.. بل لقد نالتني من هذا الحافز بركـة متميزة في الوقت ، وطاقة إضافية ربّانية في الجهد !..

لقد كانت المدة التي استغرقها عملي في هذا الكتاب ، لا تزيد على خمسة أشهر !..

وأحسب أنها مدة قصيرة بالنسبة إلى معالجة موضوع كهـذا الـذي أضعـه بين أيـدي القرّاء . على أني لا أنكر أن فيه بحثين سبق أن كتبتهما في مناسبـات خلت من قبل ، ولم يكن عملي فيهما اليـوم أكثر من إعـادة للسَّبـك والصِّيـاغـة .. غير أن البحـوث الأخرى أو الحـديث عن الشخصيـات البـاقيــة لم يكن من السهـل إنجـازه على الـوجــه السـليم المطلوب ، في هذه الأشهر القليلة .

☆ ☆ ☆

لعـل في القرّاء من يتطلّـع إلى معرفــة الظروف التي أشرت إليهــا ، وإلى معرفــة المشاعر الوجدانية التي صحبْتُها ، أو صحبتني .

ولئن كنت لا أحب أن أتجاهل تطلُّع هؤلاء القرّاء وتساؤلهم ، فإني لا أحبّ أيضاً أن أخوض في جزئيات لا شأن لهم بها ، ولكني أكتفي بأن أؤكد للناس جميعاً ، أن الدفاع عن الحق وعن أصحابه ، وأن تصوير المواقف والمشاهد الإنسانية وإبرازها على النحو الإنساني السليم ، لا يتم شيء من ذلك من خلال دراية عقلية جافّة ، بل لا بدّ من إنضاجه على وقود العاطفة والوجدان . فمن حرم من هذا الوَقود ، حرم من الروح التي ينبغي أن يودعها في كلامه وأفكاره . وإذا انتهت الكلمات والأفكار إلى الآذان والأذهان منفصلة عن جذوة الروح ، وقفت عند دهليز كلٍّ منها ميتة باردة ، لا تصلح فساداً ولا تقوّم اعوجاجاً ولا تقنع منكراً !..

ومن حُرِم هذا الوَقود الوجداني ، حُرِمَ أيضاً معرفة قيمة الرجال الرَّبانيِّين الذين كانت لهم قدم صدق عند ربِّهم ، وكانوا يتبوؤون مركز القدوة للناس في حياتهم ، إذ هو لا ينظر إلى هؤلاء الرجال إلاّ من خلال المنطق الذي توزن به أقوالهم ، ومن حيث الحركات والتَّقلبات التي تتبدَّى لهم من ظاهر أعمالهم . فأمّا ما استكنَّ في بواطنهم وحنايا أفئدتهم من وقود الحب الرَّباني ، الذي يُذْكي شعلة الإخلاص لله ، أو من لواعج الأهواء الدُّنيوية ، التي تلهب عوامل التنافس على الجاه أو المال أو غير ذلك من متاع الدنيا ، فذلك شيء لا يقيم له هذا المحروم أي وزن ، إذ إن أفكاره لا تلتقط من أحوال الناس إلا ظواهرهم ، أما قلبه فبارد الوجدان ظامئ العاطفة ، فكيف وأنّى يجعل من قلبه هذا دليلاً يهديه إلى بواطن هؤلاء الرجال ، ومن أين له أن يشمَّ رائحة اللوعة الرَّبانية ، أو النَّهم الدنيوي ، من أكبادهم ؟!..

في الرجال الذين سأتحدَّث عنهم ، وكان لي شأن ما معهم أو موقف منهم أو تأثُّر بهم ، من هم ملءُ قلبي إكباراً وإجلالاً وحبّاً . وأنظر ، فأجد في الناس من يهوّن من شأنهم ، بل ربما يلحق النقيصة بهم ، اعتماداً على ظواهر مجردة وقفوا عندها ثم لم يتجاوزوها إلى الوقوف على أحوالهم الباطنة ، وقلوبهم المشرقة . وأتأمل .. فأجد أني

لوطلبت منهم أن يخترقوا الظواهر إلى البواطن . وأن يقيسوا البواطن بمقاييس الحبّ والمهابة والتعظيم التي هي معين الإخلاص لله في القلب ، لما استطاعوا سبيلاً إلى ذلك ، إذ إنهم بسبب أفئدتهم الجافة ، لا يملكون شيئاً من هذه المقاييس ، ومن ثم فهيهات لهم أن يلقوا بالاً للبواطن من أحوال الرجال ، سواء كانت صالحة بالحبّ والتعظيم والإخلاص ، أو كانت فاسدة بالرياء والعجب والبحث عن الأهواء .

وأنا لا أقصد باختراق الظواهر وتجاوزها ، التّهوين من أمر الشريعة وأحكامها وضرورة الالتزام بها ، كما هو شأن أدعياء التّصوف .. ولكني أقصد أن الابتعاد عن ظاهر الإثم ، لا يغني عن صاحبه شيئاً عند الله ، إن كان باطنه متلبّساً بالإثم وأسبابه .

ثم إن الباطن النّقي عن الأدران ، لا بدّ من أن يقود الظاهر إلى النّقاء والالتزام بأحكام الله وشرعه ، إذ الباطن النّقي يكون وعاء للخوف والحبّ والرجاء . والخوف سوط سائق ، والحب قائد موجّه ، والرجاء تيار محرّك .. غير أن الظاهر النّقي ليس بالضرورة قائداً للباطن ومطهّراً له من الآفات ، إذ ما أكثر الظواهر الحسنة التي تخفي وراءها بواطن سيئة . وإلا لما وجد في الكون النفاق ولما كثر في الناس المنافقون .

☆ ☆ ☆

وبعد ، فقد تحدّثت في هذا الكتاب عن أشخاص معيَّنين لم أتجاوزهم إلى غيرهم .

ذلك لأن الهدف الذي ابتغيته ، لم يكن عرضاً لتراجم أو مناقب شخصيات ذات شهرة ومكانة في الأوساط ، على الطريقة التقليدية المتّبعة في كتابة تراجم الرجال . ولو قصدت إلى ذلك لما حصرت حديثي في سبعة أو ثمانية أشخاص ، بل لوضعت القارئ أمام ترجمة موجزة أو مسهبة لعشرات العلماء الأعلام .

إنما الذي قصدت إليه ، أن أقف على نقد أو لغط أو وهم ، دار على ألسنة الناس أو بعضهم بشأن بعض الأعلام ، بقطع النظر عن العصور التي عاشوا فيها ، فأكشف عن

ذلك الوهم أو اللغط الذي دار حولهم ، وأتبين القيمة المنطقية والعلمية للنقد الذي وجِّه إليهم .

وينطبق هذا القصد الذي حدا بي إلى هذا العمل على ثمانية أشخاص ، متفاوتين في المكانة والقيمة العلمية ، مختلفين في العصور التي عاشوا فيها ، فيهم من كان من أعيان القرن الهجري الثاني ، وفيهم من جاء بعد ذلك ، وفيهم من لا يزال حيّاً إلى اليوم .

غير أن الجامع المشترك بينهم ، أنهم جميعاً تعرَّضوا ـ بشكل مباشر أو غير مباشر ، صريح أو غير صريح ـ لمواقف اتُّخِذَتْ منهم أو انتقادات وجِّهت إليهم ، أو آراء سجِّلت في حقِّهم . وقد كان لي موقف من ذلك كلِّه ، في محاضرات أو مناسبات عابرة .. ولعل الإمام أبا حامد الغزالي أبرز هؤلاء الذين كان ولا يزال لي شأن معهم كلما دعت إلى ذلك مناسبة .. وينطبق هذا على كل من الفضيل بن عياض وعبد الله بن المبارك ، اللذين كانا في عصر واحد ، وكانت بينهما معرفة ومودّة . فقد وجد في هذا العصر من اختلق من عبد الله بن المبارك لسان نقد وانتقاص لفضيل بن عياض ، فتظاهر هو بالسكوت والأدب ، ولكنه استنطق عبد الله بن المبارك ، بما تنطوي عليه نفسه هو ، في حقِّ الفضيل بن عياض ومن كان على شاكلته ، كإبراهيم بن أدهم وذي النون المصري ، من النقد والانتقاص . فكأنه ليس هو الذي ينهش من لحم الفضيل عن طريق الغيبة المحرمة ، وإنما الذي فعل ذلك في حقِّ الفضيل هو ابن المبارك .. أما هو فليس إلا راوياً لكلام ابن المبارك يروِّجه وينشره بين الناس !... ولسوف يجد القارئ موقفي الذي يبرّئ عبد الله بن المبارك من اللغو الذي نسب إليه ، في حقِّ من كان يذهب في تبجيله وتقديسه إلى أعلى ما يمكن أن يتصوره إنسان .

☆ ☆ ☆

هذا ، ولقد انطلقت من مواقفي وحديثي عن هذه الشخصيات ، من موازين الشرع الحنيف والمنطق العلمي أولاً ، ثم من لوعة القلب والوجدان ثانياً .

وإني لأعلم أن في الناس من يقول جاهلاً ومستنكراً : لوعة القلب والوجدان ؟!.. ماذا يعني هذا الكلام ؟ وأين هي قيمته وجدواه بعد الاحتكام إلى شريعة الله وأحكامه ؟

وأقول : إن قيمة المشاعر القلبية تتمثل في كونها حصناً لحماية الشرع وأحكامه ، ولجعل الغاية من اتِّباع أحكامه الوصول إلى مرضاة الله وحده ، دون أن تتسرَّب إليها ، فتختلط بها غايات أخرى . فالمسلم بمقدار ما يتوهَّج قلبه بحبِّ الله وحبِّ رسوله ، يزداد تعلُّقاً بكتاب الله وسنّة رسوله ، ومن ثم يزداد تمسُّكاً وانضباطاً بأحكام الشرع ، لا يبتغي بذلك إلا وجه الله وحده .. والمسلم بمقدار ما ينصرف فؤاده عن هذا الوهج ، ينشطر حاله إلى شخصية مزدوجة . فله في الظاهر شخصيته الإسلامية التي يتجمل فيها بالإسلام ومزاياه وأحكامه ، وله في الباطن شخصيته التي يرعى بها ذاته ويطوف بها حول نفسه ، ولا يدَّخر وسعاً لاستخدام قيم الإسلام لمصالحه .. وهذا هو أخطر أمراضنا المستشرية في هذا العصر .

وصاحب القلب الرفيق ، مؤهلٌ لبلوغ منازل الصديقين ، إن هو تعهد قلبه بشيء من غذاء المراقبة والذكر والديمومة على قراءة كتاب الله ، وصاحب القلب المفعم بأحلام الدنيا ومصالحها ومغانمها ، لا بدّ من أن تغلّفه القسوة وأن يهيمن عليه الرّان . وبريق ظاهره لا يصلح عندئذ من هذا الباطن شيئاً .

وأخيراً ، فلا يعجبن القارئ إن قلت له : إن الحادي الذي ساقني إلى هذه الرحلة مع الشخصيات التي تحدثت عنها وأوضحت موقفي معها أو منها ، إنما هو حادي الحبّ ، والأشجان القلبية ، ولقد كان كلٌّ من المنطق والعلم أخلص رفيق معي في هذه الرحلة .

بل لقد ازددت يقيناً برحلتي في هذا الكتاب أن حقائق العلم مهما بلغت في دقَّتها ،

ما أيسر أن تكون رفيقاً بل خادماً لباطن المحبة القائدة والرائدة .. ولكن العكس لا يصدق بالضرورة دائماً .

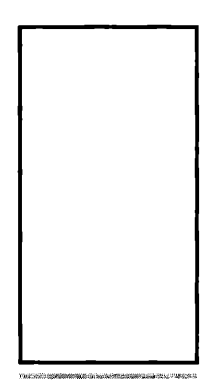
اللّهم اجعل رفيقي ، في رحلة هذه الدنيا مهما تنوعتْ وأنى توجهتْ ، حبّك . واجعل حبّي لمن دونك جداول وسواقي متفرعة عن حبّك ، تسري من معينك وتعود إليك .

ثم اجعله حبّاً صافياً لك وحدك ، منفصلاً عن سواقيه وجداوله ، يوم يدعو الداعي إلى الرحيل ، ويوم أنفض يديّ من دنياي لأتوجّه بهما مبسوطتين فقيرتين إليك

والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات .

د . محمد سعيد رمضان البوطي

دمشق ١٥ ربيع الأول ١٤٢٠ هـ
٢٨ حزيران ١٩٩٩ م



الفضيل بن عياض

وبيان العامل الذي استوقفني من سيرته

١٠٥ ـ ١٨٧ هـ

٧٢٣ ـ ٨٠٣ م

المدخل

هو واحد ممن استوقفتني ترجمته ، وتأثَّرت بمشاهد كثيرة من حياته .

ولا أُخفي القرّاء أن اسم (الفضيل) هو أول اسمين سمّاني بهما والدي رحمه الله .. وخبر ذلك أنه سمّاني في اليوم السابع من ولادتي فضيلاً . تيمُّناً وتبرُّكاً بفضيل بن عياض الذي كان والدي شديد الحبّ له والتّأثر بحياته .

ولكنه رحمه الله لما مضى بي في اليوم التالي إلى شيخه المربّي الجليل الشيخ سعيد المشهور بسَيْدا ، ربّما ليرجوه أن يحنّكني ويدعو لي بالخير ، دعا لي مطوّلاً كما قال لي والدي ، ثم أصرَّ على أن يجعلني سميّاً له ، فسمّاني سعيداً .. ورأى والدي أن يجمع بين رغبته الخاصة ، وإصرار شيخه ، فيستبقي لي كلا الاسمين ، وأن لا ينسخ رغبة برغبة .. غير أن الثاني منهما هو الذي كان سابقاً إلى السِّجلات الرسمية ، ومن ثم فهو الذي كتب له الانتشار بين الناس ، وارتبط بشهرتي في الأوساط . وبقيت رابطة الاسم الأول بي خفية لا يعرفها إلا قلّة من أشدِّ المقرَّبين إلى والدي رحمه الله .

قلت إنني تأثَّرت بمشاهد كثيرة من سيرة حياة الفضيل .. ولعل أهم هذه المشاهد مشهد تحوُّله من أقصى التيه والضلال إلى أسمى درجات الهداية والعرفان .

ومن شأني ـ وهي حال أعرفها قديماً من نفسي ـ أنني أقف بقدر كبير من مشاعر الإجلال الخاشع والطرب المسكر ، أمام مشهد من كان إلى الأمس القريب من أضلّ

التائهين عن صراط الله وهديه ، وإذا هو اليوم من أشدّ اللائذين ببابه ، والمتشبّثين بهديه .. فأنا أتتبع سيرة هؤلاء الناس في العهود الغابرة ، وأبحث عن أمثالهم في الناس الذين نراهم من حولنا في حياتنا المعاصرة .

ولو سألتني عن سرّ هذه المشاعر التي تغمرني بنشوة بالغة ، من مظهر هذا الانقلاب ، لقلت : أغلب الظن أنني أستشفُّ من خلال هذا المشهد بالغ لطف الله ورحمته بعباده الشاردين ، إذ يقبل إليهم رغم إعراضهم عنه ، ويظل يتحبَّب إليهم بالمزيد من نعمه وألطافه ، على الرغم من تجاهلهم لها مع استمتاعهم بها ، ويدعوهم بالمذكرات المتنوعة ، إلى أن يلتفتوا إليه ، فما يكادون يتنبَّهون إلى لطيف خطابه لهم ، ودعوته إياهم ، ورقيق عتبه عليهم ، حتى يصطلحوا معه ، متأملين أن يغفر لهم ماضي عثراتهم وأيام زلاتهم .. فإذا استأنسوا بهذه الأوبة ، وركنوا إلى هذه التوبة ، جذبهم الله إليه بلوعة الحبِّ ؛ تفيض بها قلوبهم ، وتطهر بها نفوسهم ، وإذا هم يهرعون إليه بعد طول إعراض ، ويتشوقون إليه بعد طول نسيان وابتعاد .. يناجونه بلغة الدموع لبيك اللَّهم لبيك ، ها نحن عائدون إليك .

إنهما أمران .. يبعث كل منهما في القلب نشوة غامرة تستعصي على الترجمة والوصف . أولهما هذه الملاحقة الرَّبانية للشاردين والضَّالِّين أن يعودوا إلى كنفه ، وأن يمثلوا أمام مائدة فضله وإكرامه ، والثاني تلك الاستجابة التي تذكر بعودة الطفل ـ آمناً مغتبطاً ـ إلى صدر أمه !. وإنك لتنظر فتجد على وجوه هؤلاء العائدين فرق ما بين أمسهم الدابر ، إذ كانت تغشاهم ظلل داكنة من شقاء الضلال والابتعاد عن حمى المولى عزّ وجلّ ، ويومهم الجديد ؛ إذ تعلو وجوههم إشراقة التوبة وسكينة الهداية ، وبهجة معرفة الله ، والتَّعرف إليه .

هذا الشعور كان ولا يزال يهيمن عليَّ كلما وقفت على الفاصل الزمني الدقيق بين مرحلتي حياة فضيل بن عياض ، إذ كان شاباً مسرفاً على نفسه معرضاً عن ربِّه ، وإذ أصبح بعد ذلك ربّانياً عابداً عالماً زاهداً مقبلاً على الله بكل كيانه .

وهذا الشعور هو الذي يجعلني متأدِّباً أمام الشاردين عن صراط الله وهديه ، حسن الظن بمصيرهم ونهاياتهم ، إذ لا يبعد أن يُعيد كلٌّ منهم في يوم ما من حياته - بَعُدَ أو قَرُبَ - سيرة الفضيل بن عياض ومالك بن دينار وأمثالهما ، وهم كثير[1] .

☆ ☆ ☆

(١) لا ينطبق هذا الذي أقول ، على الذين يقودهم إلى الضلال والعصيان ، استكبارهم على الله ، ومعاندتهم للحق .. إذ إن هذا الفريق ، إن ركبوا رؤوسهم مستمرِّين على هذا الاستكبار والعناد ، لا بدّ مِنْ أن يحيق بهم وعيد الله عزّ وجلّ : ﴿ سأصْرِفُ عَنْ آياتيَ الَّذينَ يَتَكَبَّرونَ في الأَرْض بِغَيْرِ الْحَقّ وإنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنوا بها وإنْ يَرَوْا سَبيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذوهُ سَبيلاً وإنْ يَرَوْا سَبيلَ الغَيِّ يَتَّخِذوهُ سَبيلاً ﴾ [الأعراف : ٧/١٤٦] . ولكن الحديث هنا عمن قاده إلى المعاصي ضعفه ، واهتاجت به إلى الانحراف نفسه .

فاصل بين شطرين من حياته

أما الآن ، فإليك أولاً من سيرة الفضيل بن عياض مشهد هذا الفاصل بين شطري حياته :

ولد رحمه الله ، كما يقول هو عن نفسه ، في مدينة اسمها (نسا) تابعة لسمرقند ، واسمها بالفارسية (درهي كزو) ؛ أي وادي المنّ ، عام ١٠٥ هـ ، وأمضى الشطر الأول من شبابه فاتكاً بطّاشاً ، يقطع الطرق ، ويستلب أموال الناس . وكان يتربَّص بالسابلة والمسافرين ، في مفازة ما بين (أبيورد) و (مرو) ، حتى عرفت تلك المفازة باسمه ، وغدت منطقة رعب في نفوس المجتازين ورجال القوافل ، فكانوا يتواصون بالابتعاد عن ذلك الطريق ، كي لا يقعوا في كمائنه . وكان الفضيل يعمد إلى الأموال التي ينهبها من عمله هذا ، فينفقها على متعه وأهوائه ، ويبدّدها في سبيل ملاذّه .

وفي غمرة حياته التائهة هذه ، لقي جارية فأحبَّها وتعلّق بها ، فكان يختلف إليها كلما أمكنته الفرصة ، وقلما كانت تسعفه الفرص السانحة ، فشغله التَّعلُّق بها عن جزء كبير من اهتماماته بقطع الطرق ، ومتابعة المسافرين والتَّربُّص بهم .. فقد اهتاج في قلبه من مشاعر تعلُّقه بتلك الجارية وعشقه لها ، ما صرفه عن كثير من اهتماماته المالية ، وأخمد في نفسه نيران بطشه وحرارة بغيه .. فلم يعد يفرغ لأكثر من التفكير بها ، ورسم السُّبل للقائها والركون إليها .

وإذا هدأت في الإنسان رعونات نفسه ، وسكن جماح البغي في غرائزه ، ثم اهتاجت في مقابل ذلك العاطفة الصادقة منبثقة من حنايا قلبه ، فتلك هي أولى

الخطوات التي تتجه بصاحبها إلى الله ، أيّاً كانت اليد التي أيقظت تلك العاطفة ، وأيّاً كانت الوجهة التي اتَّجهت إليها ، أو الكائن الذي مالت إليه .

ذلك لأن طريق الحبّ واحد ، أيّاً كان المحبوب الذي يقف على أيّ من جانبي الطريق . كل ما في الأمر أن على السالك أن لا ينهي رحلته عند المحطات التي قد تستهويه فيركنَ إليها . بل عليه أن يتجاوزها جميعاً ما دام الطريق أمامه ممتداً ومفتوحاً ، وعليه أن يعلم أن محبوبه الحقيقي أمامه .. ولسوف يشعر كلما أوغل في الطريق وتجاوز محطة إلى أخرى فأخرى ، بجاذب يشدّه إلى المضيّ قدماً . ولسوف تتلظى بين جوانحه نيران الحنين إلى المعين ، حيث المحبوب الأول .. إلى الغاية القدسية الكامنة في نهاية شارع الحب .. وعندئذٍ لا بدّ من أن يَغذّ السير ، طال الطريق به أو قصر ، متجاوزاً المحطات والسواقي ، مشدوداً إلى النهاية .. وما النهاية التي سيلقي عندها عصا التِّسيار إلا الوصول إلى المحبوب الحقيقي الذي هو معين كل جمال تتعشَّقه العين ومصدر كل إحسان يغمر النفس .

ولقد هُدي الفضيل بن عياض من خلال حبِّه لتلك الجارية وتعلُّقه بها ، إلى فم الطريق .. فانحطَّ فيه ومشى لا يلوي على شيء . وكان لا بدّ لهذا الطريق مِنْ أن يقصيه عن أودية أهوائه ورعوناته التي جللت قلبه بالقسوة ، وحبَّبت إليه البطش والظلم والفتك .. فأسدلت شعلة الحبّ بينه وبينها حجاباً أخذ ينسيه شيئاً فشيئاً ظلمات لياليه التي كان يتلصَّص فيها ويكمن لعباد الله باحثاً عن قوانصه وغنائمه !..

ومضى ذات ليلة يفكِّر .. وبدلاً من أن يفكِّر كعادته في رسم خطة للإيقاع بقافلة للحصول على أموالها ، كان يفكِّر في الخطة التي ينبغي أن يهتدي إليها للقاء محبوبته وإطفاء غُلّة اشتياقه الشديد إليها .

واهتدى أخيراً إلى أن عليه أن ينتظر إلى الهزيع الأخير من الليل ، حيث يكون

النوم قد حجب عنه أعين الأهل والرُّقباء ، ثم يمضي إلى دار حبيبته فيتسوَّر إليها الجدار ، دون ضجيج سؤال أو قرع للأبواب .. وذلك في ساعة محددة تنتظره فيها .

واتَّجه الفضيل لتنفيذ خطته واختيار الوقت المناسب ، ووصل إلى دار الجارية تحت جنح الظلام ، في ساعة لم يكن يصغي الليل الصامت فيها إلا لوقع أقدامه .. ولَمّا نظر فوجد هيكل الدار يلوح لعينيه في غبش الظلام ، خيِّل إليه أنه إنما يقف من تلك الدار أمام أجمل غلالة رقيقة ترتديها حبيبته في انتظار لقياه ، في تلك الساعة الهادئة ، بل الراقدة من ذلك الليل !..

لم يتردَّد الفضيل ، في غمْرة مشاعره هذه ، في البحث عن أقرب متناول يتعلَّق به من جدران تلك الدار ، وسرعان ما عثر عليه فتعلَّق به ثم تجاوزه متسلِّقاً إلى أعلى الجدار . وقبل أن يهوي منه ساقطاً في داخل الدار ، وقف يلقي السمع إلى أي صوت يمكن أن يبلغ أذنه ، بحثاً عن مزيد من الطمأنينة إلى أنه قد جاء في الوقت المناسب .. وبينما هو كذلك ، إذ سمع قارئاً يرتِّل في جوف الليل قول الله عزّ وجلّ :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذينَ آمَنوا أن تَخْشَعَ قُلوبُهُمْ لِذِكْرِ الله وما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ولا يَكونوا كَالَّذينَ أُوتوا الكِتاب مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الأمَدُ فَقَسَتْ قُلوبُهُمْ .. ﴾ [الحديد : ١٦/٥٧] .

كان قلب الفضيل قد تحرَّر في تلك الساعة من رعونات نفسه ، وتساقطت منه الأغشية التي غلَّفته بالقسوة ، تحت تأثير الحبِّ الذي سرى في أنحائه .. فما إن طرقت سمعه هذه الكلمات الرَّبانية الفياضة بالحبِّ والعتب الرقيق ، حتى سرت منها شعلة إلى قلبه ، الذي صقله الحبُّ وهذَّبه الوجد ، فأضاء مصباحه المنطفئ وأوقد ناره الخامدة وإذا هو يصيح بصوت مجلجل اخترق سكون الليل من حوله : بلى يا ربّ .. لقد آن !..

وتحوَّل في اللحظة ذاتها ، فسقط في المكان الذي تسلَّق منه ، وأسرع كالملدوغ لا يلوي على شيء !!.. ومضى يصيح مردِّداً : بلى يا ربّ .. لقد آن[1] !..

☆ ☆ ☆

في ذلك الهزيع المتأخِّر من تلك الليلة ، انعقد الصلح بين ذلك العبد وربِّه !.. وفي ظلمات تلك الساعة ، دُفِنَ الفتّاك الغويّ قاطع الطريق فضيل بن عياض ، ليولد على إثره العالم الورع العابد الزاهد الحكيم فضيل بن عياض !.. فماذا يصنع ؟ وأين يذهب ؟

رأى أن يتَّجه عائداً إلى سرخس .. ولما جنّ عليه الليل تحوّل إلى خان في طريقه ليبيت فيه (وكانت الخانات آنذاك أشبه بالفنادق اليوم) فرأى فيه رفقة من السابلة المسافرين ، وسمعهم يتشاورون فيما بينهم أن يرحلوا إلى شأنهم من الليل . فقال واحد منهم : أولى بنا أن ننتظر إلى الصباح ، فإن الطريق غير آمن لوجود فضيل فيه !.. فأقبل إليهم فضيل يؤمّنهم ، وقد غالبته غصّة البكاء ، قائلاً : لقد طهَّر الله الطريق من فضيل ، وها هو اليوم تائب بينكم !.. وأرجو أن لا تجدوني بعد اليوم إلاّ لائذاً بالله عند بيته الحرام !..

ثم إنه أخذ عدَّته لسفر طويل ، ومضى متَّجهاً إلى بيت الله الحرام ، وهو يحدِّث نفسه : « أنا أسعى في الليل بالمعاصي ، وقوم من المسلمين هاهنا يخافونني !.. ما أرى أن الله ساقني إليهم وجمعني بهم إلاّ لأرتدع . اللَّهم إني تبت إليك ، وجعلت توبتي مجاورة بيتك الحرام !..

---

(١) انظر قصة توبة فضيل بن عياض في مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ٢٩٩/٢٠ ، ووفيات الأعيان ٤١٦/١ ، وسيرة أعلام النبلاء للذهبي ٤٢٣/٨ .

رحلة الحزن

غير أن إقباله على الله ، لم ينسه ماضي إسرافه على نفسه ، وركونه إلى الموبقات . فكان كلما ازداد قرباً من الله وذكراً له وتعظيماً لصفاته ، ازدادت لديه مشاعر الخوف منه ، والحزن لما يذكره من ماضي تقصيره في جنب الله عزّ وجلّ ، وإعراضه عن عظيم حقّه عليه . ولا سيما عندما يُذكر الله عنده ، أو يُتلى شيء من القرآن أمامه .

روى ابن عساكر عن إبراهيم بن الأشعث قال : « ما رأيت أحداً كان الله أعظم في صدره من الفضيل بن عياض ، كان إذا ذكر الله عنده أو سمع القرآن ، ظهر به من الخوف والحزن .. وفاضت عيناه ، وبكى حتى يرحمه من بحضرته . وكان دائم الحزن شديد الفكر »[1] .

وكثيراً ما كانت تسري عدوى حزنه الملازم له إلى جلسائه .. كان سبب حزنه هو شعوره ، كما قلت ، بوطأة الأيام الثقيلة ، التي قطعها تائهاً عن ذاته ، شارداً عن مولاه وربّه . وأمّا سبب ذلك في نفوس جلسائه ، فهو ما يرونه من أنهم أولى منه بذلك الحزن ، الذي يستبدُّ به ، على الرغم من علوّ كعبه في العبادة والورع والزُّهد والعرفان !..

قال عبد الله بن المبارك ، وكان من أكثر الملازمين له : « إذا نظرت إلى فضيل بن عياض ، جدَّد فيَّ الحزن ، ومقتُّ نفسي » ثم بكى !..

وكان إذا نصح ووعظ ، سرت زفرة حزنه إلى أفئدة السامعين ، فانتقل كثير منهم

---

(١) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر تأليف ابن منظور ٣٠١/٢٠

إلى مثل حالـه .. كانت نصائحه تُدخل مشاعر الحزن والأسى في أفئدة من حوله ، وتوقظهم من سكرة الدنيا والانشغال بنعيمها . وربما صادفه أحد رجال الحكم ، فتوجَّه إليه بنصائحه التي تتعالى كاليحموم من فؤاده الملتاع .. فما يزال به حتى ينقله من فرحه بالدنيا إلى الخوف مما هو مقبل عليه .

روى الرشيد للمأمون ، قال : ما رأت عيناي مثل فضيل بن عياض .. قال لي ، وقد دخلت عليه : يا أمير المؤمنين فرِّغ قلبك للحزن والخوف ، حتى يسكناه ، فيقطعاك عن معاصي الله ، ويباعداك من النار »[1] .

وروى سفيان بن عيينة ، وكان أيضاً من أكثر الملازمين له ، أنه دخل مع جمع من العلماء على الرشيد استجابة لدعوة وُجِّهت إليهم . قال : ودخل الفضيل بعدنا جميعاً ، مقنعاً رأسه بردائه . فلما اطمأنَّ به المجلس قال لي : يا سفيان : أيّهم أمير المؤمنين ؟ فقلت : هذا ، وأومأت إليه ، فنظر الفضيل إليه قائلاً :

يا حسن الوجه ، أنت الذي أمْرُ هذه الأمة والعباد بيدك وفي عنقك ؟!.. لقد تقلَّدتَ أمراً عظيماً !.. فاستعبر الرشيد باكياً .

ثم إن الرشيد أعطى كلَّ واحد من العلماء الحاضرين بدرة (عشرة آلاف درهم) فقبلها جميعهم إلا الفضيل . فقال له الرشيد : يا أبا عليّ ، إن لم تستحلّ أخذها فأعطها لِمَدين ، أو أشبع بها جائعاً أو اكْسُ عارياً ، فاستعفاه الفضيل ،

فقال له الرشيد : ما أزهدك يا أبا علي !.. قال : أنت أزهد مني . قال : كيف ؟ قال : لأني زهدت في الدنيا الفانية وأنت زهدت في الآخرة الباقية !..

ولما خرجوا من عنده قال له سفيان بن عيينة : أخطأت .. ألا صرفتها في أبواب

---

(١) المرجع المذكور ٢٠/٣٠٣ ، وحلية الأولياء ٨/١٠٢

البرّ ؟ فقال له الفضيل : ياأبا محمد أنت فقيه البلد وتغلط هـذا الغلـط ؟!.. لوطـابت لأولئك طابت لي[١] .

وهكذا استمرت رحلة الحزن في حياة الفضيل ، لم تفلته إلى مماته !..

وكان الذي يهيج حزنه ويزيده ملازمـة لـه ، طريقتـه في تـدبُّر القرآن وتلاوتـه ، وعكوفـه الـدائم على ذكر الله عزّ وجلّ ، والتـأمُّل في مصيره بعـد الموت ، عنـدمـا يقوم الناس لربِّ العالمين ، مع تذكُّره الدائم لما كان عليه حاله أيام شبابه في سمرقند .

كانت قراءته للقرآن حزينة جذّابة بطيئة مترسّلة ، كأنه يخاطب إنساناً . وكان إذا مرَّ بآية فيها ذكر الجنة أو النـار ، راح يردِّدهـا ، ويسـأل الله الجنـة ويستعيـذ بـه من النار .

قالوا وكثيراً ما كان يغلق الباب على نفسه ، فلا يأذن لأحد بـالـدخول عليـه ، إلاّ إن سمع قرآناً يتلى ، فعنـدئـذ يخرج ليكون على مقربـة ممن يتلو القرآن ، ثم يركن إليـه مصغياً في نشوة بالغة وخشـوع .

فحدَّث أحمد سهيل أنَّ جمعاً من الناس استأذنوا للدخول عليه فلم يؤذن لهم . فقيل لهم : إنه لا يخرج إليكم أو يسمعَ القرآن .. وكان معهم رجل مؤذن نديّ الصوت ، فطلبوا إليه أن يقرأ سورة التكاثر ، فأخـذ يقرؤهـا ويرفع بهـا صوتـه . فـأشرف عليهم الفضيل يسمع ، وقد بكى حتى ابتلّت لحيته بالـدموع ، ومعـه خرقـة يمسح بهـا دموعـه . ثم أنشـأ يقول :

بلغتُ الثّمانين أو جُـزْتُهـا ... فمـاذا أؤمـل أو أنتظر
أتى لي ثمـانـون من مـولـدي ... وبعـد الثّمانين مـا يُنْتَظر ؟
عَلَتني السِّنـون فـأبلينني

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي ٢٣٩/٢

قال : ثم خنقته العبرة . وكان معهم عليّ بن خشرم ، فأتمّه قائلاً :

فرقّت عظـــــامي وكلّ البصر

وكثيراً مـا كان يفتح لـه بـاب كبير من الحـزن ، من خـلال كلمـة واحـدة ، يقف عندها في كتاب الله عزّ وجلّ ، فتزجّه في همٍّ واصب . وربما أطبق عليه الهمّ فغشي عليه إلى حين !..

قال يحيى بن أيوب : دخلت مع زافر بن سليمان على الفضيل بن عياض بالكوفة ، فإذا هو وشيخ معه . فجعل الفضيل ينظر إلى زافر ، ثم قال له : ياأبا سليمان ، أرأيت إلى هؤلاء أصحاب الدنيـا ، ليس شيء أحبّ إليهم من أن يتنـافسوا في علوّ الإسنـاد !.. وأنا أخبرك بأقرب إسناد لا يُشَك في صحتـه : روى رسول الله ﷺ عن جبريل عن الله عزّ وجلّ : ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وأَهْليكُمْ ناراً وَقودُها النّـاسُ والحِجـارَةُ ﴾ [التَّحريم : ٦/٦٦] . فأنا وأنت يـاأبـا سليمـان من النـاس . قـال فغشي على الفضيل وعلى الشيخ الـذي كان معه . وجعل زافر ينظر إليهما طريحين[1] .

(١) مختصر تاريخ ابن عساكر ٢٠٢/٢٠ و ٢٠٣ وسير أعلام النبلاء ٤٣٨/٨

إقامته بالكوفة في طريق رحلته إلى مكة

عرّج الفضيل في طريقه من سمرقند إلى مكة ، على بغداد ، ثم تحوَّل عنها إلى الكوفة ، أقام فيها مدة يتلقى العلم ويسمع الحديث ، وشغف بجمع الحديث وروايته ، وأخذ عن جمع كبير من المحدثين ، منهم الأعمش ، وعطاء بن السائب ، ومنصور بن المعتمر ، وحصين بن عبد الرحمن ، ومسلم الأعور ، وأبان بن أبي عياش .

ولم يزل يتلقى العلم ويسمع الحديث في مسجد الكوفة وغيره ، حتى عرف بسعة العلم وكثرة الحديث ، وصنّف اسمه ثبتاً فاضلاً في مقدمة الثِّقات .

قال عنه ابن ناصر الدين : « الفضيل بن عياض أبو علي التيمي ، إمام الحرم ، شيخ الإسلام ، قدوة العلماء الأعلام ، حدَّث عنه الشافعي ، ويحيى القطان وغيرهما . وكان إماماً ربّانيّاً كبير الشّأن ، ثقة ، نبيلاً عابداً زاهداً جليلاً »[1] .

وأثنى عليه الذهبي في كتابه : (القسطاس في الذَّبِّ عن الثِّقات) بمثل ذلك .

وكان من أبرز من عرفه فلازمه وأعجب به عبد الله بن المبارك ، كان يعظِّمه ويجلّه . ويقول عنه : « ما بقي على ظهر الأرض عندي أفضل من الفضيل بن عياض »[2] .

وترجم له إسحاق بن إبراهيم فقال عنه : « كان صحيح الحديث ، صدوق اللسان ، شديد الهيبة للحديث إذا حدَّث . وكان يثقل عليه الحديث جداً . ربما قال

---

(١) شذرات الذهب لابن العماد ٣١٧/١

(٢) مختصر تاريخ ابن عساكر ٣٠١/٢٠

لي : لوأنك طلبت مني الدراهم كان أحبَّ إليّ من أن تطلب مني الأحاديث .. فقلت له : ولكنك لوحدثتني أحاديث فرائد ليست عندي ، كان أحبَّ إليّ من أن تهب لي عددها دنانير . قال : إنك مفتون . أما والله لوعملت بما سمعت ، لكان لك في ذلك شغل عما لم تسمع . ثم قال : سمعت سليمان بن مهران يقول : « إذا كان بين يديك طعام تأكله ، فتأخذ اللقمة فترمي بها خلف ظهرك ، كلما أخذت اللقمة رميت بها خلف ظهرك ، متى تشبع ؟ »[١] .

اشتهر في الكوفة بمقته الشديد للبدع والمبتدعة ، وكان كثير التحذير منهم . وذلك هو شأن العلم بكتاب الله وسنّة رسوله . كلما ازداد المسلم علماً بهما ، ازدادت حقيقة البدعة ظهوراً أمامه ، فازداد حذره منها وابتعاده عنها .

قال بشر بن الحارث المشهور بالحافي : سمعت الفضيل بن عياض يقول :

« إن الله قد حجر التوبة عن كل صاحب بدعة[٢] . وشرّ أهل البدع المبغضون لأصحاب رسول الله ﷺ » . ثم التفت إليّ ، فقال : « اجعل أوثق عملك عند الله عزّ وجلّ حبّك لأصحاب نبيّه صلّى الله عليه وعلى آله وسلم ، فإنك لوقدمت الموقف بمثل تراب الأرض ذنوباً غفرها لك الله عزّ وجلّ . ولو جئت الموقف وفي قلبك مقياس ذرة بغضاً لهم ، لما نفعك بذلك عملك »[٣] .

---

(١) حلية الأولياء ٨٧/٨

(٢) إنما يستقيم هذا ، فيما لو بقي التّائب عاكفاً على بدعته .

(٣) من الواضح أن الفضيل رحمه الله إنما يستند في بيان أهمية حبّ أصحاب رسول الله ﷺ والتحذير من الهلاك بسبب بغضهم أو بغض بعض منهم إلى صريح كتاب الله عزّ وجلّ والصحيح الثابت من كلام رسول الله . انظر إلى ثناء الله على أصحاب رسول الله في قوله عزّ وجلّ : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسولُ اللهِ والَّذينَ مَعَهُ أشِدّاء على الكُفّارِ رُحَماء بَيْنَهُم تَراهُمْ رُكَّعاً سُجّداً ﴾ الآية [الفتح : ٢٩/٤٨] . وانظر إلى ثناء الله على المهاجرين ثم الأنصار ، بدءاً من

وكان يقول : « إذا علم الله في رجل أنه مبغض لصاحب بدعة ، رجوت أن يغفر الله له ، وإن قلَّ عمله » ، ويقول : « إن لله ملائكة يطلبون حلق الذِّكر ، فانظر مع من يكون مجلسك ، لا يكن مع صاحب بدعة ، فإن الله لا ينظر إليه . وعلامةالنفاق أن يقوم الرجل ويقعد مع صاحب بدعة » .

وكان ينصح فيقول : « لا تجلس مع صاحب بدعة . فإني أخاف أن تنزل عليه اللعنة . وإن من علامة البلاء أن يكون خِدْنُ الرجل صاحب بدعة » .

ولعلَّ من أهم الأسباب التي دعت إلى شدة تحذيره من البدع وأصحابها ، ما رآه في الكوفة وما حولها ، من هيجان الفرق الإسلامية المبتدعة وتكاثرها . وانتشار خطرها . وكان جلّ نشاطها في البصرة والكوفة . وكان سواد المسلمين من علماء التفسير والحديث والفقهاء ، يتّخذون موقف التشاغل عنها ، والابتعاد عن خصومات ومجادلات أهلها .. وكانوا يتقون وباء تلك الفرق ، وما تحمله من بدع وانحرافات في العقيدة ، بتجاهل أمرها ، والعكوف على ما هم بصدده ، من الاشتغال بعلوم الفقه أو التفسير أو الرواية والحديث .

وذلك قبل أن يقيّض الله لسلف هذه الأمة وسوادها الأعظم ، **أهل السُّنة** والجماعة ، اللسان الناطق باسمهم ، والمدافع عن الحق الذي اجتمع عليه أصحاب

= قوله تعالى في سورة الحشر : ﴿ لِلفُقَرَاءِ الْمُهاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجوا مِنْ دِيارِهِمْ .. ﴾ إلى قوله عزّ وجلّ : ﴿ ومَنْ يوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحونَ .. ﴾ [٥٩/٨ ـ ٩] . ثم انظر إلى قول رسول الله فيما يرويه مسلم في صحيحه : « لا تسبّوا أصحابي ، لا تسبّوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لوأن أحدكم أنفق مثل أُحد ذهباً ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه » فهل ترى ياأخي المسلم ، بعد هذا ، أن من الأدب أو اللياقة مع الله ورسوله أن نصطفي من هؤلاء الذين أثنى الله ورسوله عليهم من نسمّيهم : المنتجبين ، ثم نخصّهم وحدهم بالثناء والصلاة عليهم ، لنصحح ونخصص بذلك عموماً نقرؤه في كتاب الله والصحيح الثابت عن رسول الله ؟

رسول الله ثم التابعون فمن بعدهم ، ذاك الذي بدّد بالحجج العلمية الباهرة بدع تلك الفرق وأهواءها ، ألا وهو أبو الحسن عليّ بن إسماعيل الأشعري : (٢٦٠ ـ ٣٣٠ هـ) .

فلما قيض الله منه منتصراً بالحجة والبرهان لعقائد أهل السُّنة والجماعة ، سرعان ما أحدق به والتف مِن حوله ، مؤيِّداً ومتَّبعاً ، كل أولئك العلماء ، الذين كانوا منصرفين في صمت إلى الاشتغال بعلومهم ، من فقه وتفسير وحديث ، إذ رأوا فيه اللسان الناطق باسمهم ، والعاصم لهم من تلك الشذوذات ، والحرز الواقي مما تحمله فقاقيع تلك الجماعات[١] .

فلا غرو أن يكون الفضيل بن عياض ـ وقد عاش في غمرة شذوذات تلك الفرق ورأى بالغ عتوها ـ شديد الكراهية لها ، عظيم التحذير منها ، كثير الوصية بالابتعاد عنها ، وعدم الإصغاء إلى مخرقتها ، خوفاً من الافتتان بها ، والرُّكون إليها .

☆ ☆ ☆

وفي هذه المرحلة من حياة الفضيل ، سمع هارون الرشيد باسمه ، وبلغه الكثير من صفاته ومناقبه ـ وكان من عادته تتبُّع أخبار العلماء الصالحين ، والعمل على لقائهم ، والإصغاء إلى نصائحهم ـ فقال لسفيان بن عيينة ، وكان يأنس به : « أشتهي أن أرى الفضيل بن عياض ، وأسمع كلامه » . فقال له سفيان : « إن علم أنك أمير المؤمنين لم ينبسط .. » ، قال : « فكيف السبيل إلى ذلك ؟ » ، قال : « نذهب جميعاً إليه ، وأنت متنكِّر » ، وكان ذلك أول لقاء بينهما . ودخل الرشيد عليه مع جمع الناس متنكِّراً ، ثم عرَّف سفيان فضيلاً به ، بعد أن استرسل فتحدَّث طويلاً في النُّصح والموعظة . وخرج الرشيد من مجلسه باكياً متأثِّراً[٢] .

(١) انظر بيان هذا الموجز في وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٢٦/٢ ، وطبقات الشافعية لابن السبكي ٣٦٥/٣ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٣٠٣/٢ ، وتبيين كذب المفتري لابن عساكر ١١٢ وما بعدها .

(٢) تاريخ ابن عساكر ٣٢٢/٢٠ ، وصفة الصفوة ٢٤٠/٢ .

ثم إن الرشيد دعاه بعد ذلك مع جمع من العلماء ، فاستجاب لدعوته ، وقد مرَّ خبر ذلك من قبل .

وقد كان الفضيل لا يألو جهداً في الدعاء لهارون الرشيد . وهو القائل : « لو أن لي دعوة مستجابة لصيَّرتها للإمام » . قيل له : « وكيف ذلك يا أبا علي ؟ » ، قال : « متى صيّرتها في نفسي لم تجزْني ، ومتى صيَّرتها في الإمام فإصلاح الإمام إصلاح العباد والبلاد »[1] . وروى ابن عساكر أن عبد الله بن المبارك كان في مجلس الفضيل عندما قال هذا الكلام ، وأنه قبَّل جبهته قائلاً : يا معلِّم الخير ، من يحسن هذا غيرك[2] .

ولعل هذا السبب ذاته هو الذي جعله يقول ، فيما رواه عنه عمار بن ليث : « ما من نفس أشدّ عليّ موتاً من هارون الرشيد أمير المؤمنين . فلوددت أن الله زاد من عمري في عمره » . يقول عمار بن ليث : « فكبر ذلك علينا . فلما مات هارون ، وظهرت تلك الفتن ، وكان من المأمون ما حمل الناس على القول بخلق القرآن ، قلنا : إن الشيخ كان أعلم بما تكلَّم به » .

كان رحمه الله إذا جمعه مجلس مع الرشيد ، لم يألُ جهداً في نصحه ووعظه ، مع الاستغناء الدائم عما في يده . فإذا غاب عنه وضمّه مجلس مع العلماء أو عامة الناس ، لم يتجمَّل بالحديث عن شيء من مواقفه معه ، ولم يأذن لأحد بأن يغتابه . وهو القائل في مجلس من هذا القبيل : « ما لكم وللملوك أيها الناس !.. ما أعظم منَّتهم عليكم أن تركوا لكم طريق الآخرة .. فاركبوا طريق الآخرة إلى الله .. تعيبونهم بالدنيا ، ثم تزاحمونهم عليها !.. ما ينبغي للعالم أن يرضى بهذا لنفسه »[3] .

---

(١) نقل مثل هذا عن الإمام مالك أيضاً . وقد كان مالك والفضيل متعاصرين .

(٢) مختصر تاريخ ابن عساكر ٣٢٢/٢٠

(٣) أقول : هذا هو شأن الإخلاص لوجه الله عزّ وجلّ في السلوك والدعوة . وعلى هذا النهج لا بدّ أن يلتقي المخلصون لوجهه .. لا يصانعون الحاكم ابتغاء مصالحهم الدنيوية ، ولا يصانعون الناس ابتغاء المحافظة على سمعتهم : جرآء في دين الله ، نصحاء للملوك

وأثناء مقامه في الكوفة اشتهر أمره ، واقترن اسمه في الأوساط كلها بالعلم الغزير ورواية الحديث ، وشدّة الورع والزُّهد .

قال عنه ابن ناصر الدين : « الفضيل بن عياض ، أبو علي التَّميمي ، إمام الحرمين ، شيخ الإسلام ، قدوة العلماء الأعلام ، حدَّث عنه الشافعي ويحيى القطان وغيرهما . وكان إماماً ربّانيّاً كبير الشأن ثقةً نبيلاً عابداً زاهداً جليلاً »[١] .

ووصفه الذهبي في سير أعلام النبلاء بمثل ذلك ، وعدّ الذين رووا عنه من كبار العلماء والمحدثين ، فكانوا زهاء خمسة وثلاثين[٢] .

غير أنه كان حذراً جدّاً في مجال الإذن برواية الحديث عنه ، خوفاً من أن لا يصادف حديث رسول الله أهلاً لذلك .. وربما قيل له في المناسبات : ألا تحدّثنا ياأبا عليّ فتؤجرَ ؟.. فيقول : على أيّ شيء أُؤجر ؟!.. على شيء تتفكّهون به في المجالس ؟!.

ودخل عليه أبو رَوْح ، حاتم بن يوسف ، فقال : ياأبا عليّ ، معي خمسة أحاديث إن رأيت أن تأذن لي فأقرأها عليك .. فقرأها ، فإذا هو ستة !.. فقال له : أفّ !.. قُمْ يابنيّ ، تعلَّم الصدق ثم اكتب الحديث[٣] .

= والسلاطين !.. وبهذا السّرّ الرَّباني تسري نصائح هذه النُّخبة إلى أفئدة الملوك والحكّام بالفائدة والتأثير .

(١) شذرات الذهب لابن العماد ٢١٧/١

(٢) سير أعلام النبلاء ٤٢٢/٨

(٣) مختصر تاريخ ابن عساكر ٣١٩/٢٠

أخيراً .. استقراره في مكة

واصل الفضيل ، بعد ذلك ، رحلته ، متَّجهاً إلى الحرم المكّي ، كما وعد بذلك الناس الذين سمعهم يتواصون بالحذر من الفضيل ، وبأخذ الحيطة خوفاً من أذاه .

وهناك ألقى عصا التَّسيار ولازم بيت الله الحرام . وكان واحداً من أبرز أفراد الحجيج في ذلك العام . وشهد الناس من عجيب عبادته وشدّة التجائه إلى الله في المناسك أمراً عظيماً . روى ابن الجوزي في صفة الصفوة عن مهران بن عمرو الأسدي ، قال : سمعت الفضيل بن عياض عشية عرفة بالموقف ، وقد حال بينه وبين الدعاء البكاء ، يقول : واسوأتاه .. وافضيحتاه .. وإن عفوتَ عني !.. وقال إسحاق بن إبراهيم الطبري : وقفت مع الفضيل بن عياض بعرفات ، فلم أسمع من دعائه شيئاً . إلاّ أنه وضع يده اليمنى على خدّه ، وطأطأ رأسه يبكي بكاءً خفيّاً . فلم يزل كذلك حتى أفاض الإمام ، فرفع رأسه إلى السماء يقول : واسوأتاه والله منك ، وإن غفرت . قالها ثلاث مرات[1] .

أما صلاته في الليل فقد وصفها إسحاق بن إبراهيم فقال : كان يلقى له حصير في مسجده ، فيصلّي من أول الليل ساعة ، ثم تغلبه عينه فيلقي نفسه على الحصير فينام قليلاً . ثم يقوم .. فإذا غلبه النوم نام . ثم يقوم يصلّي .. وهكذا حتى يصبح . وكان دأبه إذا نعس أن ينام[2] .

---

(١) صفة الصفوة ٢٣٩/٢ ، ومختصر تاريخ ابن عساكر ٣١٦/٢٠

(٢) مختصر تاريخ ابن عساكر ٣٠٦/٢٠ ، وحلية الأولياء ٨٥/٨

وهكذا ، فقد جمع الفضيل لدى مستقرّه في مكة إلى العلم الغزير ورواية الحديث ، كثرة العبادة وشدّة الورع والزُّهد في الدنيا . وقد سرت حاله هذه إلى أسرته وأولاده ، فكانوا مثال الانقطاع إلى العبادة ومثال الخوف من الله والحبِّ له .

ولم أقف في حياتي على ترجمة أي من العلماء الرَّبانيِّين ، بلغ أولاده من الإقبال على الله والانقطاع له والتَّعلُّق به حبّاً وخوفاً ، ما بلغه أولاد الفضيل . فيا عجباً لأسرة يقود أفرادها جميعاً لهيب الشوق إلى الله !!..

يقول فضيل : رأيت ابني عليّاً يبكي . فقلت : ما يبكيك يا بني ؟ قال : أخاف أن لا تجمعنا القيامة !.. وقال : أشرفت ليلة على ابني عليّ وهو في صحن الدار ، فسمعته يقول : النار !.. متى الخلاص من النار ؟.. ثم قال لي : يا أبتِ سَلِ الذي وهبني لك في الدنيا أن يهبني لك في الآخرة !.. ثم قال الفضيل : لم يزل ـ أي ابني ـ منكسر القلب حزيناً . ثم قال : كان يساعدني على الحزن والبكاء . يا ثمرة قلبي ، شكر الله لك ما قد علمه فيك .

وكان قد توفِّي علي قبل أبيه .. توفي من آية سمعها من تال يقرأ القرآن .

قال أبو سعيد الخراز سمعت إبراهيم بن بشار يقول : الآية التي مات منها عليّ بن الفضيل هي قول الله تعالى : ﴿ ولَوْ تَرى إذْ وُقِفوا عَلى النّارِ فَقالوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ ولا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا ونَكونَ مِنَ الْمُؤْمِنينَ ﴾ [الأنعام : ٦/٢٧] ، قال : وكنت فيمن صلَّى عليه رحمه الله[١] .

وكانت له ابنة لا تقلُّ ورعاً وإقبالاً على الله بسائق مثل هذا الحبِّ والخوف ، عن أخيها !.. وكان الفضيل ـ وهو الذي يخشع الرشيد ويبكي لنصائحه ، ويتأثر كبار العلماء كسفيان بن عيينة لمواعظه وتقاريعه ـ يتلقى النصائح من ابنته هذه ويسمع بأذن المريد إلى دقائق تنبيهاتها له ، فيقف منها موقف المتعلِّم من معلِّمه !..

(١) سير أعلام النُّبلاء ٨/٤٤٥ وما بعدها .

دخل مرّة عليها يعودها ، وقد كانت تعاني من وجع في كفّها . فقال لها : « يا بنيّة ، كيف كفّك هذه ؟ » ، فقالت له : « يا أبت ، قد بسط الله لي من ثوابها ، ما لا أؤدي شكره عليه أبداً !.. » ، فتعجّب من حسن يقينها . قال الفضيل : « فأنا عندها قاعد ، إذ أتاني ابن لي له ثلاث سنين ، فقبّلته وضممته إلى صدري » . فقالت لي : « يا أبتِ سألتك بالله أتحبُّه ؟.. فقلت : إي والله يا بنية ، إني لأحبه » ، فقالت : يا سوأتاه لك من الله يا أبتِ !.. إني ظننت أنك لا تحبُّ مع الله غير الله ! » ، فقلت لها : « أي بنية أفلا تحبُّون الأولاد ؟» ، فقالت : « المحبّة للخالق ، والرحمة للأولاد » . فلطم الفضيل رأسه وقال : « يا ربّ ، هذه ابنتي هيمتني في حبّها وحبّ أخيها !.. وعزّتك لا أحببت معك أحداً حتى ألقاك »[1] .

يا قارئي العزيز : تأمّل ، ثم قل لي : هل قرأت أو سمعت أن في العلماء الرّبانيّين الذين خلوا من قبل في عصور السلف ، من سابقه أولاده فسبقوه في السّعي إلى الله ، حبّاً له ، وخوفاً منه ، وتعلّقاً به ، حتى كان موقفهم منه موقف الناقد له والناصح والمذكر ، كما ترى ، غير فضيل بن عياض هذا ؟!.. يخشع الكلّ لعظاته وتذكرته ، وعلى رأسهم هارون الرشيد ، ويخشع هو لعظات ابنته وابنه ، ويتعلم من كلٍّ منهما فنّ الهيام الحقيقي في الله !..

☆ ☆ ☆

---

(١) حلية الأولياء ٨/٨٥ ، ومختصر تاريخ ابن عساكر ٢٠/

الرِّضا بعد القضاء

في هذه المرحلة الأخيرة من حياة الفضيل ، ولدى استقراره في الحرم المكّي ، تشبّعت مشاعره بالرِّضا عن الله عزّ وجلّ ، ممتزجاً بالحزن الذي ظلَّ رفيقه إلى النهاية .

أورثته مشاعر الرِّضا هذه ، قدراً كبيراً من طمأنينة القلب وسكينة النفس . فتحوَّل مع الأيام حزنه على ما غبر منه في صدر حياته ، إلى استسلام لحكم الله ، وثقة تامة بلطفه ورحمته .

فكان إذا استنصحه أحد الناس ، نصحه بأن يجعل رأس ماله الرِّضا عن الله . زاره بشر بن الحارث المشهور بالحافي . فلما جلس إليه ، قال له : « يا بشر ، الرِّضا عن الله أكبر من الزُّهد في الدنيا » . قال له بشر : « كيف ذلك ؟.. » قال : « يكون العطاء والمنع في قلبك بمنزلة واحدة . وهو أساس الزهد كله » .

وسأله رجل فقال : « يا أبا عليّ ، علِّمني الرِّضا » ، قال له الفضيل : « يا ابن أخي ارضَ عن الله يهَبْ لك الرِّضا » .

ومات لهارون الرشيد ولد ، فكتب إليه الفضيل :

« أما بعد يا أمير المؤمنين ، إن استطعت أن يكون شكرك له ، حين أخذه منك ، أفضل من شكرك له حين وهبه لك فافعل .. يا أمير المؤمنين إنه جلَّ ثناؤه ، لما وهبه لك أخذ هبته . ولو بقي لم تسلم من فتنته ، أرأيت جزعك عليه وتلهُّفك على فراقه ..؟ أرضيت الدنيا لنفسك فترضاها لابنك ؟ أما هو فقد خلص من الكدر وبقيت أنت في الخطر » .

أقول : وإذا هيمنت مشاعر الرِّضا عن الله على الفؤاد المؤمن ، ذابت حواجز الفرق بين ما قد ينتابه من مشاعر الخوف والحب والحزن على ما فات والجزع مما هو مقبل .. إذ ينصهر كل ذلك في بوتقة الرِّضا عن الله وحكمه !.. وإنما تنمو مشاعر الرِّضا في مناخ الحبِّ ، فهو ثمرته ونتيجته .

غير أن خوفاً أو جزعاً من نوع جديد ينشأ في ظلِّ الرُّكون إلى هذا الرِّضا ، إنه ذاك الذي ينبثق من مشاعر الخوف لدى من أكرمه الله بهذه النعمة ، من أن يجرِّده يوماً ما عنها ، ومن أن يبعده الله عنه بعد أن ذاق لذة القرب منه ، ومن أن تحول معكرات الدنيا بينه وبين قلبه ... وهو ما قد حذَّر الله عزّ وجلّ عباده منه في قوله : ﴿ واعْلَموا أنَّ اللهَ يَحولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وقَلْبِهِ ﴾ [الأنفال : ٢٤/٨] .

وكلما ازداد المؤمن رضاً عن الله ، ازداد شعوراً بضآلته وحقارته ، في جنب ما قد يفد إليه من مولاه وخالقه .. إذ إن رضاه عن الله يريه كل ما يأتيه من عند الله نعماً ومنناً وفضلاً . فليس فيما يتقلب فيه من الأحوال حلو ومرّ . بل كل ذلك يصبح تحت سلطان رضاه عن الله أحلى من الشَّهد ، فإذا عاد صاحب هذا الرِّضا إلى نفسه ، وجدها من التقصير في جنب الله والتقصير في حقوقه ، بحيث لا يستأهل أن يغمره الله بكل هذا العطاء ، وأن يواصل إكرامه له بكل تلك المنن !..

وتلك هي الحال التي آل أمر الفضيل بن عياض إليها : رضا عن الله في كل الأحوال ، وشكر دائم على نعمه التي لا يرى نفسه أهلاً لها ، مع الاستحياء منه عزّ وجلّ أن يتلقى منه كل تلك المنن ، ثم لا يقابلها بجزائها الذي يستحقّه من الحمد والشكر الحقيقيين ، وصدق المعاملة معه .

ويتجلى هذا الرِّضا الممزوج بهذه المشاعر والذي تجلَّى في المرحلة الأخيرة من حياة الفضيل ، فيما كان يناجي به نفسه بين الحين والآخر من عبارات التأنيب والتقريع ،

بسبب ما يرى من تقصيره في القيام بحقّ الرُّبوبية ، وفي أداء واجبات الشكر على ما يفد إليه من عظيم ألطاف الله وسابغ مننه .

وإليك هذه النماذج من أحاديثه التي كان يخاطب بها نفسه :

قال عبيد الله بن عمر : دخلت أنا ويحيى بن سليم على الفضيل نعوده ، فقال الفضيل ، وجعل يضرب بيده على رأسه : « يا فضيل ، خلقَك ، وأفرغَ عليك نعمه ظاهرة وباطنة ، وحرسَك بعينه ، وصرف وجوه الناس إليك ، وكنت تشتغل عنه !.. مَن أنتَ ؟ وما أنتَ ؟ » ، ثم شهق شهقة وسقط .. فغُطِّيَ بثوب ، وجعل ينتفض وهو لا يعقل !.. وتركناه على تلك الحال[1] .

وقال إبراهيم بن الأشعث : سمعت الفضيل يقول :

« هيه .. وتريد أن تسكن الجنة ، وتريد أن تجاور الله في داره مع النَّبيِّين والصِّديقين والصّالحين !.. وتريد أن تقف المواقف مع الأنبياء ، مع نوح وإبراهيم ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين !.. يا أحمق ، بأي عمل ، بأي شهوة تركتها لله ؟.. بأي غيظ كظمته لله ؟.. وبأي رحم قاطع وصلتها ؟.. وبأي قريب باعدته في الله ؟.. بأي بعيد قرَّبته في الله ؟.. بأي حبيب رأيته يعمل بما يكرهه الله ، فأبغضته في الله ؟.. ولكن بعفوه ورحمته نرجوه !.. نرجوه مع إساءتنا . ولا نقول أحسنّا ولكن نقول : أسأنا ، وبئس ما صنعنا »[2] .

وكثيراً ما يزدحم مجلسه بطلاب الحديث ، يكتبون ويروون عنه الحديث . فإذا انفضّوا من مجلسه ، راح يخاطب نفسه ، ويقرِّعها بهذا الكلام :

« هاهم أولاء يجتمعون حولك ، يكتبون الحديث عنك .. بخ بخ !!.. لقد تفرغت

(١) مختصر تاريخ ابن عساكر ٢٠/٣٠٥

(٢) المرجع السابق ٢٠/٣١٧

للحديث ـ ويتنفَّس طويلاً ثم يقول : ويحك أنت تحسن الحديث ؟!.. أوَأنت أهل لأن يُحمَل عنك ؟ استحِ ياأحمق بين الحمقان . لولا قلة حيائك وسفاهة وجهك ما جلست تحدِّث ، وأنت أنت .. أما تعرف نفسك ؟.. أما تذكر ما كنت ؟ أما تذكر كيف كنت ؟.. أما لوعرفوك ما جلسوا إليك ، ولا كتبوا عنك ، ولا سمعوا منك أبداً » .

ثم يقول : « ويحك أما تذكر الموت ؟ أما للموت في قلبك موضع ؟ أما تدري متى تؤخذ فيرمى بك في الآخرة ؟ فتصير في القبر وضيقه ووحشته ؟.. أما رأيت قبراً قطّ ؟.. أما رأيت حين دفنوه ؟ أما رأيت كيف سلّوه[1] في حفرته ، وهالوا عليه التراب والحجارة ؟ » .

ثم يقول : « ما ينبغي لك أن تتكلم بفمك دون فقهك . أتدري من كان يتكلم بفقهه ؟ عمر بن الخطاب !.. كان يطعم الطيب ويأكل الغليظ ، ويكسوهم اللين ويلبس الخشن ، وكان يعطيهم حقوقهم ويزيدهم !.. أعطى رجلاً عطاءه ، أربعة آلاف درهم ، وزاده ألفاً . فقيل له : ألا تزيد أخاك كما زدت هذا ؟.. قال : إن أبا هذا ثبت يوم أحد ، ولم يثبت أبو هذا »[2] .

---

(١) أي من نعشه ، وأنزلوه في حفرته .

(٢) حلية الأولياء ٨/٨٦

شهادة أهل عصره فيه

أجمع الثِّقات من أهل عصر الفضيل على أنه كان نموذج عصره في الورع والعبادة والزهد ، وكان واسع العلم كثير الحديث .

قال عنه محمد بن سعد : « كان ثقةً نبيلاً فاضلاً عابداً ورعاً ، كثير الحديث » .

وقال عنه عبد الله بن المبارك : « ما بقي على ظهر الأرض عندي أفضل من الفضيل بن عياض » .

وروى أحمد بن الحواري عن الهيثم بن جميل ، قال : سمعت شريكاً يقول : « لم يزل لكل قوم حجة في أهل زمانهم . وإن فضيل بن عياض حجة لأهل زمانه » .

وقال عنه ابن المبارك : « إن الفضيل بن عياض صدق الله ، فأجرى الحكمة على لسانه ، فالفضيل ممن نفعه علمه » . وقال ابن المبارك أيضاً : « ما بقي في الحجاز أحد من الأبدال إلا فضيل بن عياض ، وابنه عليّ . وعليّ مقدّم في الخوف » .

وقال نصر بن مغيرة البخاري : « سمعت إبراهيم بن شمّاس يقول : رأيت أفقه الناس ، وأورع الناس ، وأحفظ الناس : وكيعاً ، والفضيل ، وابن المبارك »[1] .

وقد أجرى الله الحكمة على لسانه ، كما قال ابن المبارك ، فكانوا يقيّدون الحكمة من فمه كما كانوا يكتبون الحديث عنه .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤٢٤/٨ .

ومن الحكم التي رويت عنه قوله : « من خاف الله لم يضرُّه أحد ، ومن خاف غير الله لم ينفعه أحد » .

وسأله أحدهم : « يا أبا علي ، ما الخلاص مما نحن فيه » ؟ فقال : « أخبرني ، من أطاع الله ، هل تضرُّه معصية أحد ؟ » ، قال : « لا » . قال : « فمن يعصي الله ، هل تنفعه طاعة أحد ؟ » ، قال : « لا » . قال : « هو الخلاص إن أردت الخلاص »[١] .

وقال إبراهيم بن الأشعث : سمعت الفضيل يقول : « أكذب الناس العائد في ذنبه . وأجهل الناس المدلّ بحسناته . وأعلم الناس بالله أخوفهم منه . ولن يكمل عبد حتى يؤثر دينه على شهوته . ولن يهلك عبد حتى يؤثر شهوته على دينه » .

وقال أيضاً : « رهبة العبد من الله على قدر علمه بالله . وزهادته في الدنيا على قدر رغبته في الآخرة . من عمل بما علم ، استغنى عما لم يعلم . ومن عمل بما علم وفَّقه الله لما لا يعلم . ومن ساء خلقه شان دينه وحسبه ومروءته » .

وقال : « ترك العمل من أجل الناس رياء ، والعمل من أجل الناس شرك . والإخلاص أن يعافيك الله منهما » ، وهو القائل : « بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عند الله ، وبقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله »[٢] .

وكان يقول في مرضه الذي توفي فيه : « اللَّهم ارحمني بحبِّي إياك ، فليس شيء أحبَّ إليَّ منك » .

☆ ☆ ☆

وهكذا افتتح فضيل بن عياض حياته ، فاتكاً يرعب الناس ويقطع على السابلة

---

(١) حلية الأولياء ٨/٨٨ ، وسير أعلام النبلاء ٨/٤٢٦ .

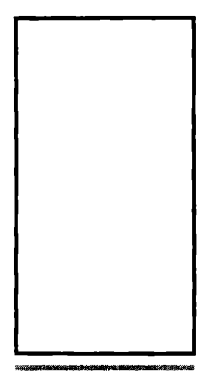
(٢) سير أعلام النبلاء ٨/٤٢٦ و ٤٢٧

طريقهم . ثم اجتباه الله إليه بدعوة في آية من كتابه .. وكانت تلك الساعة هي فاتحة رحلة الحزن في حياته .

وعلى الرغم من أنه طوى أخيراً آماله وآلامه كلها تحت جناحي رضاه التّام عن الله عزّ وجلّ ، فقد بقي مشدوداً إلى مشاعر الخجل والاستحياء من الله أمام ذكرى أيامه الخوالي ، وحاضره الذي ظلّ يرى نفسه فيه مقصّراً في جنب الله بعيداً عن الوفاء بجزء من حقّه !..

ولعلَّ أجمع كلمة ترجم بها مشاعره هذه ، قوله عشية يوم عرفة : واسوأتاه ، وافضيحتاه ، وإن عفوتَ عنّي !..

توفّي الفضيل رحمه الله في مكة عام سبعة وثمانين ومئة ، عن اثنين وثمانين عاماً .



عبد اللّه بن المبارك

١١٨ ـ ١٨١ هـ

٧٣٦ ـ ٧٩٧ م

المعنى الفريد في شخصية عبد الله بن المبارك

لو أردت أن أتصوَّر البنيان الإسلامي المتكامل ، مُتمثلاً في عقائده ، وعباداته المتنوعة وأخلاقه الإنسانية الراشدة ، والبِشْر الذي يرسمه على قسمات الوجوه ، والكرم الذي يغرسه في النفوس ، والجهاد الذي تضؤل معه قيمة الحياة والرّوح ، والجهد العمراني والاقتصادي الذي يحمي المجتمع وينعش الفرد ... أقول : لو أردت أن أتصور هذا البنيان الإسلامي بجوانبه المتكاملة والمتوازنة هذه ، متمثلاً في رجل من الناس ، من دون الرُّسل والأنبياء ، لوجدتني أمام رجل واحد ، هو عبد الله بن المبارك .

فهو الرجل الذي برزت فيه هذه الصفات كلها ، وتجلَّت في سيرته وأخلاقه وسلوكه هذه الجوانب الإسلامية متوازنة متَّسقة متآلفة ، فلم يطغَ جانب منها على جانب ، ولم يشغله الاهتمام ببعض منها عن الانصراف بالاهتمام ذاته إلى البعض الآخر .

وسترى فيما سأخطُّه لك الآن ، ملخصاً ، من سيرة حياته ، ما يبرز لك هذه الحقيقة النادرة التي لم تبرز إلا في حياة الرُّسل والأنبياء الذين جعل الله منهم نماذج حيّة للإسلام الكلّ : الإسلام الديني والدُّنيوي والأخلاقي والاجتماعي .

لذا فإنني لم أعجب من الوصف الذي وصفه الإمام النّووي به ، وهو الدقيق في أحكامه وشهاداته ، عندما رأيته يقول عنه : « هو الإمام المجمع على إمامته وجلالته في كل شيء ، والذي تُستنزل الرَّحمة بذكره ، وتُرتجى المغفرة بحبِّه »[1] .

☆ ☆ ☆

(١) تهذيب الأسماء واللغات للإمام النّووي ١/٢٨٥

ولد ابن المبارك في خراسان عام ثمانية عشر ومئة ، وكان والده تركيّاً . وكان رقيقاً تحت يد رجل من تجار همذان من بني حنظلة . روى ابن العماد في كتابه (شذرات الذهب) أنه كان يرعى بستاناً لمولاه ، فدخل عليه البستان مرة وطلب منه أن يأتيه برمانة حامضة فجاء بواحدة ، وإذا هي حلوة . فطلب منه أن يأتيه بأخرى حامضة . فجاءه بثانية ، وإذا هي كالأولى . فقال له مولاه مؤنِّباً : أنت تعمل في هذا البستان منذ كذا ، ولا تعرف حلو الرمان من حامضه ؟!.. قال : كيف أعرفه وأنا لم أذقه ؟.. قال : ولم ؟.. قال : لأنك لم تأذن لي في ذلك . فأُعجب سيده بورعه وأمانته . وكانت له بنت تُخْطَبُ كثيراً ، فقال له : يا مبارك من ترى نزوّج هذه البنت ؟ فقال : في الجاهلية كانوا يزوّجون للحسب ، واليهود للمال ، والنصارى للجمال ، وهذه الأمّة للدّين . فأُعجب بعقله وقال لأُمّها : ما لها زوج غيره ، فأعتقه وزوّجه إياها ، فجاءت بعبد الله[1] .

نشأ ابن المبارك وفي نفسه من هوى الشباب ورغائبهم ، ما يوجد لدى سائر أترابه ؛ وكان طروباً يهوى العزف على العود ويتقنه . ثم أضرب عن ذلك كله وتوجّه إلى طلب العلم .

قال عن نفسه ، يروي أول عهده بالانصراف عن ملهيات الدنيا ، وبالإقبال على الله : كنت يوماً في بستان وأنا شاب مع جماعة من أترابي ، وذلك في الصيف وقد نضجت الفواكه . فأكلنا وشربنا . وكنت مولعاً بالعزف على العود . فنمت بعض الليل ، ثم استيقظت وإذا غصن يتحرك عند رأسي . فاستهواني الحال ، وأخذت العود لأعزف عليه . فإذا العود ينطق قائلاً : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وما نَزَلَ مِنَ الحقِّ ﴾ [الحديد : ١٦/٥٧] . فضربت بالعود الأرض فكسرته ، وصرفت

---

(١) شذرات الذهب لابن العماد ٢٩٦/١ ، وقد روى هذه القصة ابن خلكان ثم ذكر أنها نقلت عن إبراهيم بن أدهم أيضاً .. فالله أعلم .

ما عندي من جميع الأمور التي كنت عليها مما يشغل عن الله ، وجاء التوفيق من عند الله عزّ وجلّ [١] .

أقول : لله هذه الآية من كتاب الله عزّ وجلّ ، كم أيقظت سادرين ، ونبّهت غافلين ، وأرشدت تائهين .. عرفنا منهم قلّة ، ولعل الكثرة الكبرى تلك التي لم نسمع عنها ولم نُحِط علماً بها !..

(١) مختصر تاريخ ابن عساكر ١٤/١٥

طلبه العلم وإقباله على الله

كان عمره عشرين عاماً ، عندما توجَّه بكلِّيته إلى دراسة العلم وطلبه . فأخذ عن سفيان الثوري ، ومالك بن أنس ، وروى عنه الموطأ . وارتحل في طلب العلم إلى أمصار وبلدان كثيرة متباعدة ، وأخذ عن كثير من التّابعين .

وأقدم شيخ لقيه ، الربيع بن أنس الخراساني . رحل إليه ، وبحث عنه . فعلم أنه سجين !.. وكان قد سجن في عهد أبي جعفر المنصور بتهمة التَّشيُّع . فتحايل ، حتى دخل عليه السجن . وأخذ منه نحواً من أربعين حديثاً .

ومن أبرز شيوخه سفيان الثوري ، وسفيان بن عيينة ، وعاصم الأحول ، والأعمش ، وأبو حنيفة النعمان ، وخلق كثيرون .

وسمع بالإمام الأوزاعي ، وكانت إليه الصدارة في عصره ، فقدم عليه وأخذ منه . وكان الأوزاعي إذ ذاك من أبرز الفقهاء كما قلت .

يقول ابن المبارك ، وهو يروي خبر رحلته إليه : قدمت الشام على الأوزاعي ، إلى قريته بيروت[1] ، فقال لي : يا خراساني مَن هذا الذي خرج بالكوفة ؟ يعني أبا حنيفة . فرجعت إلى بيتي ، فأقبلت على كتب أبي حنيفة ، فأخرجت منها مسائل من جياد المسائل . وبقيت في ذلك ثلاثة أيام . فجئته في اليوم الثالث ، وكان مؤذنَ مسجدهم وإمامَهم . والكتاب في يدي . فقال : أي شيء هذا الكتاب ؟ فناولته إياه ، فنظر في مسألة منها وُقِّعتْ عليها . فقال : النعمان بن ثابت !.. فما زال قائماً بعدما

---

(١) كانت بيروت آنذاك صغيرة ، وكانت تعدّ قرية .

أذن ، حتى قرأ صدراً من الكتاب . ثم وضع الكتاب في كمه ، ثم أقام فصلّى ، ثم عاد فأخرج الكتاب حتى أتى على المسائل كلها .. فقال لي : يا خراساني !.. من النعمان بن ثابت هذا ؟!.. قلت : شيخ لقيته بالعراق . قال : هذا نبيل من المشايخ . اذهب فاستكثر منه .. قلت له : فهذا هو أبو حنيفة الذي نهيت عنه[1] .

ولم ينقطع ابن المبارك عن طلبه العلم إلى أن مات . سأله بعض أصحابه : إلى متى تطلب العلم ؟ فقال له : لعل الكلمة التي فيها نجاتي لم أسمعها بعد !.. ثم قال : أرجو أن تروني كذلك ، أي أطلب العلم ، إلى أن أموت .

وقد جمع رحمه الله إلى الحديث الذي حفظ منه ما لا يقلّ عن عشرين ألف حديث ، الفقه والأدب والنحو واللغة والشعر . ونزّه علمه ومعارفه عن البدع بأنواعها وعن المبتدعين بأصنافهم[2] .

سئل عن القرآن ، فقال : مَن زعم أنه مخلوق فقد كفر بالله العظيم ، لأن كلام الله من صفاته وصفاته قديمة قِدَم ذاته .

وسأل علي بن الحسن بنُ شقيق ، عبدَ الله بن المبارك : كيف يُعْرَفُ ربّنا عزّ وجلّ ؟ قال : على السماء السابعة على عرشه . ولا نقول كما تقول الجهمية : إنه ها هنا في الأرض . وقال له أحدهم : يا أبا عبد الرّحمن ، قد خفت الله من كثرة ما أدعو على الجهمية . فقال : لا تخف ، فإنهم يزعمون أن إلّهك الذي في السماء ليس بشيء[3] !..

أقول : وتلك هي عقيدة السَّلف رضوان الله عليهم . يأخذون بما نصّ عليه كتاب الله ، والصحيح من سنة رسول الله ، في حقّ الله تعالى وصفاته ، دون استزادة كيف أو تشبيه أو تجسيد ، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً .

(١) مختصر تاريخ ابن عساكر ١٤/١٤

(٢) شذرات الذهب ٢٩٦/١

(٣) سير أعلام النبلاء ٤٠٢/٨

وكان الإمام الأوزاعي يقول ـ وهو إمام وقته كما قال الذهبي ـ: كنّا والتابعون متوافرون نقول : إن الله تعالى فوق عرشه ، ونؤمن بما وردت به السُّنة من صفاته .. ومعلوم عند أهل العلم من الطوائف أن مذهب السلف إمرار آيات الصفات وأحاديثها كما جاءت من غير تأويل ولا تحريف ، ولا تشبيه ولا تكييف . فإن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذّات المقدّسة . وقد علم المسلمون أن ذات الباري موجودة حقيقة ، لا مثل لها . وكذلك صفاته تعالى موجودة لا مِثْل لها[1] .

وقال رحمه الله عن الشِّجار الذي وقع بين الصحابة ، بعد مقتل عثمان ، كلمة وافية جامعة ، عاصمة عن الزيغ والابتداع : « السيف الذي وقع بين الصحابة فتنة . ولا أقول عن أحد منهم إنه مفتون »[2] .

وكان إذا فتح معه باب من أبواب العلم ، استرسل في مذاكرته ، وتتبع دقائقه إلى ما شاء الله . وربما نسي نفسه والعمل الذي كان مقبلاً عليه والوقت الذي يمرُّ به . قال علي بن الحسن بن شقيق : قمت لأخرج مع ابن المبارك في ليلة باردة من المسجد ، فذاكرني عند الباب في حديث ، أو ذاكرته فيه . فما زلنا نتذاكر حتى جاء المؤذن لصلاة الصبح[3] .

غير أنه كان يردّد الكلمة التي قالها كثير من العلماء الرّبّانيين من السّلف والخلف : « كنا نطلب الحديث وفي خفافنا المباخر ، وكنا نطلبه لغير الله ، فردّنا إلى الله »[4] .

أقول : وللإمام الغزالي كلمة بمعناها تناقلها عنه مِن بعدُ العلماء ، وغيرهم . وهي : « طلبنا العلم لغير الله ، فأبى العلم إلا أن يكون لله » .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/٤٠٢

(٢) المرجع السابق ٨/٤٠٥

(٣) المرجع ذاته ٨/٤٠٤

(٤) مختصر تاريخ ابن عساكر ١٤/١٥

ومعنى هذا الكلام أن رحلة العلم إن استمرَّت وكانت صافية من كدورات البدع والأوهام ، فلا بدَّ من أن توصل صاحبها إلى الله .. وقد لا يشعر بذلك وهو في الطريق . ولكن مواصلة السَّير لا بدَّ من أن تسلمه إلى أقدس ثمرات العلم ، ألا وهي معرفة الله وتوجُّه القلب إليه بالمحبة والتعظيم والخوف .

وبالجملة فقد روى ابن المبارك أحاديث كثيرة ، وطلب العلم ، وصنَّف كتباً كثيرة في أبواب العلم وصنوفه ، حملها عنه قوم ، وكتبها الناس عنهم ، وسمع علماً كثيراً . وكان ثقةً مأموناً إماماً حجة كثير الحديث . وقال له أحدهم : حدثنا يا عالم المشرق ـ وكان سفيان قريباً منهم ـ فقال ؛ ويحكم هو عالم المشرق والمغرب وما بينهما[1] .

(١) مختصر تاريخ ابن عساكر ١٥/١٤

عبادته وورعه وزهده

كان ابن المبارك مضرب المثل في عصره ، في الصلاح والعبادة وشدّة الورع . ومع ذلك فقد كان يقول : « أحبُّ الصالحين ولستُ منهم . وأبغضُ الطّالحين وأنا شرٌّ منهم »[1] .

أقول : وهذا هو شأن الصالحين حقيقة من عباد الله . كلما ازدادوا قرباً منه ومعرفة له ، ازدادوا شعوراً بوطأة الحقوق الإلهية عليهم . ومن ثم ازدادوا شعوراً بسوء حالهم وبتقصيرهم في جنب الله عزّ وجلّ . والعكس أيضاً ثابت وصحيح .

وقد عبَّر ابن المبارك عن هذا الذي أقول بكلمة وجيزة جامعة ، أبرزت حقيقة حاله العالية مع الله عزّ وجلّ . وذلك عندما قال : « إذا عرف الرجل قدر نفسه ، يصير عند نفسه أذلّ من الكلب » .

كان رحمه الله كثير التلاوة للقرآن . وكان له شأن كبير وأحوال عجيبة أثناء تلاوته . فإذا ختمه أقبل يدعو الله بما شاء . ولم يكن يعجبه أن يدعوه إلا وهو ساجد .

وربما تلا الآية من القرآن في صلاته من الليل ، فأخذت معانيها بمجامع نفسه . فمضى يردّدها ويعيدها ، لا يستطيع أن يتجاوزها ، حتى يطلع الفجر . روى الذهبي أن رجلاً قال لابن المبارك : قرأت البارحة القرآن في ركعة !.. فقال له : لكني أعرف رجلاً لم يزل البارحة يكرر ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ .. ﴾ [التّكاثر : ١٠٢/١] ، إلى الصبح ، لم يستطع أن يتجاوزها ، يعني نفسه[2] .

---

(١) حلية الأولياء ١٧٠/٨ ، وسير أعلام النبلاء ٤١٧/٨

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٨٧/٨

ومما تميز به شأنه أنه كان يجمع بين ما يقبل عليه من مجالس العلم ، وما ينهض به من أعمال العبادة في وقت واحد ومن خلال عملٍ واحد !.. من ذلك أنه كان يكتب ما يسمع من العلوم . فإذا سوّد وجهي ورقته ، تركها لتجفّ ، وقام يركع . في حين أن الآخرين ضمن المجلس إذا تركوا أوراقهم تجف ، أخذوا في الكلام[1] .

وكانت عدّته في عباداته الكثيرة التي يحمل نفسه عليها ، شدّة خوفه من الله عزّ وجلّ !.. وربما عجب أحدنا من أن يكون الرجل موفّقاً في شؤونه وأعماله كلها ، قائماً بحقوق الله ، ساعياً في خدمة عباده وإكرامهم كما سنرى ، ثم يكون مع ذلك شديد الخوف من الله عزّ وجلّ عظيم الحذر من عقابه ، كما لو كان شارداً عن صراطه تائهاً عن أوامره ساعياً وراء أهوائه !..

غير أن موجب الخوف ليس محصوراً في ارتكاب الآثام أو التقصير في الواجبات ، بل إن الصالحين من عباد الله أشدّ خوفاً من العاصين أو المسرفين على أنفسهم ، كما قد أوضحت قبل قليل .. وهو يغلب أن يكون خوف تعظيم ومهابة ، وخوف حذر من أن يبعدهم الله عنه بعد القرب ، وأن يسخط عليهم بعد الرضا ، وإذا فرغ قلب العبد تجاه ربه من هذا الخوف ، دل ذلك على انشغاله عن الله بالدنيا وأسبابها .

وقد سئل ابن المبارك عن رجلين : أحدهما قتل في سبيل الله ، والآخر أشدّ خوفاً من الله . فقال : أحبهما إليّ أخوفهما[2] .

وقد بلغ به الخوف رحمه الله أنه كان إذا قرأ كتاب الرقائق (أي أحاديث رسول الله في الرقائق) يصير كأنه ثور منحور من البكاء ، لا يجترئ أحد أن يسأله عن شيء إلاّ دفعه !.. روى ذلك عنه الذهبي من رواية نُعَيْم بن حداد .

قالوا وكان إذا خرج إلى مكة حاجاً أو معتمراً قال :

(١) مختصر تاريخ ابن عساكر ١٦/١٤ .

(٢) المرجع السابق ١٩/١٤ .

بغض الحيـاة وخـوف الله أخرجني وبيـع نفسي بمـا ليست لـه ثمنـاً
إني وزنت الـذي يبقى ليعـدلـه مـا ليس يبقى فلا والله مـا اتّـزنـا [١]

ورآه بعض أصحابه وقد أقبل إلى زمزم فاستقى دلواً واستقبل البيت ثم قال : اللهم إن عبد الله بن المؤمل حدثني عن ابن الزبير عن جابر أن رسولك (ﷺ) قال : « مـاء زمزم لما شرب له » اللهم إني أشربـه لعطش يوم القيـامـة . فشرب منـه مـا شـاء الله أن يشرب [٢] .

فتأمل رحمك الله في عظيم اهتمام هذا الرجل بـأوامر الله ، وكثرة انصرافـه إلى أنواع العبادات كلها من صوم وصلاة ونسك حج وجهاد كما سترى ، وخدمة ورعاية لعبـاد الله وعكوف على علوم الـدين . ثم انظر كيف يستبـدّ بـه ، مـع ذلـك الخـوف من ظمأ يـوم القيامة ، فيجأر إلى الله في موقفـه هـذا بين الكعبـة وبئر زمزم ، أن ينجيـه من عـذاب ذلك الظمأ !.. على حين أن أحدنا مـا يكاد يوفق لأداء الصلوات المكتوبـة في أوقـاتهـا ، ولتـلاوة شيء من القرآن في صـدر النهـار ، حتى يستيقن أنـه قـد حظي عنـد الله بالدرجات العلى ، ووُقي أخطار يوم القيامة كلها ، وعدّ نفسه في الناجين والمكرمين عند الله عز وجل !.. بل ربما تصور أن هذا الذي هو عليه من الأمن والطمأنيـة ، هو الحق ، وأن ما كان عليه ابن المبارك وأمثاله ، مبالغة لا موجب لهـا ، وتكلف في الـدين لا سنـد يؤيده !..

وعلى الرغم من أنني واحد من هؤلاء الذين جفت ينابيع الخوف من الله في قلوبهم ، وتغلّبت على مشاعرهم الآمال برحمة الله على الخوف من مقتـه وعـذابـه ، فـإني أشهـد أن عظيم خوف أولئك الرجال من الله ، لدليل على شـدة قربهم منه ، وعلى أنهم من صفوتـه التي أثنى عليهـا في محكم كتـابـه ، في مثل قولـه : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِنَ الَّليلِ مَـا يَهْجَعُونَ ،

(١) سير أعلام النبلاء ٣٩٤/٨ .

(٢) مختصر تاريخ ابن عساكر ١٩/١٤ ، وتاريخ بغداد ١٦٦/١٠ .

وبالأسحَارِ هُم يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات : ١٧/٥١ ـ ١٨] ، وقوله : ﴿ إنـا نَخَـافُ مِن رَّبِّنَـا يَوماً عَبُوسـاً قَمْطَرِيراً ﴾ [الدهر : ١٠/٧٦] ، وقولـه : ﴿ والَّـذِينَ يُؤْتُونَ مَـا آتَوا وقُلُوبُهم وَجِلةٌ أَنَّهُم إلى رَبِّهم راجِعُونَ ﴾ [المؤمنون : ٦٠/٢٣] ، **وأن بعـدنـا عن هـذا الخوف لـدليل على استيلاء الدنيا على أفئدتنا ، وعلى أن دخان الشهوات والأهواء حجبنا عن رؤية بـالغ سطوة الله وعظيم قهره ، وصدّنا عن الشعور بوطأة ذلك اليوم الثقيل الذي نحن مقبلون عليه .**

إن سلطان هذا الخوف الشديد من الله هو الذي كان يحمل عبد الله بن المبارك على التورُّع والحيطة ، بالابتعاد عن سائر الشُّبهات ، وعلى الاستغراق الدائم في حالة من نكران الذّات .

وإن غياب هذا السلطـان عن نفوسنـا ، هو الـذي غيَّب الورع عن حيـاتنـا ، بل جعله غريباً حتى عن ساحة أحاديثنا الـدينيـة وحواراتنـا الإسلاميـة ، ليحلَّ في مكانـه التَّحـايل ابتغـاء الوصـول إلى مختلف حظـوظنـا الـدنيـويـة ، تحت غطـاء من الشَّرع ، وبمبررات من أحكامه وآدابه !..

ولقـد بلغ من ورع عبـد الله بن المبـارك أنـه استعـار قلمـاً من رجل في بلاد الروم (الشام) فعزم على أن يردَّه إلى صاحبه ، فلما قدم عائداً إلى (مرو) نظر ، فإذا هو قد نسيه معه ، فرجع إلى بلاد الشام ليرى صاحب القلم فيردّ إليه قلمه[1] !..

ولقد بلغ من نكرانه لذاته أنـه كان يرى أن الكلب خير منـه . وكان يحـذر العجب على نفسه ، ويحذِّر منه أصحابه . وكان يقول : لا أعلم في المصلّين شرّاً من العجب .. ولما سئل عن معناه ، قال : أن ترى أنّ عندك شيئاً ليس عند غيرك

وإني لأقول بحقٍّ : إذا أُتيح للواحد منـا أن يكون ورعـاً محتـاطـاً لـدينـه إلى هـذا الحدّ ، وأن يتحرَّر من العجب الذي كان يحذر منه ابن المبارك ويحذِّر الناس منه ، دون حـاجـة إلى الخوف الشـديـد من الله ، فلسوف يغنيـه عنـدئـذ حـالـه التي هو فيهـا عن الخوف . ولكن قل لي : متى يكون ذلك الشفاء بدون هذا الدواء ؟!..

(١) سير أعلام النبلاء ٣٩٥/٨ ، وتاريخ بغداد ١٦٧/١٠

تجارته الواسعة وكرمه العجيب

كانت لابن المبارك تجارة واسعة ، وكان له وكلاء فيها ، في كثير من البلاد .. وكان ينشط في القيام بأعماله التجارية كما لو كان واحداً من أبناء الدنيا وعشاقها ، دون أن يخلّ ذلك بما قد ذكرت من ورعه وكثرة عبادته ، وزهده ، وعظيم خوفه من الله عزّ وجلّ !.. وتلك هي المزية التي تفرَّد بها ابن المبارك عن الناس الذين كانوا في عصره !..

بل لم تكن تجارته الواسعة هذه إلاّ عوناً له على زهده وتقلله من الدنيا وأسبابها في حقّ نفسه . وإنه لشيء عجيب حقّاً أن يجتمع هذا وذاك ، فضلاً عن أن يكون أحدهما سبباً للآخر !..

قال له الفضيل بن عياض مرة : أنت تذكرنا بالزهد والتقلُّل والبلغة من العيش ، ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام ، كيف هذا ، وأنت تأمر الناس بخلاف ذلك ؟!.. فقال ابن المبارك : ياأبا عليّ ، أنا أفعل هذا لأصون بذلك نفسي وأُكرم عرضي وأستعين به على طاعة ربِّي . لا أرى لله حقّاً إلاّ سارعت إليه ، حتى أقوم به . فقال له الفضيل : ياابن المبارك ، ماأحسن ذا إن تمَّ ذا .

أقول : وهذا هو النَّهج الأمثل في ميزان الإسلام . وبه جاء كتاب الله وهدي رسول الله . وإلاّ لما عمرت الدنيا تحت سلطان المسلمين ، ولما تألَّقت لهم حضارة ، ولا ازدهت بهم المدنيّة ... وإنما ينبثق الزُّهد من هذا النَّهج ذاته . ألم يقل

رسول الله ﷺ : « ليست الزهادة في إضاعة المال ولا في تحريم الحلال . ولكن الزّهادة أن تكون بما في يد الله أوثق مما في يدك »[1] .

ولقد كان ابن المبارك نموذجاً لهذا الزُّهد الذي عرَّفه رسول الله . فقد كان ينفق أكثر مما يجمع ، وكان يغمر بعطائه وإكرامه إخوانه والمتفرِّغين لطلب العلم والفقراء من الصالحين . وكان يغدق عليهم مما معه ويطعمهم من أطيب المآكل وهو صائم !..

ولعمري إن هذا الزُّهد يحتاج إلى جهد تضؤل أمامه جهود المجاهدين في ساحات القتال وجهود المتنسِّكين في ظلمات الليالي والأسحار .

ودعني الآن أضعك أمام نماذج من كرم ابن المبارك وسخائه :

☆ قال المسيب بن واضح : كنت عند ابن المبارك ، إذ كلَّموه في رجل يطالَبُ بسبع مئة درهم دَيناً عليه . فكتب إلى وكيله في البلدة التي فيها ذلك الرجل أن يدفع له سبعة آلاف درهم . فلما ورد الكتاب على الوكيل استقدم الرجل إليه ، وسأله عن قصته ، فأخبره أن عليه سبع مئة درهم دَيناً لفلان من الناس . فقال له : إن في الكتاب الذي ورد إليّ غلطاً . فانتظر مكانك حتى أبعث إلى صاحبي فأستشيره فيك .. فكتب إلى ابن المبارك : أتاني كتابك ، وسألت صاحبه فذكر أنه كلَّمك في سبع مئة درهم . وها هنا في كتابك سبعة آلاف درهم . فإن كان ذلك غلطاً ، فاكتب إليّ في بيان الأمر .. فكتب إليه ابن المبارك : إذا أتاك كتابي هذا فادفع إلى صاحب الكتاب أربعة عشر ألفاً !.. فكتب إليه الوكيل : إن كان هذا شأنك ، فما أسرع ما تبيع الضيعة !.. فكتب إليه عبد الله : إن كنت وكيلي فأنفذ ما آمرك به . وإن كنت أنا وكيلك فتعال إلى موضعي ، حتى أصير إلى موضعك[2] .

☆ كان عبد الله بن المبارك كثير الاختلاف إلى طرسوس ، وكان ينزل الرّقة في

(١) رواه التِّرمذي وابن ماجه من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣٨٧/٨ ، وتاريخ بغداد ١٥٨/١٠ .

خـان (أي مـا يشبـه الفنـدق في عصرنـا هـذا) وكان فيـه شـاب يختلف إليـه ويقـوم بحوائجه ، ويسمع منه الحديث . فقدم عبـد الله الرّقـة مرة فلم يرَ ذلـك الشـاب . وكان ابن المبارك مستعجلاً فخرج مع النَّفير للجهـاد . فلمـا قفل من غزوتـه ورجع إلى الرّقـة سأل عن الشاب ، فقالوا : إنه محبوس لدَين ركبـه . فقـال عبـد الله : كم يبلغ دَينـه ؟ قالوا : عشرة آلاف درهم !.. فلم يزل يسأل ويستقصي حتى عرف صاحب المال . فدعاه ليلاً إليه ، ووزن له عشرة آلاف درهم ، وحلَّفه أن لا يخبر أحداً مـا دام عبـد الله حيّـاً . وقـال : إذا أصبحت فـأخرج الرجل من السجن . وأدلج عبـد الله بن المبـارك في تلـك الليلة . وأُخْرِجَ الفتى في الصباح من السجن ، وقيل لـه : إن عبـد الله بن المبـارك كان هاهنا وكان يذكرك ويسأل عنك ، وقد خرج بـالأمس . فخرج الفتى في أثره ، فلحقـه على مرحلتين أو ثلاث مراحل من الرّقة . فقال لـه عبـد الله : يـا فتى ، أين كنت ؟ لم أركَ في الخان !.. قال : نعم يا أبا عبد الرَّحمن كنت محبوساً بـدَين . قـال : فكيف كان سبب خـلاصـك ؟ قـال : جـاء رجـل فقضى ديني ، ولم أعلم بـذلــك حتى خرجت من الحبس . فقال له عبد الله : يا فتى ! احمد الله على ما وفق لك من قضـاء دينـك !.. ولم يخبر صاحب المال أحداً بالأمر إلا بعد موت عبد الله[1] .

☆ وكان رحمـه الله إذا اتَّجـه حـاجّـاً أقبل إليـه إخوانـه من أهـل مرو ، يسـألـونـه الصحبـة ، فيقول لهم : هـاتـوا نفقـاتكم ، فيـأخـذهـا منهم في صرر بعـد أن يكتب اسم صاحب كل صرة عليها ، ويجعلها في صندوق ويقفل عليها . ثم إنه يكتري لهم الرّواحل ويخرج بهم إلى بغـداد فيستريحـون فيهـا ، وينفـق عليهم خـلال ذلـك ويطعمهم أطيب الطعام وأطيب الحلوى . ثم يخرج من بغداد بعـد أن يجمّل كلاًّ منهم بـأحسن الثيـاب ، حتى يصلوا إلى مدينـة سيـدنـا رسول الله ﷺ ، فيسـأل كلاًّ منهم عن الطُّرَف والتُّحَف التي أوصاه عياله بشرائها لهم من المـدينـة ، فيقول لـه : كـذا .. وكـذا .. فيشتري لكل منهم مطلـوبـه . ثم يمضي بهم إلى مكــة ، فـلا يـزال ينفـق عليهم ويطعمهم من أطيب

(١) مختصر تاريخ ابن عساكر ٢٤/١٤ ، وتاريخ بغداد ١٥٩/١٠ ، وسير أعلام النبلاء ٣٨٧/٨

الطعام والحلوى ، إلى أن يعودوا أدراجهم إلى مرو . وهناك يصنع لهم وليمة يقيمهم عليها ثلاثة أيام ويكسو كلاً منهم من أحسن الثياب ، فإذا استراحوا وداخلهم السرور وزالت عنهم وعثاء السفر ، دعا بالصندوق ففتحه ودفع إلى كلٍّ منهم صرّته كما هي ، وعاد كلٌّ منهم إلى داره مثقلاً بالتُّحف والهدايا ، مكسوّاً بأحسن الثياب[١] .

☆ وخرج مرة مع ابن المبارك بعض المتصوّفة غزاةً إلى بلد يقال لها (المصيصة) فقال لهم : أنا أعرف أنكم تحتشمون وتترفَّعون عن أن ينفق عليكم أحد ؛ ثم نادى خادمه فقال : يا غلام هات الطّست ، فألقى على الطّست منديلاً ، ثم قال : ليلقِ كل رجل منكم تحت المنديل ما معه من المال . فجعل الرجل يلقي عشرة دراهم والرجل يلقي عشرين درهماً والآخر نحو ذلك . فأنفق عليهم إلى أن وصلوا إلى (المصيصة) . وهناك جمعهم قائلاً : هذه بلاد الحرب والنَّفير ، فتعالوا نقسم ما بقي ونعيد إلى كل ذي حقٍّ حقَّه . فجعل يعطي الرجل عشرين ديناراً ، فيقول : يا أبا عبد الرحمن إنما أعطيت عشرين درهماً . فيقول : وفيمَ تنكر فضل الله ؟!.. إن الله تبارك وتعالى يبارك للغازي في نفقته[١] .

وقد متَّع الله ابن المبارك ، إلى جوده العجيب هذا ، بطلاقة الوجه وأُنس المصاحبة ، ولطيف الدعابة !.. وما أعلم أن الجود بالمال تَوَّجَهُ الله بِخُلُقٍ أجلّ وأبهى من طلاقة الوجه ولطف المعاملة وحسن الدعابة .

كان يقول : إنه ليعجبني من القرّاء كل طلق مضحاك . فأما من تلقاه بالبشر ويلقاك بالعبوس كأنه يمنُّ عليك بعمله ، فلا أكثر الله في القراء مثله .

وكان من عادته أن يمزج النُّصح بالدُّعابة ، سئل مرة : ما خير ما أُعطي الإنسان ؟ قال : غريزة عقل . قيل فإن لم يكن ؟ قال : أدب حسن . قيل : فإن لم يكن ؟

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣٨٥/٨ ، وتاريخ بغداد ١٥٧/١٠ و ١٥٨

شجاعته وجهاده مقاتلاً في سبيل الله

لم يكتف ابن المبارك بإقباله إلى الله متعبّداً متبتّلاً زاهداً ، حتى أضاف إلى ذلك سعيه الدائب لنيل العلم ورواية الحديث ، ولم يكتفِ بذلك حتى أضاف إليه توظيف تجارته الواسعة للإنفاق على الإخوان والفقراء ، ثم لم يكتفِ بذلك حتى وقف حياته مجاهداً في سبيل الله . فما يسمع خبر غزو متّجه إلى بلدٍ ما حتى يلحق به ، ثم يُبلي في ذلك أحسن البلاء . وإن أحدنا ليتساءل في عَجَب : ولِمَن كان يترك تجارته الواسعة التي تتطلب تفرُّغاً ورعاية دائمة ، عندما كان يولّي وجهه شطر تلك البلاد النّائية التي يذهب إليها غازياً مجاهداً ؟!..

لا ريب في أنه كان يتركها لمشيئة الله وحكمه . وما دامت تجارته سعياً لمرضاة الله ، فلا عجب أن يتركها لما هو أرضى لله عزّ وجلّ . ولا عجب أن يجعل الله التوفيق حليفه في كل ما قد يقبل إليه أو يعرض عنه ، ما دام أنه لا يتحرَّك في ذلك كلّه ، إلا ابتغاء الوصول إلى رضا الله عزّ وجلّ .

كان يتمتّع ، في أعماله الجهاديّة ، بشجاعة نادرة ، وبخبرة عسكرية عالية في القتال وفنون المبارزة . وكان يحرص على أن يؤدي أعماله هذه خفية ، لا يعرفه بها أحد .

روى الذهبي عن عبد الله بن سنان ، قال : كنت مع ابن المبارك ومعتمر بن سليمان بطرسوس ، فصاح الناس : النفير النفير . فخرج ابن المبارك مع المقاتلين . فلما اصطفّ الجمعان خرج رومي فطلب المبارزة ، فخرج إليه رجل فشدّ العلج عليه فقتله ، حتى قتل ستة من المسلمين . وجعل يتبختر بين الصّفين يطلب المبارزة ولا يخرج إليه أحد . فالتفت إليّ ابن المبارك فقال : يا فلان ، إن قُتِلْتُ فافعل كذا وكذا .. ثم حرَّك

دابّته وبرز للعلج ، فعالج معه ساعة ، فقَتَلَ العلجَ ، وطلب المبارزة ، فبرز له علج آخر فقتله حتى قتل ستة علوج ، وطلب المبارزة ، فكاعوا (أي جبنوا) عنه . فضرب دابّته واخترق الصفوف ثم غاب فلم نعلم عنه شيئاً . ثم رأيته بعد ذلك في ذلك الموضع . فقال لي : ياعبد الله لئن حدّثت عني بهذا أحداً وأنا حيّ .. وذكر كلمة كبيرة[١] .

وروى الذهبي أيضاً عن عبدة بن سليمان المروزي قال : كنّا سريّة مع ابن المبارك في بلاد الروم ، فصادفنا العدو ، فلما التقى الصّفان ، خرج رجل من العدو فدعا إلى المبارزة ، فخرج إليه رجل فقتله ثم خرج آخر فقتله ثم آخر فقتله ، ثم دعا إلى المبارزة فخرج إليه رجل فطارده ساعة فطعنه فقتله ، فازدحم إليه الناس ، فنظرت فإذا هو فيما خُيِّل إليّ ، عبد الله بن المبارك ، وإذا هو يكتم وجهه عن الناس بكمه ، فأخذت بطرف كمه وجذبته ، فإذا هو هو . فقال : وأنت ياأبا عمرو ممن يشنّع عليّ[٢] !..

وعلى الرغم من بلائه العظيم هذا ، وحرصه على التّكتم والبُعد عن أنظار الناس ، لتصفوَ له النّية ، ولا تجمح به نفسه ، فقد كان يؤكّد لإخوانه أنه لا يقع موقع الكسب على العيال شيء ، ولا الجهاد في سبيل الله[٣] ، سأله بعض إخوانه ذات ليلة ، وكانوا على ثغر من ثغور القتال ، يتذاكرون مسائل في العلم : أترى ياأبا عبد الرحمن أن في أعمال البرّ ما هو أرضى لله تعالى مما نحن فيه ؟.. قال : نعم ، رجل يسعى على عياله ، قام من جوف الليل يتفقّد حال صبيته ، ويطمئن إلى راحتهم وأغطيتهم !..

ولا يخامرني الشّك في أن ابن المبارك إنما قال هذا ، كي لا تُزهى بالسائل نفسه ، فيعجب بما هو فيه من الرّباط على الثّغر مع العكوف على العلم ، فيرى أنه قد أُوتي بذلك مالم يُعْطَهُ أحد غيره ، وغير مَنْ معه من أصحابه في ذلك المكان !.. وإنما العجب فيما عرّفه به ابن المبارك أن ترى أن عندك شيئاً ليس عند غيرك ، وقد سبق ذكره .

(١) سير أعلام النبلاء ٤٠٨/٨

(٢) المرجع السابق ٣٩٤/٨

(٣) المرجع ذاته ٣٩٩/٨

أبيات لا تصح نسبتها إلى ابن المبارك

روى الذهبي في (سير أعلام النبلاء) ، وابن عساكر في (تاريخ دمشق) ، أبياتاً تنسب إلى عبد الله بن المبارك بدون سند . وإنما رواها كل منهما عن محمد بن إبراهيم بن أبي سكينة . قال : أملى عليَّ عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس ، وأنفذها معي لفضيل بن عياض وهي :

يا عابدَ الحرمين لو أبصرتَنا ... لعلمتَ أنكَ في العبادةِ تلعبُ
مَن كان يخضبُ خدَّه بدموعِه ... فنحورُنا بدمائنا تتخضَّبُ
أو كانَ يتعبُ خيلهُ في باطلٍ ... فخيولُنا يومَ الصبيحةِ تتعبُ !..
ريحُ العبيرِ لكم ونحن عبيرنا ... رهجُ السَّنابك والغبار الأطيبُ
ولقد آتانا من مقالِ نبيّنا ... قولٌ صحيحٌ صادقٌ لا يكذبُ
لا يستوي وغبارُ خيلِ اللهِ في ... أنفِ امرئٍ ودخانُ نارٍ تلهبُ
هذا كتابُ اللهِ ينطقُ بيننا ... ليسَ الشهيدُ بميتٍ لا يكذبُ

إن بوسع كل عاقل أوتي حظاً من معرفة الإسلام وأحكامه وآدابه ، أن يعلم بأنَّ أي مسلم صادق في إسلامه لا يقول هذا الكلام في عبادة أي مسلم آخر صادق في إسلامه !.. فضلاً عن أن يقوله واحد كابن المبارك الذي عرفت ترجمته ، في حقّ واحد مثل فضيل بن عياض وعبادته ، وقد عرفت ترجمته أيضاً .

وإليك الدليل على ما أقول مفصَّلاً :

أولاً : لم يروِ أحد هذه الأبيات عن ابن المبارك بالسَّند الذي يوضح صحة أو عدم

صحة نسبة هذه الأبيات إليه . وإنما طوى الرّاوي السَّند الذي بينه وبين قصة هذه الأبيات ، ليقف على الشخص الذي قيل إنه تلقّى هذه الأبيات من ابن المبارك ، وكلَّفه أن يمضي بها فيقرأها على الفضيل بن عياض . وهو محمد بن إبراهيم بن سكينة . زاد الذهبي فقال : روى عبد الله بن محمد قاضي نصيبين ، حدثنا محمد بن إبراهيم .. أما سلسلة الرّواة التي قبل عبد الله هذا مطوية ومجهولة . وهي من البعد بحيث تتقطع لها أعناق الإبل ، كما قالوا .

فما هو الوجه الذي على أساسه تعدُّ رواية هذه الأبيات عن ابن المبارك صحيحة ، بعد هذا الانقطاع الممتدّ في سنده ؟ ولماذا نفترض الكذب على رسول الله في مثل هذه الحال ، ولا نقطع بالكذب على ابن المبارك عند الحال ذاتها ؟ مع ما نعلم من أن الكذب على مَن دون رسول الله أيسر منالاً وأقرب وقوعاً من الكذب على رسول الله ﷺ !..

ثانياً : بقطع النظر عن السَّند المفقود ، والعالم العابد الرَّباني الذي نسبت إليه هذه الأبيات ، لا بدَّ مِنْ أن نسأل : أيجوز في ميزان الإسلام وشرعه ، أن ينعت أحدنا العبادة التي تؤدى على وجهها السليم باللعب ؟ وأن ينعت العابد الذي يؤديها بالمتلاعب ؟.. إنني ـ وأنا المفرط والمقصّر في جنب الله ـ أعلم أنني لو أقدمت على هذا لعرَّضت نفسي بذلك للكفر ، ولرأيتني بحاجة إلى أن أمضي بياض يوم بكامله أستغفر الله من هذا اللغو الذي تورّطت فيه . **فكيف عندما يكون العابد واحداً مثل الفضيل بن عياض ، والمتّهم لعبادته باللعب واحداً مثل عبد الله بن المبارك ؟!..**

ثالثاً : إن الذي نسبت إليه هذه الأبيات في حقّ الفضيل ، قفزاً فوق السَّند المفقود ، هو ذاك الذي كان من أكثر الملازمين والمعظّمين له ، وهو الذي كان يقول عنه : « إذا نظرت إلى فضيل بن عياض جدَّد فيَّ الحزن ، ومقتٌ نفسي » ، ويقول عنه : « ما بقي عندي على ظهر الأرض أفضل من فضيل بن عياض » ، وهو الذي قال

عنه : « إن فضيل بن عياض صدق الله ، فأجرى الحكمة على لسانه ، وما بقي في الحجاز من الأبدال إلا فضيل بن عياض وابنه علي .. »[1] .

فمنذا الذي يصدق أن هذا الذي يعتقد أنه لم يبق على ظهر الأرض أفضل من الفضيل ، وأنه لم يبقَ في الحجاز من الأبدال غيره وغير ابنه علي ، يبعث إليه ، متعاظماً ومتباهياً عليه وعلى عبادته ، يقول :

يا عابدَ الحرمينِ لو أبصرتَنا لعلمتَ أنكَ في العبادةِ تلعبُ

ألا ، قل لي : كيف يجتمع ذلك التوقير والتعظيم الجمّ ، مع هذا الانتقاص الساخر ؟!..

رابعاً : البيت الثاني من هذه الأبيات التي تنسب إلى ابن المبارك هو :

مَن كان يخضبُ جيدهُ بدموعِه فنحورُنا بدِمائنا تتخضَّبُ

ومن المعلوم أن ابن المبارك رحمه الله سلم نحره في سائر الغزوات التي اشترك فيها من هذا الذي يدّعيه القائل ، على طريقة المبالغات الشعرية . فلم يعلم أنه نُحِر بيد الأعداء وأن نحره تخضب بدمائه . وإن أي مسلم يحفظ لسانه من الوقوع في المين والكذب ، يحجزه الخوف الإلهي من الكذب الذي يندفع إليه الشعراء في سبيل المبالغات الكلامية ، فكيف يُعقل أن ينجرف ابن المبارك الذي وقفت الآن على ترجمته ، في هذا الكذب ، استجابة للمبالغات الشعرية ، والتّهويلات الكلامية ؟!.. كيف يقول : نحورنا بدمائنا تتخضَّب ، مع أن نحرَه سليم لم يخضب بشيء من دمه ؟!..

خامساً : لقد علمت أن ابن المبارك كان يَحْذَرُ العُجْبَ على نفسه ويحذِّر الناس منه ، وهو الذي عرَّف العجب بأن يرى الرجل أنه يتمتَّع بمزية لا يتمتَّع بها غيره . ألا ترى ما هو واضح للعيان من أن علاقة هذه الأبيات بموقف ابن المبارك من العُجْب

(١) انظر ص ٧ و ٩ ١٨ من هذا الكتاب .

وخوفه منه ، هي علاقة النقيض بالنقيض ؟ أهما شخصان مزدوجان بل متناقضان في كيان ابن المبارك ، أحدهما يفرُّ من العجب ويحذره على نفسه بكل الوسائل ، والآخر يمارسه وينتشي به ، ويزهى بما يراه مزية اختصّه الله بها من دون العلماء الرَّبانيِّين من أمثال الفضيل ، ويرسل إليه بذلك مشاعر نشوته في قصائد من الشعر ؟!..

أمستعدّ أنت يا قارئي الكريم أن تهضم بعقلك وجود هاتين الشخصيتين المتناقضتين في كيان عبد الله بن المبارك رحمه الله ؟.. ما أعتقد أنك تملك هذا الاستعداد الخارق .

سادساً : علمت مما سبق أن ابن المبارك سئل عن رجلَيْن ، أحدهما قُتل في سبيل الله ، والآخر أشدّ خوفاً من الله ، فقال : أحبّهما إليّ أخوفهما .

وقد علمت مما مرَّ بك من سيرة الفضيل بن عياض أنه كان من أشدّ الناس خوفاً من الله ، شهد له بذلك ابن المبارك ، وهو الذي كان يقول يوم عرفة باكياً : واسوأتاه منك يا مولاي ، وإن عفوت عني .

فمنذا الذي يعرف سيرة ابن المبارك ثم يرضى أن يتَّهمه بالمين والتناقض في كلامه ، إذ ينسب إليه أفضلية الفضيل لشدة خوفه من الله ، ثم ينسب إليه نقيض ذلك من السخرية بعبادته ، واتِّهامه باللعب فيها ؟!..

سابعاً : لقد مرَّ بك أن ابن المبارك كان يؤكد لإخوانه أنه لا يقع موقع السعي على العيال شيء ، ولا الجهاد في سبيل الله . وأن بعض إخوانه سأله (وكانوا على ثغر من ثغور القتال يتذاكرون مسائل في العلم) : أترى يا أبا عبد الرحمن أنَّ في أعمال البرِّ ما هو أرضى لله تعالى مما نحن فيه ؟ قال : نعم ؛ رجل يسعى على عياله ، قام من جوف الليل يتفقَّد حال صبيته ويطمئن إلى راحتهم وأغطيتهم .

أفيمكن أن تستعمل معشار عقلك ثم تصدِّق أن قائل هذا الكلام لإخوانه هو ذاته الذي يتباهى على الفضيل قائلاً :

يا عابد الحرمين لو أبصرتَنا   لعلمتَ أنك بالعبادة تلعبُ ؟

ثامناً : لقد علمت من النماذج التي ذكرتها لشجاعته وبلائه في ساحات المبارزة والقتال أنه كان شديد الحرص على أن يظلَّ مخبوءاً بلثام الخمول فلا يعرف شخصه أحد . وقد استحلف رجلاً عرفه أن لا يحدث الناس بما قد رآه وعرفه ما دام حيّاً .. ودونك فارجع إلى ما سبق ذكره من ذلك مفصّلاً في حينه[1] . أفيعقل أن ينقلب هذا الذي يخفي وجهه عن الأنظار ويتكتم إلى ذلك الحدّ ، فيجلجل بعمله ووصفه في قصائد الشعر ، ويستصغر عبادات المتعبّدين ، أما بطولاته ومغامراته ؟!..

تاسعاً : بوسعك إن كنت ذا ملكة عربية وذوق أدبي ، أن تقف على الفرق الكبير بين هذه الأبيات التي تدانى كثير منها إلى أقصى درجات الرّكة ، وأبياته وقصائده الأخرى التي تتّسم بالجزالة والرّصانة وروعة السّبك .

تأمّل في هذه الأبيات الثلاثة التي تقف عند حدود النّظم الرّكيك ، ولا ترقى إلى أي مستوى من الشعر البليغ المتماسك :

ولقد أتانا من مقال نبيّنا   قول صحيح صادق لا يُكذَبُ
لا يستوي وغبار خيل اللهِ في   أنفِ امرئ ودخان نار تَلْهبُ
هذا كتابُ اللهِ ينطق بيننا   ليسَ الشهيدُ بميت لا يُكذبُ

تأمّل في الأوصاف الثلاثة التي تراها في الشطر الثاني من البيت الأول ، وانظر إلى التّكلف الذي ساقها وجمعها من غير موجب إلا موجب الوزن . وتأمّل في الواو التي أُقحمت في الشطر الأول من البيت الثاني دون أي موجب ! بل الموجب حذفها ، كي يتصل الفعل (يستوي) بفاعله (غبار) ، وتأمّل فيما وصفت به النّار في آخر الشطر الثاني من البيت ذاته ، وهو : (تلهب) !.. هل لهذا الوصف الذي وصفت به النار من موقع أو فائدة إلا فائدة سدّ الفراغ الشعري ؟ ثم قف معي على الرّكة التي لن تغيب

(١) انظر ص ٦٦

عنك مهما كانت بضاعتك الأدبية ضعيفة مزجاة ، في البيت الثالث ولا سيما الشطر الثاني منه (ليس الشهيد بميت لا يكذب) لقد عادت كلمة (لا يكذب) مرة أخرى ، وليس بينها وبين المرة الأولى إلا بيت واحد . وليتك تقول لي : ما المعنى الذي أثبته وجود هذه الكلمة ، وما المعنى الذي يبطله فقدها ؟.. اللّهم ليس لوجودها من فائدة إلا تمام الشطر وإصلاح القافية .

والآن ، دعك من هذه الرِّكّة التي يتنزَّه عنها الشعر .. وتعال فتأمَّل في الرَّصانة والجزالة والحكمة التي يتَّسم بها الشعر الحقيقي لابن المبارك :

إذا صاحبتَ في الأسفارِ قوماً فكُن لهم كَذي الرَّحمِ الشَّفيقِ
بعيبِ الذاتِ ذا بَصَرٍ وعلمٍ غنيّ النَّفسِ عن عيبِ الرَّفيقِ
ولا تأخُذْ بعثرةِ كلِّ شخصٍ ولكن قُل هلمّ إلى الطّريقِ
فإن تأخُذْ بعَثْرَتِهم يَقلُّوا وتبقى في الزمانِ بِلا صَديقِ

هذا هو الشعر ، لا ذاك !.. وأشهد أن الذي أُوتي هذه الرَّصانة والحكمة ، لا يهبط لسانه إلى ذلك الدّون من الرّكاكة قط . وكل الشعر الذي كان ينشده ابن المبارك يرقى إلى مثل هذا السَّبك في الرّصانة وجزالة القول ، حاشا ذلك النّظم الرَّكيك الذي ألصق به ، وهو منه بريء .

هذه أدلة تسعة ، كل واحد منها يكفي بياناً قاطعاً يكشف عن سموّ ابن المبارك (بما عرف به من المزايا التي لم تجتمع في عصره لغيره) ، عن الوقوع في وهدة هذا الكلام الذي لا يتفق مع أوليات الإسلام ، فضلاً عن أن يتفق مع عظيم إخلاصه وعجيب نكرانه لذاته .. فكيف ..؟! وإن هذه الأدلة التِّسعة متضافرات مجتمعات !!..

هو .. والخليفة

روى الذهبي بسنده عن أشعث بن إبراهيم المصِّيصي ؛ قال : قدم الرشيد الرّقة ، وصادف مقْدَم ابن المبارك إليها ، فانجفل الناس خلف ابن المبارك ، وتقطَّعت النِّعال ، وارتفع الغبار . فأشرفت أم ولدٍ لأمير المؤمنين ، تنظر إلى الناس من خَصاص القصر ، سائلةً : ما هذا ؟ قالوا : عالم من أهل خراسان قدم .. قالت : هذا والله **المُلْك ، لا مُلْكُ هارون الذي لا يجمع الناس إلا بشُرط وأعوان**[1] .

اتَّفق كلٌّ مَن ترجم لابن المبارك أنه كان يتجنب أموال السلاطين وأعوانهم ، وكان شديد التَّورُّع منها ، دائم التَّرفُّع فوقها . وكان يوصي بتجنُّب الأخذ منها . روى الذهبي عن عبدة بن عبد الرحيم قال : كنت عند فضيل بن عياض وعنده ابن المبارك . فقال قائل للفضيل : إنَّ أهلك وعيالك قد احتاجوا ، مجهودين محتاجين ، إلى هذا المال ، فاتَّقِ الله ، وخُذْ من هؤلاء القوم (يعني الأمراء وأعوان الخليفة) فزجره ابن المبارك وأيَّد موقف الفضيل ، وقال :

خُذ من الجاروش والآ رزّ والخبز الشعير
واتْأَ ما اسطعتَ هداك اللهُ من دارِ الأمير
وارضَ يا ويحكَ من دنياكَ بالقوتِ اليسير
إنها دارُ بلاء وزوال وغرور
كم ببطنِ الأرض من ثاوٍ شريف ووزير
وصغير الشّأن عبدٍ خامل الذّكر حقير

(١) سير أعلام النبلاء ٨/٣٨٤

خمدوا ، فالقوم صرعى تحت أثقال الصخور
واستووا عند مليك بمساويهم خبير
أوما تحذر من يوم عبوس قمطرير
اقمطرَّ الشَّرُّ فيه بعذاب الزَّمهرير ؟

غير أن ابن المبارك ، كان مع بُعده الشديد عن مال الأمراء ، وتحذيره من الولوغ فيه ، يُجلُّ هارون الرشيد ويدعو له بالخير ، ويسلك في ذلك مسلك الفضيل بن عياض . وهو القائل في قصيدة من عيون شعره مطلعها :

إني امرؤ ليس في ديني لغامزه لين ولست على الإسلام طعّاناً

هو القائل فيها :

الله يدفع بالسلطان معضلة عن ديننا ، رحمة منه ورضوانا
لولا الأئمة لم تأمن لنا سبل وكان أضعفنا نهباً لأقوانا

قالوا : فلما مات ابن المبارك ، جزع الرشيد لوفاته جزعاً شديداً . وقال : مات سيد العلماء !.. وقال : يافضل : أعلِم الناس ، يعزّونا بوفاة ابن المبارك . أليس هو القائل : الله يدفع بالسلطان معضلة ؟.. الأبيات[1] .

أقول : وكان هذا شأن العلماء الرّبانيّين تجاه الخلفاء والأمراء في عصر السَّلف الصالح .. يتّقون رشاش منافعهم المالية ، ويترفَّعون عن التَّسكُّع على أبوابهم . ولا يدَّخرون في الوقت ذاته جهداً في نصحهم والدعاء لهم وطاعتهم في المعروف .. فلم يكونوا يتحبَّبون إلى الناس بمقتهم ، كما لم يكونوا يتبغضون إلى الله بمداهنتهم والطمع بما في أيديهم .

(١) سير أعلام النبلاء ٤١٤/٨

أيامه الأخيرة .. ووفاته

ازداد ابن المبارك في أيامه الأخيرة ، توجُّهاً إلى الرقائق ، وتأثُّراً بما هو مقبل عليه من أحداث ما بعد الموت ، وكان يسأل الله أن يميته ميتة الفقراء ، وأن تكون رحلته إليه في زمرة المساكين . وقد تلونت أشعاره الأخيرة بهذه الرِّقة وتحوَّلت إلى ترجمان دقيق لأحداث يوم القيامة . فمن ذلك قوله ـ وتأمَّل روعة شعره وجزالة لفظه ـ :

فكيف قرّت لأهلِ العلم أعينهُم ... أوِ استلذّوا لذيذَ النومِ أو هَجعوا
والنّارُ ضاحيةٌ لا بدّ مَوْرِدُها ... وليس يدرونَ مَن ينجو ومَن يقعُ
وطارتِ الصُّحف في الأيدي منشّرةً ... فيها السّرائر ، والجبّار مطّلعُ
إمّا نعيم وعيش لا انقضاء له ... أو الجحيم ، فلا تُبْقي ولا تَدَعُ
تهوِي بساكِنها طوراً وترفعه ... إذا رَجَوْا مَخْرَجاً من غمِّها قُمِعُوا
فلينفعِ العِلْمُ قبلَ الموت عالِمَه ... قد سالَ قومٌ بها الرُّجعى فما رجعوا

روى ابن عساكر في (تاريخ دمشق) أنه لما حضرت ابنَ المبارك الوفاة ، قال لنصر ، مولاه : اجعل رأسي على التراب ، فبكى نصر .. فقال له : ما يبكيك ؟ قال : أذكر ما كنت فيه من النعيم ، وأنت ذا تموت فقيراً غريباً !.. فقال له : اسكت ، فإني سألت الله تبارك وتعالى أن يجنِّبني جباه الأغنياء ، وأن يميتني ميتة الفقراء .

ثم قال له : لقِّنّي ، أي الشَّهادة ، ولا تُعِدْ عليَّ إلا أن أتكلَّم بكلام ثان .

قال ابن عساكر : فلما وقع ابن المبارك في الاحتضار ، جعل رجل يلقِّنه : قل لا إله إلا الله ، فأكثر عليه . فقال له : إنك لست تحسن ، وأخاف أن تؤذي بها رجلاً

مسلماً بعدي . إذا لقَّنتني ، فقلتُ : لا إله إلا الله ، ثم لم أحدث كلاماً بعدها فدعني . فإذا أحدثت كلاماً بعدها فلقِّنِّي حتى تكون آخِرَ كلامي .

ولما كان في سياق الموت فتح عينيه وضحك قائلاً : ﴿ لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ العامِلونَ ﴾ [الصّافّات : ٦١/٣٧][1] .

قال ابن عساكر : والمحفوظ أن عبد الله بن المبارك خرج إلى العراق سنة إحدى وأربعين ومئة ، ومات في رمضان سنة إحدى وثمانين ومئة . مات سَحَراً ودفن بهيت وهو ابن ثلاث وستين سنة ، وكان منصرفاً من الغزو[1] .

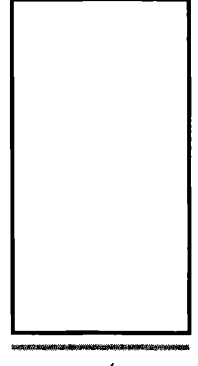
☆ ☆ ☆

اللّهم إن كنت تعلم أني أحبُّ عبد الله بن المبارك الذي وفَّقتني لكتابة هذا الموجز من سيرة حياته ، فأسألك اللّهم أن تغفر لي ولأهلي ولذرِّيتي ببركة حبّي له ، وأن تسبغ عليَّ وعليهم جميل سترك وإكرامك ، أيامنا الباقية في هذه الحياة ، وأن تجمعنا به وبالمقرَّبين من عبادك تحت لواء نبيِّك محمد ﷺ . في لقاء لا كدر معه ولا شقاء بعده .

اللّهم استجب .

---

(١) انظر مختصر تاريخ دمشق ٣٠/١٤



حجة الإسلام

أبو حامد الغزالي

٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ

١٠٥٨ ـ ١١١١ م

تمهيد

للإمـام الغزالي مكانـة جليلـة في عقلي وقلبي ، منـذ أول عهـدي بـالسير في طريق المعرفة !..

وليس هــذا إطراءً لــه ، ولا برهــان عظمــة في شخصــه أو سمـوّ بين الأقران في مكانته .. فالرجل كان ولا يزال ملء قلب العالم وعقله ، بكل ما فيه من نِحَل ومذاهب وفئات . فماذا عسى أن يغيِّر أو يزيـد في الأمر ، مكانتـه التي يتبوّأها من فؤاد واحـد مثلي وعقله ؟!..

ولكني أريـد أن أبني على مـا قلت أنني منـذ معرفتي لـلإمـام الغـزالي وإقبـالي على قراءة كتبه ، كنت أتساءل في نفسي عن سرّ هذه المكانـة التي نـالها من دون الآخرين ، وعن مصدر هذا الإجلال الذي يحيط به ، بل عن سرّ إعجاب الفكر العالمي به .

ولقـد استقرَّ في ذهني ، بعـد تـأمُّل وفكر ، أن مصـدر ذلـك كلـه يتمثَّل في مزيَّتين اثنتين امتاز بها الغزالي عن أقرانـه ، وعن الـذين جـاؤوا من بعـده ، وكثير من الـذين خلوا من قبله .

أولى هاتين المزيتين أنه لم يكن على غرار مَن عاصره أو جاء من بعده من العلمـاء ، في التوجُّه إلى اختصاص علمي واحـد ، مع المشـاركـة في سـائر العلوم الأخرى أو بعض منها ، مشاركة إجمالية عامة . بل إنك لتنظر فتجد اسمه يلتمع في كل قـائمـة ، تضم أسماء ذوي الاختصاص ، في أي من العلوم الإسلامية النقلية والعقلية المتـداولـة !.. فهو الاسم الوحيد الذي يتكرر في تلك القوائم كلها .

تنظر في قائمة علماء الفقه ، فتجد اسمه مستقرّاً في قلبها ، وتلتفت إلى قائمة علماء أصول الفقه (قواعد تفسير النصوص) ، وإذا اسمه يلتمع في أعلاها ، وتنتقل إلى قائمة علماء الكلام فتجده مستقرّاً في مقدّمتها ، وتتأمَّل قائمة علماء الفلسفة الإسلامية ، فإذا اسمه أول الأسماء فيها . ثم تنظر في قائمة علماء التربية والتَّصوف ، فإذا هو يتبوأ مركز الأستاذية والصدارة فيها ، وتتحول إلى قائمة علماء النفس فإذا اسمه قد سبق إليها أيضاً !..

بقي علم واحد ، لم يظهر للغزالي اسم بين أسماء العلماء المتخصصين فيه ، بل لعله كان دون مستوى المشاركة فيه أيضاً .. وهو علم الحديث والرّواية ، وقد كان يقول ذلك عن نفسه . وقد ذكر المترجمون له أنه أخذ يشتغل بالحديث في آخر حياته ، ولكن الموت عاجله ، قبل أن ينجز من ذلك سوى شيء يسير[١] .

أما المزية الثانية ، فهي الفكر المنهجي الدقيق الملازم له في كل ما يكتب ويبحث فيه ، أيّاً كان الموضوع أو العلم الذي يعالجه ، إلى جانب ما أُوتي من القدرة النادرة على إفراغ المعنى في صياغة دقيقة وعبارة رشيقة ، وتطويع الأداة اللغوية لتصوير ما يريد أن ينهيه إلى ذهن القارئ من المعاني والأفكار .

ولست أدري ما أقول في مصدر هذه المزية الثانية العجيبة لديه ، أهي فطرة فطره الله عليها ، ومن ثم فهو منذ نشأته العلمية كان يتناول المباحث والمسائل العلمية المختلفة بتلك الطريقة المنهجية المبرمجة ؛ أم هي أثر خلَّفته في فكره دراساته المنطقية والفلسفية المستوعبة ، فتمرَّس بها ، واعتاد عليها ، ولازمها في كل ما يكتب أو يؤلِّف فيه !..

ومهما يكن ، فإنك لا تكاد تقرأ للغزالي بحثاً في أي من العلوم العقلية أو النقلية إلا وتجده يسير بك في تحليل هذا البحث ودراسته من خلال منهج دقيق متبصّر !.. فهو

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٢١٠/٦ ، وشذرات الذهب لابن العماد ١٢/٤

يبدأ بتفتيت كل مسألة إلى أجزائها ، أو كلي الموضوع إلى جزئياته . ثم يضع تلك الأجزاء أو الجزئيات تحت مجهر السَّبر والتقسيم ، ويخضعها جميعاً لاستقراء الاحتمالات العقلية كاملة ، ثم يبدأ فينقد تلك الاحتمالات واحداً إثر آخر ، ويكشف عما قد يكون في تضاعيف كل منها من الزغل والبطلان ، إلى أن ينتهي به منهج السَّبر العقلي وطريقة الطرح والإسقاط ، إلى مكمن الحق ومنبعه بين تلك الفرضيات والاحتمالات كلها . فيمعن عندئذ في تجليته وصقله باستخراج البراهين العلمية المتفقة مع نوع ذلك العلم وطبيعته ، ثم لا يتركه إلا وقد حصَّنه في سور من القناعة العلمية داخل كسوة من البيان الرائع والأسلوب المبسَّط الأخّاذ .

فهاتان المزيتان اللتان اختصَّ بها الإمام الغزالي ، قد أكسبتاه سلطاناً كبيراً على عقول قرائه ودارسي كتبه وأفكاره . بل أكسبتا أفكاره وكتاباته روحاً تدعو إلى الاستئناس بها والركون إليها ، لا تجدها في أكثر ما تقرؤه للآخرين !..

وهكذا ، فإن اتّساع باعه في ميادين العلوم المختلفة ، إلى درجة العمق والإتقان لكلٍّ منها ، يسَّر له دعم آرائه واجتهاداته ، أيّاً كانت ، بالحجة العلمية المقنعة ، كما أن فكره المنهجي ذاك أقدره على إنزال حججه وأفكاره ، مهما كانت في ذاتها عويصة ومعقدة ، إلى مستوى من البساطة واليسر ، بحيث يفهمها ، بل يتذوقها كل من أُوتي نصيباً من الثقافة والفهم .

موجز لسيرة حياته

هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي . ولد بطوس سنة خمسين وأربع مئة . وكان والده محمد فقيراً يكتسب من غزل الصوف . يغزل ويبيعه في دكان له بمدينة طوس . ولم يكن يأكل أو يطعم أهله إلا من كسب يده ؛ وكان شديد الحبِّ للفقه ومجالس الفقهاء وعلماء الدين ، فكان يغشى مجالسهم ويتوفر على خدمتهم ، ويجدُّ في تقديم ما يستطيع من أسباب الإحسان إليهم ، وكان يبكي متأثِّراً لأقوالهم ونصائحهم ، ثم يتضرَّع ويسأل الله عزّ وجلّ أن يرزقه ابناً يجعله فقيهاً عالماً يذبُّ عن الدِّين وحياضه .

وقد رزقه الله ولدين سمّى الواحد منهما محمداً والآخر أحمد ، فكان يرى فيهما مصداق أمله ودعائه ، ويرجو أن يجعل الله منهما فقيهين عالمين كما كان يدعو ويؤمِّل .

غير أن الموت عاجله وهما صغيران ، فعهد بهما ـ قبيل وفاته ـ إلى صديق له صالح متصوِّف ، من أهل الخير . وقال له : إنني عظيم الأسف أن لم يكتب لي حظ من العلم بالدين . غير أني أرجو أن أستدرك ما فاتني من ذلك في ولديّ هذين .. فعلمهما جهد استطاعتك ، ويسِّر لهما سبيل ذلك ، ولا عليك أن تنفق في ذلك جميع ما أخلِّفه لهما .

ولَمّا مات ، أقبل الرجل الصالح على تعليمهما بكل السُّبل الممكنة ، وسرعان ما فني النزر اليسير من المال الذي خلّفه لهما ، وكان الرجل فقيراً لا يملك أكثر من الكفاف .. فقال لهما : اعلما أني قد أنفقت عليكما ما كان لكما من مال . وأنا رجل من الفقر والتَّجرد كما ترون ، ليس لي فضول مالٍ أواسيكما وأُصلح شأنكما به .. ولكن أرى أن تلجأ إلى مدرسة لطلبة العلم تكفل لكما قوتكما الضروري .. ففعلا ذلك[1] .

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي ١٩٣/٦ و ١٩٤

أما أبو حامد فاتَّجه بكلّيته إلى علوم الشريعة يدرسها و يهضمها بصبر وذكاء حادّ ، وسرعان ما برّ أقرانه وأصبح محطّ الإعجاب منهم جميعاً .

وأما أخوه أحمد فاتَّجه إلى سبل التزكية ومال إلى التَّعبُّد والتَّجرُّد ، حتى اشتهر بالصلاح وتمرَّس بالوعظ وعرف بفصاحة النطق وحسن البيان[١] .

اتَّجه أبو حامد الغزالي محمد في بادئ أمره إلى جرجان (بلدة صغيرة قريبة من طوس) فدرس على الإمام أبي نصر الإسماعيلي ، وتلقى عنه كثيراً من المعارف والعلوم المختلفة كان يكتبها عنه في تعليقة له (ما يشبه دفتر مذكرات) .

فلما كان في طريقه إلى طوس ذات مرة ، خرج عليه جمع من قطّاع الطرق ، فجرّدوه من كل ما كان معه ، ثم تركوه يمضي في سبيله ، يقول : فتبعتهم لأستردَّ تعليقتي منهم ، فالتفت إليَّ رئيسهم قائلاً : ارجع ويحك وإلاّ هلكت !.. فقلت له : أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن تردَّ عليَّ تعليقتي فقط ، فما هي بشيء تنتفعون منه .

فقال لي : وما هي تعليقتك ؟

قلت : كتب في تلك المخلاة ، هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها .

فضحك قائلاً : كيف تدَّعي أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجرَّدت من معرفتها وبقيت بلا علم ؟!.. ثم أمر بعض أصحابه فسلَّم إليَّ المخلاة .

قال الغزالي : فقلت هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدني في أمري . فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علَّقتُه ، وصرت بحيث لوقطع عليَّ الطريق لم أتجرَّد من علمي[٢] .

---

(١) شذرات الذهب لابن العماد ٦٠/٤

(٢) طبقات الشافعية ١٩٥/٦

ثم إنه قدم نيسابور فلازم إمام الحرمين عبد الملك الجويني ، وجدّ واجتهد ، حتى برع في الفقه وعِلْم الخلاف والجدل وأصول الدين وأصول الفقه ، وأحكم دراسة المنطق والفلسفة ، وقرأ الحكمة ووقف على مذاهبها .

واشتهرت نسبته ، في هذه الحقبة ، تلميذاً ، إلى إمام الحرمين ، وقد قيل إن إمام الحرمين كان يعتزّ به ويصفه بأنه بحر مغدق . غير أن في الناس من قال : إنه كان يظهر التَّبجح به في الظاهر ، ويضيق ذرعاً بمزاياه في الباطن .

كانت هذه المرحلة تمثِّل لبَّ ازدهاره العلمي ، فعكف على التصنيف في مختلف العلوم العقلية والنقلية ؛ ومن أهم مالفت أنظار الدنيا إلى تصانيفه ودعا إلى إقبال الناس عليها ما وصفه به الإمام السبكي ، من شدة الذكاء وسلامة النظر وفرط الإدراك وقوة الحافظة ، وبُعد الغور ، والغوص على المعاني الدقيقة ، وبراعة المناظرة ، وإحكام الحجة[1] .

فلما توفي إمام الحرمين ، خرج الإمام الغزالي من نيسابور متَّجهاً إلى المعسكر (مكان قريب من نيسابور) فقصد الوزير نظام الملك ، وأخذ يغشى مجلسه ، وكان مجمعَ أهل العلم وملاذَهم ، فناظر كثيراً من الأئمة العلماء وتغلَّب على الخصوم ، وأقرَّ له الجميع بقوة المعارضة ونصاعة الحجة وعمق المعرفة . وولاه نظام الملك التدريس في النِّظامية التي كانت الجامعة الأولى في العالم العربي والإسلامي آنذاك ، في بغداد .

أقام الإمام الغزالي على التدريس في المدرسة النظامية مدة من الزمن . فارتفع شأنه وعظمت مكانته في صدور العامة والخاصة ، وأصبح مضرب المثل في البراعة العلمية وشدّت إليه الرِّحال من كل البلاد ، وانتشرت مصنفاته في الآفاق[2] .

---

(١) المرجع السابق ١٩٦/٦

(٢) شذرات الذهب ١٢/٤ ، وطبقات الشافعية ١٩٧/٦ ، ومختصر تاريخ دمشق ٢٤

ويبدو أن الإمام الغزالي كان مندفعاً ، في هذه الفترة ، إلى أنشطته العلمية المختلفة من تصانيف ومناظرات وتدريس وتتبُّع للمذاهب الفلسفية الرائجة ، بدافع حبّ الظهور والبحث عن الشهرة والتغلب على الخصوم ، كما ذكر هو ذلك عن نفسه في سيرته الذاتية في كتابه (المنقذ من الضّلال)[1] ، بل كان معتزّاً بنفسه بمقدار ما كان مستخفّاً بخصومه بل بغيره !..

غير أنه كان مع ذلك نصيراً للحقّ ، مدافعاً عن الملة ، يبدّد غبش الريب والشبهات بالحجج الدامغة ، ويردّ عن عقائد الإسلام أمواج الفلسفات المختلفة . وبكلمة جامعة : قيَّض الله من لسانه وبيانه وعلومه منافحاً عن دين الله بالبراهين العلمية المقنعة .

وفجأة داخلته حالة من الشعور بالامتعاض مما هو فيه ، وتسرَّب إليه فتور كرَّه إليه الاستمرار في عمله الذي سما به إلى الأوج ، وملأ قلوب العامة والخاصة إعجاباً به وتبجيلاً له ، فتجرَّد من تلك الأبهة كلها ، ونزل عن الصدارة العلمية التي تبوأها ، وتزيّا بزيّ الفقراء ودخل في سلكهم ، وأعرض عن النظامية ومَن فيها ، وخرج قاصداً الحج إلى بيت الله الحرام . وكان ذلك عام ثمانية وثمانين وأربع مئة .

ثم زار بيت المقدس ، ثم عاد فاستقرَّ به المقام في دمشق ، واتَّخذ مقرَّه في أسفل المنارة الغربية من الجامع الأموي .. وربما صعد فاتَّخذ مكانه في أعلاها .. وكانت جملة المدة التي غاب فيها عن وطنه تسع سنوات . أمضى أكثرها في دمشق متنكِّراً في مظهر عامي فقير ، يؤلف كتابه الشهير (إحياء علوم الدين) .

وكان إذا لاحظ أن في الناس الذين من حوله من قد تنبَّه إلى بعض مزاياه العلمية ، وكاد أن يشتهر بينهم أمره ، يغيب عنهم وعن البلدة كلها أياماً ، ثم يعود إليها

---

(١) المراجع المذكورة .

بمظهر آخر من المسكنة والفقر ، وقد نُسي ذكره ، عاكفاً على العبادة والذِّكر ، يأخذ نفسه بأسباب التَّزكية وتطهيرها من الرعونات ، ماضياً في تأليفه لكتابه (الإحياء) .

وقد روى ابن العماد في كتابه (شذرات الذهب) ، عن أبي بكر بن العربي العالم المالكي الشهير ، قال : رأيت الإمام الغزالي في البرية سائحاً ، وبيده عكازة وعليه مرقعة ، وعلى عاتقه ركوة !. وقد كنت رأيته في بغداد يحضر مجلس درسه نحو أربع مئة عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم ، يأخذون عنه العلم .. قال : فدنوت منه وسلَّمت عليه ، وقلت له : يا إمام أليس تدريس العلم ببغداد خيراً من هذا ؟.. فنظر إليّ شزراً ، وقال : لما طلع بدر السعادة في فلك الإرادة ، أو قال : سماء الإرادة ، وجنحت شمس الوصول في مغارب الأصول :

تركتُ هوى ليلى وسعدى بعزل — وعدتُ إلى مصحوب أول منزل
ونادَتْني الأشواقُ مهلاً فهذه — منازلُ مَن تهوى رويدك فانزل
غزلت لهم غزلاً رقيقاً فلم أجد — لغزلي نسّاجاً فكسرت مغزلي[1]

ثم إنه عاد أدراجه إلى وطنه ومسقط رأسه في طوس ، مشتغلاً بالذِّكر والفكر ، يستعدُّ بكل ما يملك للمآل وللرحيل عن دار الفناء ، فاتحاً داره موسعاً صدره للزائرين والمستنصحين والمتعلِّمين .. وشاء الله عزّ وجلّ أن تزداد مؤلَّفاته في تلك المرحلة انتشاراً لا سيا كتابه (إحياء علوم الدين) و (الأربعين في أصول الدين) . وكانت الوزارة قد انتهت آنذاك إلى من كان يُنْعَت بالأجلّ فخر الملك جمال الشهداء . وكان قد سمع بمكانة الإمام الغزالي وعظيم شأنه ، فاتَّجه إليه من خراسان قاصداً زيارته والتَّبرُّك به والاستفادة منه . فازدادت مكانته في نفسه بعد أن رآه وسمع منه وتأثَّر بنصائحه ووعظه ، فرجاه ثم ألحَّ عليه ، ثم ألحف في الرجاء أن لا يبقي أنفاسه وكلماته عقيمة لا يستفاد منها ، واقترح عليه مشدّداً في الاقتراح أن يرحل إلى نيسابور مدرِّساً في المدرسة الميمونية النِّظامية .

(١) شذرات الذهب ١٢/٤

فلم يجد الغزالي بدّاً من الاستجابة لما رآه أمراً صادراً من الولاة ، فعاد إلى التدريس وإلى ما كان عليه من إفادة القاصدين وتعليم الراغبين ، ولكن دون الرجوع إلى شيء مما قد انخلع عنه من طلب الشهرة والجاه ، ومماراة الأقران ، ومخاصمة المعاندين والمتفيهقين .

يقول ابن عساكر نقلاً عن عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي ، وقد كان معاصراً له ،: وقد زرته مراراً لدى رجوعه إلى نظامية نيسابور ، أتلمس وأبحث فيه عن الصفات التي كنت قد رأيتها فيه من التَّباهي على الأقران والنظر إليهم بعين الازدراء والاستخفاف بهم .. اغتراراً بما رُزق من البسطة في النُّطق والعمق في الدِّراية والعلم وسرعة الخاطر ، وجمال العبارة ، فرأيت أنه قد صار إلى الضدّ من ذلك كله ، سمحاً ليّناً متواضعاً مصفّى عن تلك الكدورات كلها .

قال : وظننت في نفسي أنه ربما كان متلفعاً بجلباب التَّكلف ، يتظاهر بما ليس فيه ، تجمُّلاً وطلباً لمزيد من المدح والثَّناء . ولكني أيقنت أن الأمر على خلاف المظنون ، وأن الرجل قد أفاق من الجنون .

قال : وسألناه عن الأمر الذي دعاه إلى الخروج من بيته والرجوع إلى ما دعي إليه من أمر نيسابور والتدريس في مدرسة النِّظامية ، فقال : ما كنت أجوز في ديني أن أقف عن الدعوة ، وعن منفعة الطالبين بالإفادة ، وقد حُقَّ عليّ أن أبوح بالحق وأن أنطق به وأدعو إليه[1] .

ثم إنه ترك التدريس في نظامية نيسابور ، وعاد إلى بيته متَّخذاً في جواره مدرسة لطلبة العلم ومركزاً أو بيتاً للصوفية . ووزَّع أوقاته على قراءة القرآن وختمه ومجالسة أهل القلوب والقعود للتدريس ، والاشتغال بالحديث ومجالسة أهله ومطالعة

(١) تبيين كذب المفتري لابن عساكر ٢٩٤ و ٢٩٥

الصحيحين (البخاري ومسلم) . قال الذهبي وابن عساكر ، وغيرهما : ولو عاش لسبق الكلّ في ذلك الفن بيسير من الأيام يستفرغها في تحصيله[1] .

ولكن الأجل عاجله ، إذ توفي يوم الاثنين ، في الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة خمس وخمس مئة .

نقل سبط ابن الجوزي عن جدّه أن أحمدَ شقيق الإمام الغزالي قال : لما كان يوم الاثنين وقت الصبح ، توضّأ أخي أبو حامد وصلّى ، وقال : عليَّ بالكفن . فأخذه وقبّله ، ووضعه على عينيه . وقال : سمعاً وطاعة للدخول على الملك . ثم مدَّ رجليه واستقبل القبلة ومات قبل الإسفار ، قدّس الله روحه[2] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣٢٥/١٩ و ٣٢٦ ، وتبيين كذب المفتري ٢٩٦ ، وطبقات الشافعية لابن السبكي ٢١٠/٦

(٢) طبقات الشافعية ٢٠١/٦

شهادة أبرز من ترجموا له أو تحدّثوا عنه

قال عنه معاصره الشيخ عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي : « .. أبو حامد الغزالي حجة الإسلام والمسلمين ، إمام أئمة الدين ، من لم ترَ العيون مثله لساناً وبياناً ونطقاً وخاطراً وذكاءً وطبعاً » ثم مضى في ترجمته وسيرة حياته[1] .

وقال عنه ابن عساكر : « كان حجة الإسلام والمسلمين ، وإمام أئمة الدين ، لم ترَ العيون مثله لساناً وبياناً ونطقاً وخاطراً وذكاء » ، قال ذلك في تاريخه دون أن ينقله عن الشيخ عبد الغافر الفارسي[2] .

وترجم له الذهبي ، فقال : « الشيخ الإمام البحر ، حجة الإسلام ، أعجوبة الزمان ، زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي ، الشافعي ، الغزالي ، صاحب التصانيف والذكاء المفرط »[3] .

وترجم له تاج الدين عبد الوهاب السبكي ، فقال : « حجة الإسلام ، ومحجة الدين التي يتوصل بها إلى دار السلام ، جامع أشتات العلوم ، والمبرز في المنقول منها والمفهوم ، جرت الأئمة قبله بشأو ولم تقع منه بالغاية ، ولا وقف عند مطلب وراء مطلب لأصحاب النهاية والبداية .. »[4] .

---

(١) تبيين كذب المفتري ٢٩١ ، وطبقات الشافعية ٢٠٤/٦

(٢) مختصر تاريخ دمشق ١٩٨/٢٣

(٣) سير أعلام النبلاء ٣٢٢/١٩

(٤) طبقات الشافعية ١٩١/٦

ولما سئل الشيخ الإمام علي بن عبد الكافي السبكي عنه ، قال : « وماذا يقول الإنسان في الغزالي ، وفضله واسمه قد طبقا الأرض ، ومن خبر كلامه عرف أنه فوق اسمه »[١] .

وسئل عنه السيد الكبير أبو العباس المرسي ؛ شيخ ابن عطاء الله السكندري ، فقال : « أنا أشهد له بالصِّدِّيقيّة العظمى »[٢] .

وتحدَّث عنه ابن النجار ، فقال : « أبو حامد إمام الفقهاء على الإطلاق ، وربانيّ الأمة بالاتِّفاق ، ومجتهد زمانه ، وعين أوانه . برع في المذهب والأصول والخلاف والجدل والمنطق ، وقرأ الحكمة والفلسفة ، وفهم كلامهم وتصدّى للرَّدِّ عليهم . وكان شديد الذكاء ، قوي الإدراك ، ذا فطنة ثاقبة ، وغوص على المعاني »[٣] .

أما الطاعنون فيه ، فقلَّة . وهم متفاوتون في الطعن عليه والنيل منه .

أبرزهم الإمام أبو عبد الله المازَري المالكي المغربي ، وأبو الوليد محمد الطرطوشي المالكي ، والشيخ تقي الدين بن الصلاح ، والقاضي عياض . ولأبي بكر بن العربي كلمة واحدة اشتهرت في الطعن على الإمام الغزالي ، لم أرَ له في الانتقاد عليه غيرها . وهي قوله : « شيخنا أبو حامد الغزالي بلع الفلاسفة ، وأراد أن يتقيأهم ، فما استطاع »[٤] .

وسنصغي معاً إلى خلاصة من هذه الطعون المتفاوتة كما قلت ، ونناقشها بتوفيق الله عزّ وجلّ .

---

(١) طبقات الشافعية ٢٥٣/٦

(٢) المرجع المذكور ٢٥٧/٦

(٣) سير أعلام النبلاء ٣٣٥/١٩

(٤) المرجع ذاته ٣٢٧/١٩

لماذا أعرض الغزالي فجأة عن مجد الشهرة في بغداد ودخل في سلك الخاملين والزّهاد ؟

تجيب عن هذا السؤال الكبير كلمة صغيرة قالها الغزالي عن نفسه : « طلبنا العلم لغير الله فأبى العلم إلا أن يكون لله » .

لقد كان الغزالي ، وهو في قمة مجده العلمي ، وقوته البيانية ، وعمقه الفكري ، لساناً منافحاً عن الإسلام في عقائده ومبادئه وأحكامه ، سلك إلى ذلك كل المسالك : الفقهية والكلامية والفلسفية ، واستعان بأمضى ما أُوتيه من سلاح المناظرة والجدل .. غير أنه كان يشعر خلال ذلك في أعماق نفسه أنه إنما يستعمل ذلك كله لنسج مكانته الباسقة بين الناس ، وليسمو به فوق الأقران . ولتبلغ شهرته الآفاق .. فقام من جراء ذلك تناقض حادّ بين ما ترشد إليه المعارف والعلوم المتنوعة التي كان يعلّمها ويجادل بها ، من حقائق الدين التي تدعو إلى نبذ أسباب العلوّ في الأرض والتّسامي فوق الأقران ، وإلى الابتعاد عن الجدل والمماراة سيراً وراء حظوظ النفس ، وبين ما يعاني هو منه من حبّ الشهرة والتّسامي على الآخرين ، والشعور بازدرائهم والاستخفاف بهم .

فكان لا بدّ من أن يتّجه هذا التناقض بالتأثير الكبير في نفسه ، وهو تأثير محيّر وممزق !.. إذ إن البضاعة التي يخاطب بها الناس ويجادل بها التائهين ، تدعوه إلى طيّ حظوظ النفس والإعراض عن منافسة الآخرين والبحث عن أسباب الشهرة والمجد ، بينما نفسه تجمح به إلى ذلك كله وتهيب به أن يكون النجم بين الأقران .. عقله الإسلامي الوهاج يؤيد ويدعم ما توحي به وتدعو إليه الحقائق الإسلامية والإيمانية التي يدعو إليها ويدافع عنها ، ولكن نفسه الأمّارة منصرفة إلى أحلامها وطموحاتها التي

تبحث عنها .. ونظر الغزالي ، وهو في حومة هذا التَّمزق بين هذين الجاذبين المتناقضين ، فرأى أن قناعاته العلمية أضعف من أن تتغلب على رعوناته النفسية ، وتبين له أن المسلم لا يتحقق بإسلامه اصطباغاً وسلوكاً ، عن طريق حشو العقل بالحقائق والمعارف الدينية ، (على أنها عملية تأسيسية لا بدّ منها) وإنما يتحقق بذلك عن طريق التربية ، وإنما مجال التربية العاطفة والوجدان ، لا العقل والفكر .. تعلم هذا من تعريفهم للتربية بأنها : إخضاع العاطفة لما قد قرره العقل .

عانى الإمام الغزالي من هذا الصراع بين عقله الإيماني المدافع عن الحق ، على أعلى المستويات العلمية والمنطقية والمنهجية ، ونفسه الأمارة الهابطة إلى البحث عن مغانم الشهرة والمجد الدنيوي والتَّباهي على الآخرين .. وعلم أن لا علاج للتخلص من هذا الصراع ، بما يرضي العقل إلاّ دواء التربية يأخذ بها نفسه لتتحول من السعي وراء رعوناتها ، إلى الانقياد لسلطان العقل وحكمه .

فاتخذ قراره الحاسم بذلك ، وكان لا بدَّ للدواء أن يتمَّ استعماله على النحو الذي تمَّ .

فطم نفسه من العمل الذي لم يكن يغذي (بالنسبة إلى شخصه) إلا حظوظ نفسه . واتَّجه بها إلى ما لا يروق لها من الابتعاد عن أضواء الشهرة وسلّم المجد ، والدخول بها في منهاج قاس ومتطاول من الخمول والزهد وتحطيم الشوكة ، وإشعارها بما هي فيه من ذلٍّ وصغارٍ لله ، ومن ثم تطامنٍ وتواضعٍ لسائر عباد الله . ولما كان من أهم سبل النجاح في ذلك ، الإكثار من العبادات ، والعكوف على مراقبة الله وذكره ، فقد كان لا بدَّ من أن يحمل الغزالي نفسه على منهاج تربوي كامل يضم ذلك كله .. وهيهات أن يتم شيء من ذلك لو بقي في ظل أعماله ووظائفه التي كانت هي من أهم أسباب اهتياجاته النفسية .. بل هيهات أن يتمّ ذلك لو بقي بين معارفه وأصحابه وتلامذته في بغداد .

إذن فقد كان السبيل الذي لا بدّ منه إلى استعمال الدواء الذي قرر الغزالي أن يعالج

نفسه به ، أن يرحل أولاً حاجّاً إلى بيت الله الحرام ، ليجعل ذلك منطلق دورته التدريبية على طريق تزكية النفس . ثم أن يتجه إلى مكان لا يعرفه فيه أحد ، يأخذ نفسه فيه بجرعات هذا الدواء ، مركباً من سائر العناصر التي رأى أن لا بدَّ منها ، من تزهُّدٍ وخدمةٍ وأذكارٍ وعباداتٍ ، ضمن نفق من السّتر والبعد عن المظاهر التي تُزْهى بها النفس ، وإلى مدّة تُصفّى فيها النفس عن الشوائب وتصطبغ بذلِّ العبودية لله ، وتدرك قيمة العمل له وحده من دون سائر الأغيار .

فهذا ما أخذ الغزالي نفسه به ، وذلك هو السبب الذي دعاه ، بل ألجأه إليه .

وبوسعك أن تجد تفصيل هذا الذي أجملته من تشخيص الداء ووصف الدواء ، في أشهر ما اشتهر من كتب الغزالي (إحياء علوم الدين) ، وقد علمتَ أنه إنما ألّفه أثناء عزلته هذه التي كان يعالج فيها نفسه ، ولعلي لا أتجاوز الحقيقة إن قلت : إن هذا الكتاب ليس إلا وصفاً غير مباشر لحاله ، وسجلاً لأعمال الدورة التربوية التي أخذ بها الإمام نفسه .

ولكن هل في هذا الذي أقدم عليه الغزالي ، ليزكّي نفسه من رعوناتها ، ما يخالف الشّرع ولا يتّفق مع ضوابط الكتاب والسُّنة ؟

أعتقد أن الغزالي لو استرسل في التعامل مع مجده العلمي ومركزه الاجتماعي الباسق ، يتباهى على الآخرين مزدرياً لهم ومستخفّاً بهم ، لكان عندئذ مخالفاً لموازين الشَّرع شارداً عن ضوابط الكتاب والسُّنة . ولست بحاجة إلى عرض الأدلة المعروفة على ذلك .

فإذا ثبت أن وضعه ذاك كان مخالفاً للشرع في حقيقة الأمر وباطنه ، فلا شك في أن عليه أن يسلك السُّبل الممكنة إلى التَّخلص من ذلك الوضع . والقاعدة الأصولية القائلة : « ما لا يتمُّ الواجب إلاّ به فهو واجب » يقتضي وجوب اتّباع هذه السُّبل ، ما دامت مشروعة وغير محرَّمة في أصلها وبحدِّ ذاتها . ولدى التَّدقيق فيما كان يفعله

الإمام ويأخذ نفسه به في سنوات عزلته هذه ، لا نجد إلاّ عبادة يؤدّيها ، أو ذكراً وفكراً يعكف عليه ، أو خدمة يصلح بها شأنه ، ويداوي بها نفسه ، أو عكوفاً على تأليف كتاب (الإحياء) .

على أن الغزالي ما إن وجد نفسه تحرَّرت من الغوائل التي كانت تفسد عليه أعماله العلمية في بغداد ، حتى عاد إلى شأنه ذاك في نظامية نيسابور ، ولكنه عاد إليها بنفس مطمئنة راضية لا بالنفس الأمارة التي كان يعاني منها . واسمع ما يقول في بيان رجوعه هذا عن نفسه :

« .. وأنا أعلم أني وإن رجعت إلى نشر العلم ، فما رجعت !.. فإن الرجوع عود إلى ما كان . وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي به يكتسب الجاه ، وأدعو إليه بقولي وعملي ، وكان ذلك قصدي ونيَّتي . أما الآن فأدعو إلى الذي به يترك الجاه ، ويعرف به سقوط رتبة الجاه . هذه هي الآن نيَّتي وقصدي وأمنيتي . يعلم الله ذلك مني . وأنا أبغي أن أصلح نفسي وغيري ، ولست أدري أأصل إلى مرادي أم أُخْتَرَمُ دون غرضي ؟ ولكني أؤمن إيمان يقين ومشاهدة أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم ، وأني لم أتحرَّك لكنه حرَّكني ، وأني لم أعمل لكنه استعملني . فأسأله أن يصلحني أولاً ، ثم يصلح بي ، ويهديني ثم يهدي بي ، وأن يريني الحقَّ حقّاً ويرزقني اتّباعه ، ويريني الباطل باطلاً ويرزقني اجتنابه »[1] .

---

(١) المنقذ من الضلال بتحقيق الأستاذ محمود بيجو ٨١ و ٨٢

الغزالي والفلسفة

ولا أقول : الغزالي الفيلسوف ، إذ لو كان فيلسوفاً لدافع عن الفلسفة ، ودعا إلى دراستها والاعتماد عليها ، شأن كل الفلاسفة الإسلاميين وغيرهم .. والغزالي لم يدافع عن الفلسفة ولا اعتمد عليها ولا دعا إلى دراستها .. بل سفَّه الفلاسفة الدَّهريين والطَّبيعيين ونعتهم بالإلحاد والزَّندقة ، وكفَّر الإلهيِّين الذين جاؤوا بعدهم كسقراط وتلميذه أفلاطون وتلميذ هذا الثاني : أرسطاطاليس ، وإن كان كل من سقراط وأفلاطون أوغل في الكفريات من أرسطاطاليس الذي ردَّ عليهما وعلى أمثالهما . يقول الغزالي عنه : « .. إلا أنه استبقى من رذاذ كفرهم وبدعتهم بقايا لم يوفق للنزوع عنها ، فوجب تكفيرهم وتكفير شيعتهم من المتفلسفة الإسلاميين كابن سينا والفارابي وأمثالهما »[1] .

فكيف ينعت بالفيلسوف من ينسب القدامى منهم (الدَّهريِّين والطَّبيعيِّين) إلى الإلحاد وإلى الزَّندقة ، وينسب الإلهيِّين منهم إلى الكفر والضَّلال ؟

غير أن الغزالي كان قد ألزم نفسه بأن لا يقف من أي مذهب أو نحلة موقف المؤيِّد أو المسفِّه والمحذِّر إلا بعد أن يدرسه ويسبر غوره ويحيط بدقائقه أكثر من أصحاب ذلك المذهب نفسه .. كما يقول في سيرته الذاتية (المنقذ من الضلال) .. ولما أوغل في دراسة علم الكلام فحصَّله وعقله وطالع كتب المحقِّقين منهم ، لاحظ تسرُّب الفكر أو النَّهج الفلسفي إلى كتب القوم ، ولا سيما في مجال الرَّدِّ على الفساد وأهله . فأحسَّ بخطر هذا الفن على علم الكلام وعلى المشتغلين به . فاتَّجه بمقتضى منهجه الذي ألزم نفسه به إلى دراسة الفلسفة والإحاطة بها .

---

(١) المرجع السابق ٤٤

يقول رحمه الله : « ثم إني ابتدأت ، بعد الفراغ من علم الكلام ، بعلم الفلسفة ، وعلمت يقيناً : أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يساوي أعلمهم في أصل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ، ويجاوز درجته ، فيطلع على مالم يطلع عليه صاحب العلم ، من غوره وغائلته . وإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدّعيه من فساده حقّاً . ولم أرَ أحداً من علماء الإسلام صرف عنايته وهمّته إلى ذلك .. » إلى أن قال : « فعلمت أن ردَّ المذهب قبل فهمه والاطِّلاع على كنهه رمي في عماية »[١] .

فما هو الفساد الذي تبيَّن للغزالي لدى قراءته الفلسفة ودراسته لها ؟

لقد أجاب الغزالي عن هٰذا السؤال من خلال كتابه (تهافت الفلاسفة) . وبوسعي أن ألمّ تفاصيل حديث الغزالي وأدلّته على فساد الفلسفة في الحصيلة التالية :

إن الفلسفة تحمِّل العقل أكثر مما يتحمل ، وتزجّ به إلى ما وراء حدود قدراته ، ولا سيما بصدد الوصول إلى كنه الحقائق الإلهيّة . والغزالي إذ يؤكد هذا يجعل من العقل ذاته شاهداً على ذلك ، ويثبت بدليل منطقي باهر أن الإسراف في جرِّ العقل إلى متاهات ما وراء الطبيعة ، يوقع صاحبه لا محالة في قدرٍ كبير من اللاعقلانية ، إذ يتخلى العقل عنه ، ويتركه وحيداً في بيداء الأخيلة التي يقيمها على الوهم ، ظنّاً منه بأنه إنما يبنيها ويقيمها على العقل !..

غير أن الغزالي لم يخالف الفلاسفة ولم يحذِّر من التَّورُّط في متاهاتهم وأوهامهم هذه ، ليجرِّد العاقل من وسائل البحث والنظر ـ وهو لا يرى منها شيئاً أقوى من العقل ـ ثم يتركه نهبة لمادير الجهل مجرداً عن أي أداة يستعملها لبلوغ المعرفة .. بل وضع لنفسه ولسائر عقلاء الدنيا المنهج العلمي المضمون إلى المعرفة بكل أنواعها ، وهو أجلّ ما تميَّز به فكر الغزالي ، بل هو أجلّ ما أثمرته رحلة الغزالي المضنية في سبيل المعرفة .

---

(١) المرجع ذاته ٤١

ولا سبيل لتفصيل القول في منهج الغزالي هذا ، في هذه الورقة التي خصصتها للتعريف بحياة هذا الإمام إجمالاً لا تفصيلاً . وإنما ألخص منهجه بالكلمات الوجيزة التي ذكرها عنه الدكتور سليمان دنيا في مقدمته المطولة بين يدي تحقيقه لكتاب (تهافت الفلاسفة) قال :

« ومما سبق يمكن تقسيم منهج الغزالي في المعرفة إلى ثلاث شعب :

١ ـ المعرفة الغيبية ـ الميتافيزيك ـ ومعرفتها بطريق التفصيل لا تتمّ إلا عن طريق الوحي .

٢ ـ المعرفة المنطقية والرياضية ، وطريقها العقل .

٣ ـ المعرفة التجريبية . وطريقها الحواس . وغايتها الظّن لا اليقين »[1] .

وقد اجتاز الغزالي رحلته لبلوغ هذا المنهج مرحلة مضنية من الشَّك !..

ولم يكن هذا الشك الذي انتابه جزءاً من منهج اصطنعه على طريق المعرفة ، كما يتوهم البعض ، وإنما هي حالة سرت إلى تفكيره ومشاعره ، أورثته ريبة فيما يبعثه العقل من قناعات ، وفيما تبعثه التجارب المادية من إحساسات !.. وكان ذلك أيام إصغائه إلى شتى المذاهب والنِّحل المتعارضة والمتناقضة ، والتي تستهدي جميعاً لأفكارها المتناقضة بمصباحي العقل والتجربة .

إن مثل هذه المذاهب المتناقضة التي تحتكم جميعاً ، فيما تزعم ، إلى ميزان العقل ، في العقليات ، وإلى ميزان التجربة في الحسيات ، لا بدّ أن تُورث الناظر ريبة في الميزان الذي تحتكم إليه تلك المذاهب المتصارعة ، ولا بدّ أن تستمر هذه الريبة ريثما يتبيَّن لهذا الناظر أن هذا الميزان العقلي يحمّل من أثقال تلك المذاهب والنِّحل ما لا طاقة له بحمله .. فعندئذ تنجاب الريبة ويزول الشك بالعقل ، وبالتجارب التي تتفرع عنه ثم

(١) مقدمة الطبعة الثالثة لتهافت الفلاسفة ٤٣ تحقيق د . سليمان دنيا .

تعود إليه . إذ يتجلى عندئذ أن المشكلة إنما تكمن في الجهل بكيفية استعمال الميزان ، لا بصلاحية الميزان ذاته .

وهكذا بدأ الشّك المعرفي في حياة الغزالي ، من كثرة ما أصغى إلى القرارات المذهبية والفلسفية المتناقضة ، بدءاً بإخوان الصفا ، فالباطنيين ، فالفلاسفة الإسلاميين ، فالفلاسفة الإلهيين من قبلهم ، فالفلاسفة الطبيعيين . وهكذا انتهى الشّك وانبلجت له شمس الحقيقة عندما اكتشف أن النور الذي ينبغي أن يصاحب الميزان العقلي عند عملية الإدراك ، والذي يشبه تماماً النور المتكافئ الذي ينبغي أن يصاحب العين عند عملية الإبصار ، غير مستعمل ولا معتمد لدى سائر تلك المذاهب والنِّحل . وما لم يستعن الباحث في آفاق الكون بهذا النور الرَّباني ، فلن يتحرَّر من اضطرابات شكوكه أو من ظنونه التي ستظل تأخذه وتردّه .

وإني لأقول بحق : إن البصيرة كالبصر ؛ فكما أنك لا تستطيع أن ترى بهذا الثاني الأشياء التي هي أمامك على شكلها وحقيقتها ، إلا مستعيناً بنور خارجي متكافئ ، كالشمس ونحوها ، كذلك لا تستطيع أن تدرك ببصيرتك شيئاً من المجاهيل الكونية غير الخاضعة للحس ، إلا مستعيناً بنور خارجي متكافئ ، وهو الوحي الرَّباني أو الإلهام العلوي . وهذا النور هو المعنيّ بقوله تعالى : ﴿ قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نورٌ وكِتابٌ مُبينٌ ☆ يَهْدي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ ويُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ بإذْنِهِ ويَهْديهِم إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ ﴾ [المائدة : ١٥/٥ و ١٦] وهو المعنيّ أيضاً بقوله تعالى : ﴿ ومَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نورٍ ﴾ [النُور : ٤٠/٢٤] .

وإنه لعجيب جداً أن ترى في الناس من يدرك حاجة البصر للإبصار إلى نور الشمس ونحوها ، ولا يدرك حاجة البصيرة للإدراك إلى نور الوحي الإلهي ونحوه .

☆ ☆ ☆

عَنِيَ جُلُّ الذين كتبوا حديثاً عن الغزالي وترجموا له ، بعقد مقارنة بين شكّه الذي انتابه في رحلته المضنية إلى المعرفة ، والشّك الذي اصطنعه على غراره (ديكارت) رائد الفلسفة التجريبية في الغرب (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠ م) ، ولست الآن بصدد المقارنة بين الشّك الذي اجتازه الغزالي والذي تحدَّث عنه ديكارت وجعل منه مدرسة تقتفى ومنهجاً يتَّبع ، كما صنع الدكتور سليمان دنيا وكثير من الكاتبين ، وإنما يهمّني أن ألفت النظر إلى ما انتهى إليه الدكتور محمود حمدي زقزوق في كتابه : (المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت) ، طبقاً لما نقله عنه الأخ الأستاذ محمود بيجو ، في مقدمة تحقيقه للمنقذ من الضلال ، مدعوماً بالشواهد والوثائق ، من أن ديكارت إنما انتحل السيرة الذاتية التي كتبها الغزالي عن نفسه ، فيما يتعلق برحلته إلى المعرفة ، ومطبّات الشكوك التي مرَّ بها واجتازها ، ثم تبنّاها منهجاً صادراً عن شخصه ، وأخفى علاقة ذلك بمصدره الحقيقي ، وهو الغزالي ، عن أعين قرّائه الأوربيين وأفكارهم ، بغطاء غير حاجز ، من تحوير بعض العبارات ، وتغيير المصطلحات الإسلامية ، إلى نظائرها من المصطلحات الدينية العامة .

ثم ظهرت الوثيقة التي قضت على كل احتمال وتردُّد في هذا الموضوع ، والتي نقلها الأستاذ محمود بيجو ، عن الدكتور زقزوق ، من أن الباحث التونسي عثمان الكعاك ، رحمه الله ، عثر في مكتبة ديكارت على ترجمة لكتاب (المنقذ من الضلال) ، ورأى أن ديكارت استوقفته عبارة الغزالي الشهيرة : « الشّك أول مراتب اليقين » ، ووضع تحتها خطّاً أحمر ، ثم كتب عندها على الهامش ما نصه : (ينقل هذا إلى منهجنا)[1] .

أقول : وقد ألقى الباحث التاريخي الموسوعة الأستاذ عثمان الكعاك رحمه الله ، محاضرة في الملتقى العاشر للفكر الإسلامي ، الذي عقد في مدينة عنابة بالجزائر

---

(١) المنقذ من الضلال تحقيق الأستاذ محمود بيجو نقلاً عن (المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت) للدكتور زقزوق ، ١٩ ، الطبعة الثانية .

عام ١٩٧٥ م ، وتحدَّث فيها مفصَّلاً عن انتحال ديكارت منهج الإمام الغزالي وادّعاءه لنفسه ، وذكر الحاشية التي قرأها لديكارت بخطٍّ يده . وكنت مشتركاً في ذلك الملتقى ، وواحداً من المئات الذين سمعوا محاضرته هذه[١] .

(١) توفي الكعاك رحمه الله أثناء أعمال هذا الملتقى ، دون سابق إنذار من مرض ونحوه ، فقد وُجِد في غرفته من الفندق ميتاً ، وذلك بعيد محاضرته التي ألقاها ، أي بعد يوم أو يومين . وقد تحول الملتقى آنذاك إلى تظاهرة تأبينية ، أبرزت القيمة العلمية الكبرى لهذا الرجل ، والخسارة التي مُنِيَ بها العالم العربي والإسلامي بوفاته .

الأوهام التي أُلصقت بالغزالي فانتقصوه بسببها

مما لا ريب فيه أن الغزالي لم يكن معصوماً عن الزَّلل والخطأ ، شأنه في ذلك شأن الناس جميعاً حاشا الرُّسل والأنبياء . ولكنَّ تعرُّضه للخطأ بحكم كونه غير معصوم ما ينبغي أن يكون ثغرة تُسرَّبُ إليه من خلالها الاتِّهامات الباطلة ، أو مظهرَ ضعف يُنْسَبُ إليه بسببه ماليس فيه .

غير أن في الناس من فعلوا ذلك ، أي نسبوا إليه أوهاماً باطلة . منهم من كانوا معاصرين له ، ومنهم من جاؤوا بعده .

وفي الناس من وقفوا له على مآخذ وأفكار في بعض كتبه قد نؤيدهم في أنها غير صحيحة أو غير دقيقة أو خاضعة للنقاش والبحث ، ولكنهم بدلاً من أن يلتقطوها فينبِّهوا إليها ويحذِّروا منها ، أخذوا الجار بظلم الجار ، وحكموا على كل الكتاب الذي هي فيه بالحرق أو الإتلاف !!..

وأنا أتتبع تلك الأوهام التي ألصقت به ظلماً ، وهذه المآخذ التي اتخذت ذريعة لنسف غيرها ، لأتساءل بعد ذلك في عجب : أهو جهل ساق أصحابه إلى ماقد تورّطوا فيه ، أم هي حفيظة جرت أصحابها عمداً إلى دسيعة ظلم ؟

فمن قبيل الأوهام التي ألصقت به وهو منها بريء ، ماقاله بعضهم ، من أنه ـ أي الغزالي ـ صدَّر كتابه (المستصفى) بطائفة من مسائل المنطق اليوناني ، ثم زعم أن العالم

لا ثقة بعلمه إن لم يخضع علمه لمعايير هذا المنطق وأحكامه ، ومن ثم ألزم الناس بأن يجعلوا من تلك المعايير سلّماً إلى بلوغ علومهم ومعارفهم[١] .

وأقول : أغلب الظن أن هؤلاء لم يقرؤوا شيئاً من هذه المقدمة التي افتتح بها الغزالي كتابه (المستصفى) ، ولم يزيدوا على أن استعرضوا عناوينها ، فشمّوا منها رائحة المنطق اليوناني حسب ما خيل إليهم ، أو رأوا فيها بعض اصطلاحاته الشائعة ، **فضاقت بها صدورهم** ، وأعرضوا عنها ، بعد أن حكموا عليها حكماً غيابيّاً دون قراءة متبصّرة .

ولو أنهم تمهّلوا فقرؤوا ، لرأوا أن الغزالي صاغ في تلك المقدمة منهجاً علميّاً للمعرفة ، متحرّراً وبعيداً عن المنطق اليوناني ، وهو ذلك المنهج الإسلامي الذي تعتزُّ به حضارتنا العربية والإسلامية أيما اعتزاز[٢] ، من ذلك تنوُّع المقارنة العلمية بين متعددين وانقسامها إلى ما يسمى بالترادف والتخالف والتضاد والتناقض .. وانقسام المقارنة بين عامين متفاوتين في درجة العموم ، إلى عموم وخصوص مطلق ، وإلى عموم وخصوص من وجه .. ومن ذلك الدلالة المنبثقة عن الاقتضاء ، والدلالة المنبثقة عن اللزوم بأنواعه الوضعي والطبيعي والعرفي واللغوي .. ومن ذلك التنبيه إلى انقسام المعنى الذي في الذهن إلى كلٍّ ذي أجزاء ، وإلى كلّي ذي جزئيات ، ... إلخ ، فمن هو هذا الذي يجهل أن هذه ليست إلا جملة قواعد تنظيمية ، يفرزها العقل الإنساني للانضباط بها والسير بمقتضاها ، لدى السير في مجال البحث واكتشاف المعلومات والوصول إلى مستوى اليقين بشأنها ؟ والعقل لا يكون عقلاً إلا إن هدى صاحبه إلى هذا النظام في طريق المعرفة والاستنباط .

---

(١) لعل من أبرز الناقدين عليه في هذا والمتسرعين في هذا الحكم تقي الدين ابن الصلاح . انظر طبقات الشافعية ٦/٢٢٠

(٢) اقرأ قصة هذا المنهج في كتاب (مناهج البحث عند مفكري الإسلام) للدكتور علي سامي النّشار .

نعم ، قد تجد في مقدمة الغزالي هذه كلمات وعبارات تنتسب إلى مصطلح المنطق اليوناني ، ولكنها كلمات مفككة ومقطعة الأوصال ، ومحوَّلة إلى ما يشبه أنقاضاً ، أدخلت في قوام بنيان مستقل ، لمنطق عقلي منهجي إسلامي سديد .. فلئن كان هذا أيضاً غير مقبول ، وكانت غاية هذا المنتقد أن يتبرّأ اللسان العربي والفكر الإسلامي ، من كل ما في المنطق اليوناني من ألفاظ وعبارات ومصطلحات ، فإنه لمطلب عسير ، بل متعذر على العقل الإنساني وعلى اللسان العربي أيّاً كان صاحبه ، وهيهات للناقد ذاته أن يتحقق بهذا الذي يدعو إليه .

على أنه ما من باحث يستطيع أن يبرهن على أن بنيان المنطق الأرسطاطاليسي ، بكل جزئياته وكلّياته وتصوُّراته وقواعده وألفاظه الاصطلاحية لغوٌ وباطلٌ من القول !..

بل الثابت يقيناً ، أن الباطل الكثير والكبير الذي فيه ، لا يتماسك إلا اعتماداً على موازين وأحكام صحيحة ودقيقة قلّت أو كَثُرت .. وإنما يتمثّل الإبداع العلمي والتحرر العقلي في أن يتمتع الباحث بشخصيته المستقلة ، ثم يتحصَّن بطاقة علمية ممتازة ، ثم يقتحم ميادين الأفكار والعلوم والفلسفات كلها ، فيلتقط منها الحق ويتجنَّب الباطل ويحذر منه .

وتلك هي حقيقة المقدمة المنهجية التي أقام منها الغزالي مدخلاً إلى كتابه (المستصفى) .

☆ ☆ ☆

ومن الأوهام التي ألصقت بالغزالي وهو منها بريء ، ما قاله الإمام أبو عبد الله المازَريُّ المالكي في مجال النقد والطعن عليه ، من أنه كان يعكف على قراءة (رسائل إخوان الصفا) !.. وهي رسائل مُزج فيها القليل من الحق بالكثير من الباطل[1] .

(١) انظر ما قاله المازَري في حق الإمام الغزالي منتقداً ، طبقات الشافعية لابن السبكي ٢٤١/٦

وأقول : ما هو محطُّ الإنكار في هذا على الغزالي ؟ أهو قراءة هذه الرسائل والاطِّلاع على ما فيها ، أم هو تأثُّر الغزالي بها وقبوله للباطل الذي فيها ؟

إن كان مجرد القراءة هو محطُّ الإنكار ، فقد علمنا أنه ليس في كتاب الله ولا في سنّة رسول الله ولا في شيء من قواعد الشرع ما يدلُّ على أن قراءة كلام المبطلين أو الإصغاء إليه ، لمن يريد أن يكشف عن عواره ، ويعلن عن بطلانه وزيغه ، من الانحراف الذي يستوجب الطعن . بل قرأنا في كتاب الله تعالى ما يدلُّ على أنه واجب كفائي يثاب عليه . وهو قول الله تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٦/١٢٥] ، وهل تكون مجادلة المبطل إلا بعد الإصغاء إلى الباطل الذي يتمسك به ويدعو إليه ؟ وهل يكون الإصغاء إلا بقراءة ما هو مكتوب ، أو بسماع ما هو منطوق ؟

وقد نقل الغزالي في (المنقذ من الضلال) إنكار من سمَّاهم بعض أهل الحق ، في تقريره لشبه المبطلين وإبرازها وتجليتها بين يدي إبطالها والرَّد عليها ، إذ يؤدي ذلك - من وجهة نظرهم - إلى الترويج لها والتعريف بها . ثم قال ما نصّه :

« وهذا الإنكار من وجهٍ حقّ . فقد أنكر أحمد بن حنبل على الحارث المحاسبي رحمها الله تصنيفه في الرَّد على المعتزلة . فقال الحارث : الرَّد على البدع فرض . فقال أحمد : نعم ، ولكنك حكيت شبهتهم أولاً ثم أجبت عنها . فبِمَ تأمن أن يطالع الشبهة من يعلق ذلك بفهمه ، ولا يلتفت إلى الجواب ، أو ينظر في الجواب ، ولا يفهم كنهه ؟ » . ثم قال الغزالي :

« وما ذكره أحمد بن حنبل حقّ ، ولكن في شبهة لم تنتشر ولم تشتهر . فأما إذا انتشرت ، فالجواب عنها واجب ، ولا يمكن الجواب عنها إلا بعد الحكاية . نعم ينبغي أن لا يتكلَّف لهم شبهة لم يتكلَّفوها ، ولم أتكلَّف أنا ذلك »[1] .

---

(١) المنقذ من الضلال بتحقيق محمود بيجو ٥٦ و ٥٧

وإن كان محطّ الإنكار هو دعوى تأثر الغزالي بالفلسفات الباطلة التي حشيت بها (رسائل إخوان الصفا) ، وقبوله لها ، فأين هو مصداق هذه الدعوى ، وما وجدنا لدى الغزالي إلاّ نقيضها ؟.. وما هي المسائل التي جرى وراءها ، فاقتنع بها وتقبّلها ، ولم نجد في جملة ما عاد به الغزالي من قراءته لتلك الرسائل إلاّ كشفاً لزيفها ، وتدليلاً على بطلانها ؟ ثم زاد فحذّر من الإقبال على (رسائل إخوان الصفا) وأمثالها ، ومن الركون إليها ، بالنسبة إلى من لم يبلغ درجة القدرة على تعريتها ، وفضح الدَّجل المعشّش فيها . يقول :

« .. إن من نظر في كتبهم (كإخوان الصفا) وغيره ، فرأى ما مزجوه بكلامهم من الحكم النَّبوية والكلمات الصوفية ، ربما استحسنها وقبلها ، وحسَّن اعتقاده فيها . فيسارع إلى قبول باطلهم الممزوج به ، لحسن ظنّه بما رآه واستحسنه . وذلك نوع استدراج إلى الباطل . ولأجل هذه الآفة يجب الزَّجر عن مطالعة كتبهم ، لما فيها من الغدر والخطر . وكما يجب صون من لا يحسن السباحة عن مزالق الشطوط ، يجب صون الخلق عن مطالعة تلك الكتب . وكما يجب صون الصبيان عن مسِّ الحيات ، يجب صون الأسماع عن مختلِط الكلمات »[1] .

فيا عجباً لحال من يأخذ الغزالي بما يجب أن يشكره عليه ، ويطعن فيه بما هو مناط مثوبة وأجر !..

ويتبع هذا الطعن ذاته ، إنكارُ المازَري عليه قراءته لابن سينا ، فقد رأى في ذلك نقيصة كبرى تلحق به !!..

وأقول : لقد كان من نتيجة قراءة الغزالي آراء ابن سينا وأفكاره أن أثبت موجبات كفره ، ودلائل زيفه عن المحجة ، وشروده إلى أودية التيه ، وتوغّله في الأوهام الباطلة ، وتحذيره الناس من الانخداع ببهرج زيفه . فهل يفسَّرُ إنكار المازَري على الغزالي فعله هذا إلا غيرة على ابن سينا ، وإشفاقاً عليه من فضح الغزالي له ؟..

(١) المنقذ من الضلال : ٥٤

أما إن كان المازَريُّ يعني أن مجرد قراءة الغزالي لابن سينا وأمثاله يعدُّ انخراطاً في مذهبهم وقبولاً لباطلهم ، فلعله ينكر على رسول الله ﷺ أيضاً يوم كان يصغي إلى أوهام أبي جهل وأضرابه ليبطلها ويردّها عليهم ، أنه قد انخرط بذلك في سلكهم وانضمَّ إلى صفِّهم !.. ولكن أفيعقل هذا ، أو يقبله منصف ؟!..

☆ ☆ ☆

ومن هذه الأوهام التي نسجت فألصقت بالغزالي ، وهو منها بريء ، بل هو قائم ومعتزّ بنقيضها ، ما نقله الذهبي عن أبي بكر بن العربي أنه قال : « شيخنا الغزالي بلع الفلاسفة ، وأراد أن يتقيأهم فما استطاع »[1] !!..

ألا ليت ابن العربي وضعنا أمام مدلولٍ لكلامه البليغ هذا : « .. بلع الفلاسفة » حتى نلاحق الغزالي بعد ذلك ونهيب به أن يتقيأهم .. متى وكيف بلعهم ، حتى يتقيأهم ؟

لو أن ابن العربي لفت أنظارنا إلى لوثة واحدة من أخيلة الفلاسفة وسماديرهم ، خُدِعَ بها الغزالي فركن إليها وأخذ بها ، لردَّدنا معه كلمته البليغة : « بلع الفلاسفة » .

ولقد قلت لنفسي ذات يوم ، لعلَّ ابن العربي رأى من تأثُّر الغزالي بأوهام الفلاسفة ما لم نره ، ولم يشأ أن يتبع الادّعاء بالبيِّنة فاكتفى بجملته البليغة الأدبية هذه . فقمت أتتبع مظانّ ذلك في سائر ما خلفه الغزالي لنا من حربه العلمية للفلاسفة وأفكارهم الزائغة ، بدءاً بتهافت الفلاسفة ، فلم أجد أنه قد خدع بشيء من أوهامهم أو تحيَّز أو انزلق إلى باطل من أفكارهم . وإنما رأيته يتتبع ضلالاتهم ويذيبها بحججه العلمية القاصمة ، مستعملاً كلما اقتضى الأمر أساليبهم وأسلحتهم .

قالوا بالقدم النوعي للعالم وألبسوا دعواهم هذه كسوة العلم ، التي اغترَّ بها أمثال

(١) سير أعلام النبلاء ١٩

الفارابي وابن سينا .. فكان أن مزّق الغزالي عن هذه الدعوى ثوبها الزائف ، وخنقها بحبال من البراهين العلمية ، التي لا يتأتى للمتعاملين بأساليب الفلسفة جحود أيّ منها ، والتي تسجد لقرار الله القائل : ﴿ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الرّعد : ١٦/١٣ ، الزُّمر : ٦٢/٣٩] .

أنكروا النَّشأة الثانية بعد الموت ، واصطنعوا لإثبات إنكارهم أغلوطات وألواناً من المخرقة ، طالما خدعت كثيراً من ذوي الألباب ، فقيَّض الله من الغزالي لساناً لم يمتع به غيره ، وأنطقه بحجج علمية دقيقة لم يتبيَّنها غيره ، ودفعه اللطف الإلهي ، مجهزاً بالحجة القاصمة ولسانها المبين ، إلى ساحة الانتصار للحق الأبلج الذي أكده كتاب الله القائل : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ۞ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ [القيامة : ٣/٧٥ ـ ٤] ، فقام وحيداً في تلك الساحة ، يستنطق العلم منضبطاً بمنهجه وموازينه ، شاهداً لبيان الله ، بل ساجداً لقراره ووعده . ورأى العالم أجمع مشهد الباطل كيف تتبدد أخيلته ، وكيف ينهزم الكلام الضبابي أمام المنطق العلمي السديد ، المحبوك نسيجه من سدى العقل ولحمة النقل .

زعموا أن للأسباب تأثيراً ذاتياً فيما يسمونه المسببات ، ونسوا أو تناسوا أن الذي قدم الأول فجعله سبباً ، وأخّر الثاني فسمّي مسبّباً ، إنما هو الله ، وأن الذي خلق التأثير في هذا الثاني ، إنما هو الله ذاته ، الذي أعطى الأول دور الفاعل المسبّب ، وحمّل الثاني آثار المنفعل المتسبّب .. فجاءهم الغزالي بحقائق علمية ساطعة ، لم يُسبق إليها من قبل ، ولا نسج على منواله فيها أحد من بعد ، واستنطق العقل ، مستنداً إلى دليل التجربة والمشاهدة ، بأن علاقة ما بين السبب والمسبب فيما يؤكده العلم وتؤيّده التجربة ، ليست إلا علاقة اقتران استقر فاستمرّ ، فخيل إلى الناظر أن الاقتران الدائم نتيجة تأثير . ثم برهن على أن هذا الخيال عريٌّ عن أي مستند علمي ، مذكّراً بأن العلم لا يسمى علماً ، إلا إن كان تابعاً للمعلوم ، وأن الافتراض الذهني أبعد ما يكون عن العلم عندما يفرض على المعلوم ، أي الواقع الخارجي ، أن يكون هو التابع له ..

وانتصر الغزالي في نهاية جولة علمية رائعة ، يشهد له بها اليوم العالم كله ، للبيان الرَّباني الذي يحصر الفاعليات كلها في الذات العليّة الذي بيده الخلق والأمر ، القائل : ﴿ إنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّموات والأرْض أن تَزولا ﴾ [فاطر : ٣٥/ ٤١] ، والقائل : ﴿ ومِن آياتِهِ أنْ تَقومَ السَّماءُ والأرْضُ بِأمْرِهِ ﴾ [الرّوم : ٣٠/ ٢٥] ، والقائل عن سفينة نوح : ﴿ وحَمَلْناهُ عَلى ذاتِ ألْواحٍ ودُسُرٍ ☆ تَجْري بِأعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ ﴾ [القمر : ٥٤/ ١٣ ـ ١٤] .

فإذا كان الانتصار لدين الله وعقائد الإسلام ، وتبديد الشُّبهات التي قد تتكاثر بفعل الزنادقة أو الفلاسفة التائهين ، بين عقول الناس ونصوص الكتاب المبين ، يسمى ابتلاعاً لهؤلاء الفلاسفة أو الزنادقة ، إذن فرسول الله ﷺ كان أول مبتلع للمشركين ، الذين طهَّر الله الجزيرة العربية به منهم !.. ولكن لماذا يتمنى ابن العربي رحمه الله لو عاد فتقيأهم ؟

ألا ليت أن أبا بكر بن العربي كان حيّاً لأسأله فيجيبني : ماذا يعني بهذه الكلمة الإنشائية التي لا يستبين لها معنى ؟ أهي مدح تعبر عن ذوبان الفلاسفة وفلسفتهم في ضرام حججه الدامغة الخادمة لكتاب الله والمؤيدة لما جاء به من الحق ؟ إذن فلماذا يريد منه أن يعود فيتقيأهم ، ليعودوا إلى سابق لغوهم ؟ أم هي كلمة قدح تعبر عن النقيض ، أي عن ابتلاعهم له ، وهيمنتهم عليه ، وتبديدهم لبراهينه وحججه ؟ فأين هو مصداق ما يقول ؟ وها نحن لا نرى على صعيد الواقع المشاهد إلاّ نقيض هذا النقيض . وما أظن إلا أن ابن العربي سمع بكتاب (تهافت الفلاسفة) ولم يتوفر على قراءة شيء منه !!..

☆ ☆ ☆

ومن الأوهام التي ألصقت بالغزالي ما رواه الذهبي عن محمد بن الوليد الطُّرطوشي في رسالة له إلى ابن المظفر ، أنه قال عنه : « أما أبو حامد فقد رأيته وكلمته ، فرأيته

جليلاً من أهل العلم واجتمع فيه العقل والفهم » إلى أن قال : « ثم بدا له البعد عن طريق العلماء ، ودخل في غُمار العمّال ، ثم تصوَّف وهجر العلوم وأهلها ، ودخل في علوم الخواطر وأرباب القلوب ووساوس الشيطان ، ثم شابها بآراء الفلاسفة ورموز الحلاج ، وجعل يطعن على الفقهاء والمتكلِّمين ، ولقد كاد أن ينسلخ من الدين .. »[١] .

أقول : وهذا الذي ذكره الطرطوشي عن الغزالي ، سلك فيه مسلك المازَريّ وابن العربي من اتِّهام الغزالي بعموميات ، لا تنحطُّ على أي جزئيات وتفاصيل يمكن استبانة الحق فيها من صدق هذا الاتِّهام أو عدم صدقه .. فاتِّهامه مثلاً بأنه دخل في غُمار العمّال ، وبأنه تَصوَّفَ .. وهجر العلوم وأهلها .. ودخل في علوم الخواطر .. ووساوس الشيطان ، وشابها بآراء الفلاسفة ورموز الحلاج .. إلخ . كل هذا تعميم لا يستبين من ورائه أي مثال تفصيلي ينهض شاهداً على صدق هذا الاتِّهام أو عدم صدقه .

فما التَّصوف المذموم الذي اتّهم به ؟ وما الدليل على ذلك من قوله ؟ وما هي علوم الخواطر التي دخل فيها ؟ وما هي أمثلتها التفصيلية التي بوسعنا أن نضعها في ميزان الكتاب والسُّنة لنتبيَّن أهي من الخواطر السَّيئة المبتدعة ، أم من العلوم والمعارف المستحسنة ؟ وما هو المقصود بوساوس الشياطين ؟ وما السبيل الذي تبين له من خلالها أنها وساوس الشياطين وليست إلهامات من الله عزّ وجلّ ؟ وما هي آراؤه التي استقاها من ضلالات الفلاسفة ؟ وما هي الرموز التي نقلها فتبنّاها ودعا إليها من الحلاج ؟ وقد علمنا كما علم الذهبي ونقله ، أن الغزالي كفَّر الحلاج بعباراته التي فاه بها مخالفاً الشرع ، وأيَّد قتله[٢] !..

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣٣٩/١٩ ، وطبقات الشافعية لابن السبكي ٢٤٣/٦

(٢) انظر سير أعلام النبلاء ٣٣٣/١٩

إن هذه الادّعاءات تظلُّ حجة على مدَّعيها إلى أن يدعمها بتفاصيل الأقوال والاعتقادات المؤيدة ، فكيف .. وإن مؤلَّفات الغزالي تنطق في تفاصيلها بنقيض هذه الادّعاءات ؟

والعجيب أن الطرطوشي انتقد هجر الغزالي للتعليم في النِّظامية معبِّراً بهذا التعميم العجيب : « هجر العلوم وأهلها » دون أن يشير إلى أنه قد عاد إليها بعد ذلك ، متجاهلاً السبب الذي من أجله ترك التعليم والوظيفة إلى حين ..

بل الأعجب من هذا أن الطرطوشي ينتقد الغزالي بهذه العموميات التي ينسبها إليه ، دون دليل ، ولم ينتقده للعيوب الكبرى التي كان يعاني منها الغزالي أيام تدريسه في النِّظامية وإقباله على مجد الأستاذية والتعليم ، من التَّباهي على الآخرين بعلومه واستخفافه بهم ، وقصده من أعمال التأليف والتدريس بلوغ المجد الدنيوي ومنافسة الأقران . وهو ما اعترف به الغزالي وعرفه من نفسه . ولو أن الطرطوشي وقف عند هذا العيب الكبير وانتقده بسببه لكان الغزالي أوّل مؤيدٍ ومصدقٍ له .. ولما انتقده عندئذ بسبب ما عبَّر عنه بهجره التعليم وأهله .. فمنذا الذي ينتقد المقبل على الصلاة ، إذا انصرف عنها ليغتسل ويتطهَّر أولاً ؟..

إن الذي ميَّز الإمام الغزالي عن الطرطوشي وأمثاله أن هؤلاء إنما كانوا يبحثون في أنفسهم وفي الآخرين عن كمال المظهر وصياغة العبارات وموازين الأعمال الظاهرة .. أما الغزالي ، فقد ساقته العناية الإلهية في الشطر الثاني من عمره ، إلى اختراق صور الأعمال إلى بواعثها الكامنة وراء الصدر ، وإلى أن يسبر غور نفسه ، فيقف على ما يعانيه من باطن الإثم ليعالجه ..

وهذه المزية هي محور انتقادات الطرطوشي ، وهي العيب الذي عبَّر عنه بقوله : « .. ودخل في علوم الخواطر وأرباب القلوب .. » ، وهل هذا في مضمونه البعيد إلا انتقاد لمعنى كلام رسول الله ﷺ : « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح

الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » . فاعجب لمزية تتحول عند هذا الرجل والقلّة من أمثاله ، نقيصة وعيباً ، وللنقيصة الكبرى التي تتمثل في الآفات القلبية التي عالج الغزالي نفسه منها ، تذوب في ناظره وناظر أمثاله ، فلا يقيم لها وزناً ، ولا يلقي لها بالاً ، ولا يرى أنها مرض خفي وخطير يحتاج إلى مقاومة وعلاج !!.. بل يرى في معالجة الغزالي نفسه منها نقيصة كبرى جعلته يسقط ـ على حدّ تعبير الطرطوشي ـ على أمّ رأسه !..

☆ ☆ ☆

ومن هذه الأوهام التي ألصقت بالغزالي ، انتقاد أبي بكر بن العربي ، كلمته المشهورة التي سطّرها في بعض مؤلّفاته : « ليس في الإمكان أبدع مما كان » .

أقول : لقد أُتي ابن العربي من سوء فهمه للمعنى الذي عناه الغزالي بها .

وقد ذكر الغزالي هذا الكلام ، في معرض تأكيده لما هو مقرر في مذهب أهل السُّنة والجماعة ، من أنه لا يوجد في الأشياء أو الأفعال حسن أو قبح ذاتي كامن في جوهره ، بحيث تكون أحكام الله تعالى بشأنها تابعة لما يقتضيه ذلك الحسن أو القبح ، بل إن الحسن أو القبح الذي فيها ليس إلا وصفاً أضفاه الله عليها . ولسنا هنا بصدد عرض الأدلة الكثيرة على هذا الكلام[1].

ينتج عن هذا أن الله عزّ وجلّ عندما تعلّقت إرادته بإيجاد هذه الخليقة على الشكل الذي أوجدها عليه ، وعلى النظام الذي أقامها فيه ، فإن هذا الشكل مع نظامه هذا هو منتهى الحسن الذي يمكن أن تتمتع به هذه الخليقة ، وذلك لدليل نقلي هو قول الله تعالى : ﴿ الَّذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيءٍ خَلَقَهُ ﴾ [السّجدة : ٣٢/٧] . ولدليل عقلي يتلخص في أنّا لو اعتقدنا أن هذه الخليقة لم تستكمل سائر صفات الحسن ، على الشكل والنظام

(١) انظر تفصيل الأدلة العلمية العجيبة التي ذكرها الغزالي وناقش بها المعتزلة في المستصفى ٥٨/١ طبعة بولاق .

اللذين أقامها الله عليها ، ومن ثم فإن بالإمكان تجاوز ذلك إلى ما هو أحسن وأكمل ، *لكان ذلك نتيجة اعتقاد منا ، بأن أفعال الله* وخَلْقه تابعان لمقاييس الحسن الثابتة بحدّ ذاتها ، فقد يصل خلقه للأشياء إلى منتهى مقاييس الحسن وقد لا يصل ، ومن ثم يصلح أن يقال : إن هذه المخلوقات بنظامها الحالي الذي شاءه الله تعالى ، يمكن أن ترقى إلى درجة أتمّ وأعلى في مراتب الكمال والحسن .

وهذا هو التَّصور الخاطئ الذي ضلَّ فيه المتعزلة ، وردَّ عليهم جمهور المسلمين ، وفي مقدمتهم الإمام الغزالي بالأدلة العلمية الحاسمة .

إذن فقرار الغزالي الذي عبَّر عنه بهذه الكلمة الجامعة ، ترجمة دقيقة لما عليه أهل السُّنة والجماعة . من أن صفة الحسن والقبح في الأشياء هي الأخرى من خلق الله وإيجاده .

ولو لم نقل بهذا الذي قاله الغزالي لقلنا ، البتّة ، بنقيضه ، وهو : كان من الممكن أن توجد هذه الخليقة على شكل أو نظام أحسن مما هي عليه الآن !.. وهذا يعني أن إرادة الله وقدرته قد تقاصر كل منهما عن بلوغ درجة الكمال في الخلق والإبداع ، وهو يعني في الوقت ذاته أن مقاييس الكمال ثابتة بشكل ذاتي في هذا الكون ، وأن أفعال الله كانت ولا تزال لاحقة بها سائرة وراءها .

وهذا ما يبرأ إلى الله منه السلف الصالح وأهل السُّنة والجماعة قاطبة .

بقي أن أوضح أن الشبهة التي جعلت ابن العربي ينكر هذا الكلام ، ما قد تصوره فيه من أنه يستلزم نسبة العجز إلى الله تعالى .

غير أن بوسعك أن تعلم بأنها شبهة وهمية داحضة ، إذا ما وقفت بتأمُّل عند كلمة « ... كان » فالغزالي يقرر أن ما تعلقت به إرادة الله تعالى من الخلق والإبداع ، هو منتهى الحسن والكمال .. ومعنى هذا أن الله كان ولا يزال قادراً على أن يوجه إرادته ،

ومن ثم قدرته ، إلى إبداع خليقة غير هذه التي تعلقت إرادته بخلقها ، ولكانت تلك الخليقة عندئذ هي المتصفة بالكمال الأتمّ .

ولكن أما وقد تعلقت إرادة الله تعالى ومن ثم قدرته بإيجاد هذا الكون على هذا المنوال ، فإن هذا المنوال هو الشكل الأتمّ والنظام الأكمل ، ودليل ذلك أن إرادة الله تعالى تعلقت بإيجاده على هذا المنوال . وإرادة الله تعالى لا تتعلق بإيجاد شيء إلا ويكون وجوده في منتهى الحكمة ، وبالغاً ذروة الكمال في وصفه الكمالي ، فإذا شاء الله أن يعدمه ، وتعلقت إرادته التنجيزية بإيجاده على نهج آخر ، فإن هذا النهج الجديد هو عندئذ منتهى الحسن والكمال .. ذاك يتصف بمنتهى الكمال والحسن في ميقاته الذي وجد فيه ، وهذا يتصف أيضاً بمنتهى الكمال والحسن في ميقاته الذي وجد فيه .

فأي شائبة تراها في هذا الكلام التوحيدي الدقيق ، الذي لم يشهد التاريخ الإسلامي دفاعاً علمياً أدق منه ، عن عقيدة السلف الصالح (أهل السُّنة والجماعة) ؟

☆ ☆ ☆

ومن هذه الأوهام أيضاً ما يأخذه بعض المعاصرين على الإمام الغزالي ـ بالإضافة إلى ما قد مرَّ ذكره ـ من أنه شهد غزو الصليبيين لهذه البلاد العربية والإسلامية ، ولم يؤثر عنه أنه حمل السلاح في وجه الصليبيين الغزاة وقاتل مع من قاتل آنذاك في سبيل الله .

ولَتَمنَّيتُ أن يكون هؤلاء الناقدون أو بعضهم ، أعضاء في حركة حماس أو الجهاد الإسلامي في فلسطين ، أو من المقاتلين مع حزب الله في لبنان ، إذن لشممت من كلامهم رائحة الصدق والإخلاص . ولكني نظرت ، فوجدت أن كل هؤلاء الذين واجهوني أكثر من مرة بهذا النقد المرير للإمام الغزالي ، لم يحمل واحد منهم يوماً سلاحاً في وجه عدو .. إلا أن يكون قد حمله مكرهاً لأداء الخدمة الإلزامية .

فما مبعث هذا النقد من أناس هذا هو شأنهم ، في حقّ الإمام الغزالي ، الذي عرفت الآن خلاصة لترجمته وسيرة حياته ؟

ثم ما هو السبب الذي يدعوهم إلى أن يخصّوه هو بهذا النقد ، من دون الأئمة الكثيرين من أمثاله ، ممن عاصروا الغزو الصليبي ، وكانوا منصرفين إلى أعمالهم وجهودهم العلمية والتعليمية التي أقامهم الله فيها ، من أمثال إمام الحرمين الجويني ، والقاضي أبي بكر بن العربي ، والعزّ بن عبد السلام ، وابن رشد أبي الوليد ، وأبي بكر الطرطوشي ، وعبد الله بن قدامة ، والإمام المازري .. وكثيرين من أمثالهم من جلّة الأئمة العلماء الفضلاء المشهود لهم بالإمامة في العلم والعمل والسلوك ؟

وأنا لا أعني أن هؤلاء وأمثالهم كانوا مقصّرين كتقصير الغزالي ، في عدم تركه لأعماله العلمية ، وعدم انخراطه مع المجاهدين الذين وقفوا في وجه الحملات الصليبية ، بل إنهم جميعاً كانوا مثال الاستقامة على الحق ، والتّقيد بما تقتضيه أحكام الشريعة الإسلامية ، في تقاسم الجهود والاختصاصات .

ولا أعتقد أن في المسلمين الصادقين في إسلامهم ، الملتزمين بآداب الشّرع وأحكامه ، من يشك في أن الغزالي كان على استعداد لأن يعرض عن علومه ودروسه وتآليفه ، ويتجه ليقاتل ، جنديّاً ، مع المقاتلين للغزاة الصليبيين ، لوأن إمام المسلمين أو القائد الأعلى لجيوش المسلمين ، أعلن عن عجز الجيش عددياً ، وعن حاجته إلى أن ينخرط علماء الدين ، وحرّاس الشريعة ، والمنافحون عن حقائق الإسلام ، والمحذرون من أباطيل خصومه ، جنوداً مقاتلين فيه . ولا شك في أن بقية العلماء الأعلام كانوا سينهجون نهجه ، ويقتفون في ذلك أثره .

ولكن هل أعلن إمام للمسلمين أو قائد في جيش من جيوش المسلمين ، عن ذلك العجز وهذه الحاجة ؟ لم يحصل هذا قطّ ، ولو تمّ ذلك لسمعنا خبره في التاريخ .

إذن فأمر التوجُّه لقتال العدو ، والحالة هذه ، داخل في دائرة الفروض الكفائية ، وكما أن الجهاد والحالة هذه فرض كفائي ، فإن حراسة العقائد الإسلامية ، والتبصير بأحكام الشريعة الإسلامية ، وحمايتها من العبث والدخيل ، أيضاً من الفروض الكفائية التي لا يجوز إهمال القدر الأساسيّ منها . ولا يجوز إبطال فرض كفائي بمثله .

فكيف عندما يكون الحارس لعقائد الإسلام ومبادئه ، هو حجة الإسلام الغزالي ؟

ترى أيهما كان يشكِّل الدعامة الراسخة لعلوم الإسلام وحقائقه ، والحصنَ الذي يقي الإسلام مع الزمن من أباطيل الفلسفة وسماديرها : أن يعرض الغزالي عن تهافت الفلاسفة ويترك زيفهم يتسرَّب إلى عقول المسلمين ، وأن يعرض عن التبصير بسبيل تزكية النفس والمنهج التربوي الموصل إلى الله ، ويتَّجه ليكون واحداً من آلاف المقاتلين ، في ثغر لا حاجة فيه إلى المزيد .. أم أن يعكف على هذا الذي أقامه الله فيه من تمزيق الباطل بمنطق الحق الذي أقدره الله على بيانه واضحاً مبسَّطاً ، كما لم يُقْدِرْ على ذلك أيّاً من علماء عصره ؟!..

ماذا كان حال المسلمين اليوم ، لو لم تجد الفلسفة الباطلة الرعناء نفسها ، أمام السَّدّ العلمي الأشمّ المتمثِّل في عبقرية الغزالي وبليغ بيانه ؟.. وكيف كانت حال المسلمين اليوم لو لم ينجدهم الله بكتابه الإحياء ، الذي زكّيت به ملايين النفوس ، وشفي به الملايين من مرضى القلوب ؟.. وما الثغرة التي تسرب منها الصليبيون إلى المسلمين **وبلادهم ،** لا لشيء ، إلاّ لأن الغزالي لم يتخذ مكانه فيها واقفاً في وجه الصَّليبيين ؟!..

ليس في العقلاء من يجهل أن صاحب الاختصاص ينبغي أن يوضع في المكان الذي يناسب اختصاصه ، وليس فيهم من يجهل أن الدنيا لا تصلح إلا باتِّباع هذا القانون . فالقائد الحربي الفذّ ما ينبغي أن يُقْتَلَع من موقعه الذي يناسبه من الثغر الذي هو فيه ، ليؤتي به قاضياً يفصل بين الخصوم ، أو محاضراً في الفلسفة وعلوم الدين .. والقاضي الذي أوتي بصيرة نافذة بالأقضية والفصل بين المتخاصمين ، أو العالم المتبحّر

الذي جعل الله من بصيرته العلمية عيناً حارسة لعقائد الأمة وثقافتها ومداركها العلمية السليمة ؛ أن لا يعبث بها مدجل أو دخيل ، ما ينبغي أن يُقْتَلَع هو الآخر من موقعه الذي أقامه الله فيه ، ليُحوَّل إلى جندي في معركة أو ضابط في ثغر .

وإن مخالفة هذا القانون لهو أيسر سبيل إلى الإفساد والفوضى .

نعم ، إن هذا القانون يختفي عندما يتحوَّل الفرض الكفائي ، في الوقوف في وجه العدو ، إلى فرض عيني يتجه بالخطاب إلى كل المكلَّفين والمكلَّفات .. وهذا ما لم يحصل في عهد الإمام الغزالي . أي في السنوات العشر الأخيرة من حياته ، والتي فيها وحدها عاصر الغزو الصليبي ، على أنه كان قد رجع عندئذٍ إلى وطنه ومسقط رأسه .

ومع ذلك ، فكم تمنَّيت أن يكون في هؤلاء الناقدين فدائيون في حركة حماس أو الجهاد الإسلامي ، أو مقاتلون في صفوف حزب الله في لبنان ، ليتأتى لي أن أحسن الظّن بدوافع نقدهم .. ولكنهم ليسوا من هؤلاء ولا أولئك ولا الآخرين .

إذن فمن هم ؟.. وما اختصاصهم ؟..

اختصاصهم ممارسة النقد .. لا لشيء إلا حبّاً بالنقد .. وكم في الناس من لم يسعفهم الحظّ بأعمال إيجابية تعلي من شأنهم وتفيد مجتمعاتهم ، فاستعاضوا عن ذلك بتحطيم أعمال الآخرين ثم التّسلق عليها ، علّه يسعفهم بما لم يسعفهم به الحظّ من الأعمال الإنشائية والخدمات المفيدة .

غير أن رعونات التّحطيم ما كانت يوماً ما بديلاً ، في النتائج والآثار ، عن جهود العلم والبناء .

☆ ☆ ☆

أما المآخذ التي اُتّخِذَتْ ذريعة لنسف جملة من الحقائق التي لا شائبة فيها ولا مأخذ عليها ، فألخص القول في ذلك بما يلي :

أولاً : أعود فأؤكد ما هو ثابت ومقرر من أن الغزالي ، كأمثاله ، من غير الرسل والأنبياء ، غير معصوم عن الخطأ والسهو والجهالة . بل لا شك في أنه يوجد في كلامه ما قد يقتضي ميزان القرآن والسُّنّة ردّه وعدم الأخذ به .

وإنا لواجدون في كتابه (إحياء علوم الدين) أمثلة من ذلك ، قلّت أو كثرت . من ذلك أنه يفيض بالأحاديث الضعيفة والموضوعة .. ومن ذلك أنه بنى على بعض من هذه الأحاديث أحكاماً أخذ بها ، وليس لها من مَدْرَكٍ ومعتمد إلا تلك الأحاديث الضعيفة أو الباطلة .

مثال ذلك تنبيهه الناس في أكثر من مناسبة إلى عدم الخوض في دقائق القضاء والقدر ومشكلاتها ، اعتماداً منه على الحديث الذي رواه الطبراني : « إذا ذكر أصحابي فأمسكوا ، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا ، وإذا ذكر القدر فأمسكوا » . والحديث ضعيف ، بل منكر ، لوجود يزيد بن ربيعة فيه .

ومثاله أيضاً ما قاله في (الإحياء) من استحباب أن يُبْدأ في قصّ الأظافر بالسبابة ، لأن لها الفضل على بقية الأصابع ، وروى في ذلك أثراً عن علي رضي الله عنه ، لم يصح .

هذا إلى جانب حكايات رواها عن بعض المتصوفة ، الذين بالغوا وتزيدوا في حمل أنفسهم على الشدائد والمكاره ، أو سلكوا في فهم الزهد مسالك مخالفة لما جاء به القرآن وبيّنته السُّنة . وربما كان له في ذلك اجتهاد مخالف يؤيد أصحاب تلك الحكايات . وعلى كل حال فإنا لا نؤيد إلا مادلّت عليه نصوص الكتاب والسُّنة ، واتفق على الأخذ به السّلف الصالح وجماهير علماء المسلمين .

فأما جمهرة العلماء الذين عُرفوا إلى جانب علومهم الغزيرة ، بالإخلاص لوجه الله عزّ وجلّ ، والذين يأخذون بالمبدأ المنطقي والديني القائل : (ما منا إلا من رَدّ وردّ عليه) ، والقائل : (خذ ما صفا ودع ما كدر) ، فقد عكفوا على الاستفادة من الخير

الكبير والكثير ، الذي يفيض به هذا الكتاب ، الذي هو من أعاجيب المؤلفات النادرة في تاريخ التراث الإسلامي ، ودعوا الناس إلى ذلك ، واتجهوا في الوقت ذاته إلى ما فيه من ثغرة الأحاديث الضعيفة والباطلة ، فسدّوها بالتخريج والتصحيح ، كما فعل الحافظ العراقي ، وكما فعل ابن السبكي ، إذ جمع في طبقاته سائر الأحاديث الضعيفة أو الباطلة الواردة في الإحياء ، ونبّه إليها ، كما اتّجهوا إلى ما قد يُستدرك عليه من الأخطاء الاجتهادية ، فردّوها ونبّهوا إليها . وبذلك حافظوا على الخير العظيم الذي يندر أن تراه في غير هذا الكتاب ، ومَحَّصوه في الوقت ذاته من المآخذ والهنات . على أنك لو قارنت بين الخير الكثير المتنوع ، والنادر الذي يزخر به الإحياء من المآخذ أو الأخطاء الموجودة فيه ، لوجدت أن هذه المآخذ مهما بولغ في تصور كثرتها لا تزيد على ١٪ .

وأما القلّة من العلماء ـ وكلهم من المالكية المغاربة ـ فقد أصرّوا على أن يأخذوا الجيران بظلم الجار ، وآثروا نسف البناء الصالح الذي يأوي إليه الفقراء والشاردون ، بسبب أبواب غير محكمة ، ونوافذ يتسرب إليها الهواء والغبار . فأصرّوا إصرارهم على ضرورة حرق كتاب (الإحياء) . وقد تمَّ إحراق نسخه في أكثر من مكان في جهات المغرب .

وهذا هو الفرق بين من يرى نقصاً في عمل عظيم الفائدة واسع البركة والخير ، فينشط لتكميل ذلك النقص ، غيرة منه على الخير أن لا ينقطع عن الناس رفده ، وتعاوناً مع صاحب ذلك الغرس على رعاية البناء ونشر كلمة الحق ، وبين من لا يهمه إلا أن يعثر على النقائص ليجعل منها معولاً لتحطيم البناء كله ، ويسعى لالتقاط مظاهر التقصير كي يشهرها بين الناس ويرفعها فوق رماح من ضغائنه وأحقاده .

لقطات من عجائب عبقرية الغزالي العلمية في كتبه

وهي في الواقع ليست لقطات ، بل هي جلّ ما تراه في مؤلفات الغزالي ، من سبر غور المسائل إلى لبابها ، ومن إبرازها ووضعها أمام بصيرة القارئ واضحة نيّرة عن طريق منهجه العلمي الذي تفرَّد به !..

ولكني أعرض من ذلك لقطات تكفي للكشف عن عبقرية الغزالي وحدّة ذكائه ، ورشاقة ألفاظه وبليغ تعبيره . ولا شك في أنها ستغري القارئ بتتبُّع كتاباته ، واقتفاء رحلته العلمية في حدود ما تيسَّر من القراءة الدقيقة له .

فمنها هذا المقطع التالي الذي ذكره الغزالي في أوائل باب الحكم من كتابه (المستصفى) الذي فرغ من تأليفه قبل وفاته بسنتين ونيّف .

يعدّ باب الحكم من أوائل أبواب أصول الفقه الهامة ، ويقرّر فيه علماء الشريعة الإسلامية أن الله هو خالق الأشياء كلها ، وخالق الصفات التي فيها . فهو خالق ذات الخير ، وهو الذي خلق فيه صفة الخير ومعناه . وهو خالق ذات الشَّر ، وهو الذي أضفى عليه صفة الشَّر .. إذن فأحكام الله تعالى في شرعه ليست تابعة أو خاضعة لمقتضى صفة الخير أو الشَّر في الأشياء . بل إن صفة الخير والشَّرِّ في الأشياء هي التابعة والخاضعة لحكم الله عزّ وجلّ .

غير أن من المعلوم أن هذا الذي ذهب إليه جماهير علماء الشريعة الإسلامية ، يخالف ما ذهب إليه المعتزلة . فإنهم يرون أن في الأشياء ما ينبع معنى الخير أو الشَّر من

ذاته . أي فوصف الحسن أو القبح فيه جوهري داخلي ، وليس اعتبارياً عرضياً آتياً عن طريق الخلق والاقتران .

والطريقة المتَّبعة لدى سائر المؤلِّفين في أصول الفقه أنهم يذكرون قرار الجمهور ودليله ، ويتبعونه ببيان رأي المعتزلة وأدلَّتهم . ثم يرجِّحون ما استقرَّ عليه الجمهور .. وهي طريقة متكررة متشابهة يتناقلها المؤلِّفون بعضهم عن بعض .

ولكن الإمام الغزالي جعل من هذه المسألة مطلباً علمياً مستقلاً ، وفتح في سبيل تمحيصها ملف نقاش علمي دقيق لم يُسبَق إليه ، طبق منهجه العلمي الذي يأخذ نفسه به .

بدأ قبل كل شيء فجمع على سبيل الحصر سائر المعاني التي قد تراد لكلمة الحسن أو القبح ، في فعل مّا أو شيء مّا . وذلك عن طريق الاستقراء الفعلي . ثم أخذ يسقط من هذه المعاني ما لا يدخل في دائرة البحث ونقطة النزاع ، واحداً إثر آخر .. حتى إذا ضاقت الدائرة وتحدَّد المعنى المراد ، وتحرَّر بذلك محل النِّزاع وانضبط حجمه بين المعتزلة والجمهور ، أخذ الغزالي ينبِّه إلى (مثارات الغلط) على حدّ تعبيره ، التي انزلق فيها المعتزلة . وراح يفصل القول في هذه المثارات التي تورَّط فيها المعتزلة ، بتفصيل وأناة ، جاعلاً من المثال المفضَّل لدى المعتزلة ، وهو حسن إنقاذ الغريق ، محطّ التجربة والبحث .

وحديث الغزالي عن مثارات أخطاء المعتزلة مسهب وطويل ، ولكني أذكر هنا خلاصة له تجسِّد بحقّ المزايا العلمية العجيبة التي انفرد بها الغزالي عن غيره .

بدأ الغزالي ببيان الحالة التي يكون فيها غلط المعتزلة واضحاً وجليّاً .. ثم تجاوزها إلى حالة يكون رصد أسباب خطئهم أقلّ وضوحاً .. ثم تجاوزها إلى حالة ثالثة يكون وجه خطأ المعتزلة فيها خفيّاً ، ولكنه نبَّه إلى مكمنه وسرِّه ، من خلال معلوماته الدقيقة والعجيبة في مجال علم النفس ، وهو ميدان قلما يجول فيه غيره .

أما مثار غلط المعتزلة في الحالة الأولى ، فهو أن الإنسان الذي يندفع إلى إنقاذ شخص يشرف على الغرق ، إنما يحمله على ذلك ما يعلم من ثناء الناس عليه ، وتحدُّثهم عن شهامته ونجدته . فحسن هذا العمل آت من هذا العارض الخارجي . وإنما يتبين ذلك في حالة وجود أناس من حوله يرون عمله . وهذا عندما يفترض وجود أناس يشاهدون عمله الإنساني هذا .

أما مثار غلطهم في الحالة الثانية ، فهو افتراض عدم وجود أحد من حوله يشاهد عمله الإنساني هذا ، غير أن هذا الذي يندفع إلى إنقاذ ذلك الشخص ، يعلم أنه إذا أنقذه من الهلاك فسوف يحدث الناس عن شهامته وإنسانيته وبطولته فيما أقدم عليه . فيكون هذا التصور باعثاً له على فعله ذاك ، فهو أيضاً آت من عارض خارجي . غير أن هذا المثال الثاني إنما يكون ، كما قلنا ، عندما لا يوجد حول الغريق أو المنقذ من قد يراه من الناس . ولذلك فسبب غلط المعتزلة هنا أقل وضوحاً .

أما مثار غلطهم في الحالة الثالثة ، وهي أخفاها وأدقها ، فهو يكون لدى افتراضهم أن يكون المكان خالياً من المارة من الناس ، ولا مطمع لسبب ما في أن يتحدث ذلك الشخص الموشك على الغرق لأحدٍ عمن أنقذه ، فإن الإنسان مع ذلك يندفع إلى إنقاذه . يقول الغزالي : أما مثار الغلط هنا ، فهو تأثُّر النفس الإنسانية عادة بالوهم الذي يسميه هو (سبْق التصور إلى العكس) . أقول : وإنما يعني الغزالي به ذاك الذي يسمونه اليوم بردّ الفعل الشرطي . ويقف الغزالي هنا ليعرِّف القارئ بهذا القانون ، ويمضي بهذه المناسبة في تحليله وبيان كيفية تأثُّر جلِّ الناس به ، إن لم نقل : كلهم . ويضرب لذلك أمثلة كثيرة متنوعة حتى إذا فهمه القارئ وتذوقه تماماً ، وعرف كيفية تأثيره في الواهمة ، عاد فأوضح كيفية انطباق (سبق التصور إلى العكس) هذا ، على قصة إنقاذ الغريق في هذه الحالة الثالثة التي لا يراه فيها أحد ولا يتوقع أن يعلم بفعله فيما بعد أحد .

ويمضي الغزالي هنا فيوضح أن هذا الإنسان عندما يرى ذلك الشخص موشكاً على الغرق وهو يرفع يديه إليه مستنجداً مستغيثاً ، لا بدّ من أن يتخيل ، بمقتضى الطبع الإنساني أنه واقع ، مكانه في ذلك المأزق ، وأنه يرى شخصاً يمرّ به دون أن يكترث به . ويتصور عندئذ مدى المقت والاحتقار اللذين سيشعر بهما تجاهه .. فتتأذى عندئذ ، أي لدى هذا التَّخيل ، مشاعره من هذا التصور بحكم كونه مؤثراً طبيعياً ، ثم ينظر إلى حال هذا الغريق الذي يراه ماراً به غير مكترث به ولا راحم له ، فينبعث في نفسه ذلك التأثر نفسه مقترناً بمنظره وهو يشرف على الغرق دون أن يتجه إلى إنقاذه ، إذ يخيل إليه أن هذا الغريق ينظر الساعة إليه باحتقار وازدراء ، فيهبّ لنجدته عندئذٍ بدافع من الرغبة الخفية في أن يردّ عن نفسه هذه التهمة التي يتخيَّلها منبعثة إليه من نظر المشرف على الغرق ، بمقتضى قانون الإقران الشرطي ، والتي تؤذيه وتؤلمه بدون ريب .

ويوضح الغزالي أن الإحساس الإنساني قد لا يرصد في تلك اللحظة هذا التحليل الدقيق ، لا سيا عندما لا يكون الغريق ملتفتاً أو متنبهاً إليه ، فيتوهم الرجل أنه ليس مندفعاً إلى الإنقاذ إلا لحسن ذاتي فيه . ولكن الحقيقة أنه يفعل ذلك ، دفاعاً عن نفسه وكرامته ضدّ وهمٍ ، من عادة الناس أن يتأثَّروا به ، أكثر مما يتأثرون بالحقائق الثابتة ، وإن كان هذا الدافع يبقى في الأغلب خفيّاً عن ساحة الشعور السطحي .

فانظر الآن إلى أصل هذه المسألة كم هي صغيرة وجزئية ، ألا وهي مسألة الحكم في مقياس الشرع ، هل يمكن أن يستقلّ به العقل دون استناد إلى وحي ؟ إن بوسعك أن تقرأها في أي من كتب أصول الفقه المختصرة والمطوّلة ، فلا تجدها تخرج بك عن نطاق مسألة فقهية ذات جذور أصولية .

غير أن الغزالي فككها وأحالها إلى جزئيات وأجزاء ، ووزعها بين أبعادها العلمية المتنوعة ، وكشف عن الشرايين الواصلة بينها وبين سائر ما تتعلق به من دقائق

التحليلات العلمية والأحكام النفسية . وأقام من ذلك كله براهين علمية على الحق الذي ذهب إليه السلف الصالح وعموم أهل السنة والجماعة ، من أن الحسن أو القبح الذي نراه في الأشياء أو الأفعال ، إنما هو وصف عرضي طارئ عليه ، وليس معنى ذاتياً كامناً فيه بالطبع ، كما أقام من ذلك براهين علمية على الوهم الجليّ آناً والخفي آناً الذي انجرف فيه المعتزلة .

☆ ☆ ☆

ولنقف الآن أمام لقطة أخرى تكشف هي أيضاً عن عجيب عبقرية الغزالي في تعامله مع العلم ، وفي قدرته الفائقة على الكشف عن أن العلم الحقيقي ، لا يكون إلا أنصع برهان على سلامة الدين الحق .

وقفتنا مع هذه اللقطة ، هي في كتاب الغزالي (تهافت الفلاسفة) ، سنقف منه على التحليل العلمي العجيب الذي ناقش من خلاله الفلاسفة الإغريقيين ومقلديهم من الفلاسفة الإسلاميين ، في مسألة قانون السببية وحقيقته .. فلقد برهن من خلال بيان مطول على أن ما نتوهمه سبباً يستلزم ، على وجه الحتم والضرورة ، مسبَّبه ، في دنيا الطبيعة وأشياء المادة ، لا يعدو في الحقيقة أن يكون في حجمه العلمي الدقيق اقترانات مجردة ، أضاف إليها الوهم النفسي من عنده ـ بسبب طول الاقتران وعدم انفكاكه ـ حكماً فضولياً من عنده ، دون أي رصيد علمي مادي ، ألا وهو توهم حتمية هذا الاقتران في الماضي وفيما لا يزال ، دون أن يكون لقرار النفس هذا من برهان على ذلك إلا استمرار الاقتران .

وأهم ما في هذا البحث العجيب الذي تناوله الغزالي من أطرافه العلمية كلها ، وسبق في ذلك العلماء الوضعيين والتجريبيين الذين جاؤوا فيما بعد ، أنه نبه من خلاله إلى ما سماه باليقين التدريبي ، موضحاً الفرق الدقيق ، الذي لا يتبيّنه كثير من الباحثين ، بينه وبين اليقين العلمي .

وأنا لا أعلم ـ اعتماداً على اطلاعي ـ أحداً سبق الغزالي إلى الحديث عن (اليقين التدريبي) هذا ، وعن الفرق بينه وبين اليقين العلمي ، ولكم التبس الفرق بينهما على كثير من الباحثين والعلماء !..

واليقين العلمي هو ذاك الذي يأتي ثمرة لبراهين علمية قاطعة مجردة ، بعيداً عن سلطان النفس وتأثراتها . وهو يحتاج ، كما يقرر الغزالي في أكثر من موضع في كتابه (الإحياء) ، **إلى معاناة دائبة تهدف إلى تحرير العقل من أهواء النفس وأوهامها ، كما** يحتاج إلى تعبيد الطريق إليه وتصفيته من تعاريج الزغل الفكري وتضاريس الظنون والعصبيات .

أما اليقين التدريبي فهو ما توافرت له البراهين التي تكسب النفس طمأنينة إليه وثقة بإمكان الاعتماد عليه دون أن تصاحبها براهين علمية قاطعة . ومن أبرز أمثلته فيما يراه الغزالي ، تلك الاقترانات المستمرة بين أمرين سابق ولاحق ، بحيث يتخيلها الناظر لطول الاقتران أسباباً ومسببات . ذلك لأن طول الاقتران بين أمرين دون وجود أي انفكاك بينهما يورث النفس طمأنينة بأن الاقتران سيستمر وأن شذوذاً لن يقع في العلاقة القائمة بينهما ، وذلك كيقين النفس بأن النار ستظل تحرق ، اعتماداً على التجارب الكثيرة الماضية التي لم يظهر فيها أي تخلف وشذوذ .

ويقرر الغزالي أن هذا اليقين ، وإن لم يكن علمياً ، فيه من القوة ما يكفي للاعتماد عليه في إقامة أنظمة الحياة ، والتعامل معها طبقاً لنواميسها القائمة . وذلك كي لا يقع الإنسان في تيه واضطراب وسط الاحتمالات العقلية التي قد تجعله لا يثق بشيء . خصوصاً عندما يسمع العلماء يقولون : إن هذه الاقترانات القائمة بين ما نراه أسباباً ومسببات ، لا وثوق بها ، وليس ثمة دليل علمي على حتمية العلاقة بينهما .

ولكن الغزالي يعود فيؤكد أن على الإنسان أن يتحرر من هذا اليقين التدريبي ، عندما يريد أن يتأمل ويحاكم الأمور إلى براهينها العلمية الصافية عن الشوائب ، كما أن

عليه أن يحرص على وضعها في ميزان القرار العقلي المجرد . ذلك لأن التعامل السلوكي مع الحياة شيء ، ودراسة قوانينها على ضوء الأدلة العلمية المجردة شيء آخر[١] .

وأعود فأكرر ما قلته : إنني لا أزال أعتقد أن الغزالي هو أول من كشف عن هذا الفرق بين هذين النوعين من اليقين : اليقين التدريبي النفسي واليقين العقلي العلمي . وهو أول من ميّز بين وظيفة كل منهما ، وحدّد لكل منهما مجاله وعمله .

فإن كنتُ مخطئاً ، وكان ثمة من يعلم أن الغزالي مسبوق إلى بيان هذه الحقيقة الهامة ، فله مني جزيل الشكر إن هو تكرم فنبهني إلى ذلك ، وذكر لي اسم ذلك العالم أو الفيلسوف الذي سبقه إلى الحديث عن (اليقين التدريبي) ومظاهر الفرق بينه وبين (اليقين العلمي) .

ولا ريب في أن هذا التحليل الهام ، يشكل معلمة بالغة الأهمية على طريق منهج المعرفة والسلوك .

☆ ☆ ☆

ولنختتم هذه اللقطات بنموذج نأخذه من كتاب (إحياء علوم الدين) .

ولا ريب عندي في أن هذا الكتاب من أعاجيب المؤلفات النادرة في تاريخ التراث الإسلامي ، كما أوضحت من قبل . إنه في الحقيقة موسوعة علوم شتى !.. فقد ضم في ثناياه علم النفس والأخلاق والاجتماع والاقتصاد إلى جانب العلوم الإسلامية من عقيدة وفقه وتفسير وتصوّف (أعني علم أمراض القلب وعلاجاته) .. إلاّ أنك لا تجد هذه العلوم المختلفة المتنوعة منثورة فيه على انفراد واحداً إثر آخر ، كمخزن ضم أصنافاً من البضائع المتراصفة ، وإنما صاغ الغزالي منها جوانب وأركاناً متناسقة ومتماسكة لبنيان علمي واحد ، أقام منه مجمّعاً للحقائق الإسلامية الكاملة التي لا مزيد عليها .

(١) انظر (تهافت الفلاسفة) وردّه على الفلاسفة تصورهم لحتمية العلاقة بين الأسباب والمسببات ، وتأمل بيانه المشرق العجيب في تحليل هذا البحث وشرحه ومناقشة الآخرين فيه ، ٢٣٧ ، بتحقيق سليمان دنيا .

وسألتقط لك من ذخر هذا الكتاب الجامع ، ما لا تتوقع وجوده فيه ، وإنها لكثيرة جداً تلك البحوث والمسائل التي لا تتوقع وجودها فيه ، مما يخيل إليك أن لا علاقة له بشيء من علوم الدين وأحكامه .

سأتركك مع هذا المقطع من كلام الغزالي في الإحياء عن النقد (القيمة) ووظيفته في المجتمع ، وعلاقة ما بينه وبين المنافع التي يتبادلها الناس فيما بينهم ، ليلفت النظر من خلال ذلك إلى حكمة الله عز وجل وبالغ رحمته بعباده ، الأمر الذي يدعوهم إلى معرفته وشكره ومحبته ، ومن ثم إلى الانضباط بأوامره التي لا تحمل إليهم في ثناياها إلا الخير ، أنصت إليه وهو يقول ، وتأمل أسلوبه المشرق وبيانه الرشيق الرائع :

« ولنذكر مثالاً واحداً للحِكَم الخفية التي ليست في غاية الخفاء ، حتى تعتبر بها ، وتعلم طريقة الشكر والكفران على النعم ، فنقول : من نعم الله تعالى خلق الدراهم والدنانير ، إذ بهما قوام الدنيا ، وهما حجران لا منفعة في أعيانهما ، ولكن يضطر الخلق إليهما من حيث إن كل إنسان محتاج إلى أعيان كثيرة في مطعمه وملبسه وسائر حاجاته . وقد يعجز عما يحتاج إليه ، ويملك ما يستغني عنه . كمن يملك الزعفران مثلاً وهو محتاج إلى جمل يركبه . ومن يملك الجمل ربما يستغني عنه ويحتاج إلى الزعفران ، فلا بدّ بينهما من معاوضة ، ولا بدّ في مقدار العوض من تقدير . إذ لا يبذل صاحب الجمل جمله بكل مقدار من الزعفران ، ولا مناسبة بين الزعفران والجمل حتى يقال : يعطى منه مثله في الوزن أو الصورة .. وكذا من يشتري داراً بثياب ، أو عبداً بخف ، أو دقيقاً بحمار .. فهذه الأشياء لا تناسب فيها . فلا يدري أن الجمل كم يساوي بالزعفران ، فتتعذر المعاملات جداً . فافتقرت هذه الأعيان المتنافرة المتباعدة إلى متوسط بينها يحكم فيها بحكم عدل فيعرف من كل واحد رتبته ومنزلته . حتى إذا تقررت المنازل وترتبت الرتب ، عُلِمَ بذلك المساوي من غير المساوي . فخلق الله تعالى الدنانير والدراهم حاكمين ومتوسطين بين سائر الأموال ، حتى تقدّر الأموال بهما . فيقال : هذا

الجمل يساوي مئة دينار ، وهذا القدر من الزعفران يساوي مئة ، فهما من حيث إنهما متساويان بشيء واحد إذن متساويان . وإنما أمكن التعديل بالنقدين ، إذ لا غرض يتعلق بأعيانهما . ولو كان في أعيانهما غرض ربما اقتضى خصوص ذلك الغرض في حق صاحب الغرض ترجيحاً ولم يقتض ذلك في حق من لا غرض له فيه ، فلا ينتظم الأمر . فإذن خلقهما الله لتتداولهما الأيدي وليكونا حاكمين بين الأموال بالعدل ، ولحكمة أخرى هي التوسل بهما إلى سائر الأشياء ، لأنهما عزيزان في أنفسهما ولا غرض في أعيانهما ، ونسبتهما إلى سائر الأموال نسبة واحدة . فمن ملكهما فكأنّه ملكَ كل شيء ، لا كمن ملك ثوباً ، فإنه لم يملك إلا الثوب . فلو احتاج إلى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب ، لأن غرضه في دابة مثلاً ، فاحتيج إلى شيء هو في صورته كأنه ليس بشيء ، وهو في معناه كأنه كل الأشياء . والشيء إنما تستوي نسبته إلى المختلفات إذا لم تكن له صورة خاصة يفيدها بخصوصها ، كالمرآة لا لون لها ، وتحكي كل لون . فكذلك النقد ، لا غرض فيه وهو وسيلة إلى كل غرض ، وكالحرف لا معنى له في نفسه وتظهر به المعاني في غيره . فهذه هي الحكمة الثانية . وفيهما أيضاً حِكَمٌ يطول ذكرها .

فكل من عمل فيهما عملاً لا يتفق مع تلك الحِكَم ، بل يخالف الغرض المقصود بها ، فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما . فإذن من كنزهما فقد ظلمهما وأبطل بذلك الحكمة منهما ، وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن يمتنع عليه التصرف والحكم بسببه . لأنه إذا كُنِزَ فقد ضيعت الحِكَمُ منه ولا يحصل الغرض المقصود به . إذ ما خلقت الدراهم والدنانير لزيد خاصة ولا لعمرو خاصة ، لأنه لا غرض للآحاد في أعيانهما ، فإنهما حجران ، وإنما خلقا لتتداولهما الأيدي فيكونا حاكمين بين الناس ، وعلامة لمعرفة المقادير المقومة للمراتب . فأخبر الله تعالى الذين يعجزون عن قراءة الأسطر الإلّهية المكتوبة في صفحات الموجودات بخط إلّهي لا حرف فيه ولا صوت ، ولا يدرك بعين البصر ، بل بعين البصيرة ـ أخبر هؤلاء العاجزين ، بكلام عن طريق رسول الله ، وصّل إليهم بواسطة الحرف والصوت ، المعنى الكوني الذي عجزوا عن إدراكه ، فقال تعالى :

﴿ والذينَ يَكنِزُونَ الذّهبَ والفِضّةَ ولا يُنفِقُونَها في سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرهُم بِعَذابٍ أليمٍ ﴾[١] [التوبة : ٣٤/٩] » .

هل تأملت في هذا الكلام ؟.. هل تتوقع أن تقرأه لباحث عاش في القرن الخامس الهجري بهذا التحليل الاقتصادي والفلسفي ، وبهذا العمق في المضمون وهذا الإشراق في الأسلوب ؟

ثم هل تأملت كيف جعل الغزالي من هذا البيان العلمي المعمق خلال هذا التحليل المفصل ، خادماً لقرار الله ﴿ والذينَ يكنِزُونَ الذهبَ والفضةَ .. ﴾ مترجماً بلسان النظام الكوني لحيثيات هذا الحكم الإلهي ؟..

عد مرة أخرى ، فاقرأ هذا البيان العجيب لعلاقة ما بين المنفعة والنقد في حياة الإنسان ، تجد كيف يخترق حواجز القرون الخوالي إلى هذا العصر ، وكيف يخاطب مثقفي هذا الزمن بلغتهم ويحاورهم طبق مداركهم .

وليس هذا المقطع إلاّ عينة اخترتها .. وبوسعك أن تجد في (الإحياء) فيضاً من البحوث والموضوعات الطريفة ، بل الجديدة ، التي يعالجها الغزالي بمثل هذا العمق في التحليل ، وهذه الإشراقة في البيان ، ثم إنك لَواجد أنه يستخدم ذلك كله لتجلية حقائق هذا الدين ، إن في عقائده أو في تشريعاته ، أمام البصائر ، ويستنطقه ترجماناً لحِكَم الله عز وجل في أحكامه .

وما ضرّ أن فيه كثيراً من الأحاديث التي لم تصح ، بعد أن قيض الله له الحافظ العراقي الذي سدّ فيه هذه الثغرة وأصلح منه هذا الخلل .

☆ ☆ ☆

وبعد ، فهذا هو حجة الإسلام الإمام الغزالي ، مرّ شفقاً وضّاءً في تاريخ المعارف

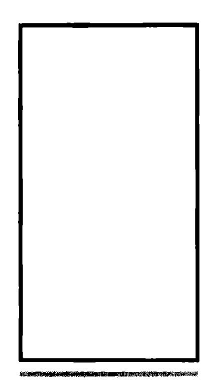
---

(١) إحياء علوم الدين ٩٥/٤ ط مصطفى محمد .

والعلوم الإسلامية ، امتدّ من ورائه ذيل من النور غمر سائر العصور التي خلت إلى عصرنا هذا الذي نعيش فيه !... ولقد تعالى إليه ضباب من الانتقادات الجائرة التي عرضنا لها وأصغينا إليها .

فكانت النتيجة التي شهدتها العصور التسعة التي خلت ، أنْ تبدَّدَ الضبابُ واختفى في تلافيفه أصحابه .. فلا يكاد أحد من الناس اليوم يعرف لهم اسماً أو يحفظ لهم ذكراً ، وامتدّ نور علومه ومؤلفاته وضّاءً مفيداً مؤثراً إلى هذا العصر . وشاء الله عز وجل أن يكون (إحياء علوم الدين) هو البدر المتألق بين النجوم التي نسجت فأرسلت هذا النور .

رحم الله الغزالي ورحم كلاً من محبيه ومنتقديه ، وذلك هو المأمول من كرم الله وفضله .



جلال الدين الرومي

٦٠٤ ـ ٦٧٢ هـ

١٢٠٧ ـ ١٢٧٣ م

استوقفتني من سيرة جلال الدين الرومي الظاهرة التالية :

أخضع الأدب للتصوف ، ثم أخضع صوفيته الأدبية أو أدبه المتصوف لما كان قد تشبع به من علومه ومعارفه الإسلامية ، لا سيا الفقه فقد كان فقيهاً حنفياً متضلعاً ، ثم أخضع الفلسفة الإسلامية لنصرة الشريعة والدفاع عن عقيدة السلف .

بدأ حياته فقيهاً بصيراً بالعقائد الإسلامية ، منافحاً عنها ، يعلّم ويدرّس ويتخرج العلماء والفقهاء على يده . ويبدو أنه تلقى معظم علومه الدينية من والده محمد بن الحسين الخطيبي ، الذي كان ملقباً بسلطان العلماء ، وكانت ولادته ببلخ عام ٦٠٤ هـ المصادف لـ : ١٢٠٧ م[1] .

ولكنه مالبث أن توجه توجهاً جديداً على غير توقع وبدون مقدمات ، فقد تجلت لديه شفافية روحانية أبرزت منه شاعراً أديباً متصوفاً ، دون أن تبرز فيه أي مؤشرات سابقة تدلّ على قابليته أو التفاته إلى شيء من ذلك .

فما هو العامل الكامن وراء هذا التحول المفاجئ ؟

قالوا إن هذا العامل لم يكن أكثر من رجل رباني متصوف ، اسمه شمس الدين التبريزي لقيه في مدينة قونية التي كانت أكثر إقامة جلال الدين الرومي بها ، أعجب

(١) لسنا هنا بصدد سرد سيرته وتاريخ حياته العامة ، وإنما الذي يعنيني هو التركيز على الجانب الذي استوقفني من حياته . وانظر إذا شئت سيرته العامة ، في كتاب (مثنوي جلال الدين الرومي) للدكتور محمد عبد السلام كفافي .

جلال الدين به ورأى فيه المثل الأعلى والإنسان الكامل ، فتعلق بـه واستبقـاه عنـده في قونية قرابة سنتين ، وفي هاتين السنتين تحول جلال الدين إلى إنسان آخر ، وتفجرت في نفسه شاعرية استطاع أن يجعل منها أبرع ترجمان يعبّر عن أشواقـه العلويـة وتـأملاتـه الصوفية وشفافيته الروحية .

والحق أن ميلاد اسم جلال الدين الرومي مشتهراً في آفاق العالم ، إنما كان في هاتين السنتين ، ولـولا هــذا التحــول لمــا كان لهــذا الاسم أي ذكر في الألسن ولا معرفــة في الآذان .

غير أن تحوّله هذا لم يسدل حجـابـاً بينـه وبين دروسـه وأنشطتـه العلميـة ودعوتـه الدينية . بل سرعان ما اتخذ من شـاعريتـه الوافـدة وشفـافيتـه الروحيـة ووجـدانيـاتـه الصوفية ، منبراً متميزاً لأنشطته العلمية ومجالسه الدرسيـة ذاتهـا ، فلم يتخـذ من التصوف سبيل هروب من الحياة ووظائفهـا ورسـالـة الإنسـان فيهـا ، بل جعل من مزيج هـذه الحال الثلاثية التي اعترته : الشاعرية والأدب والتصوف ، ترجماناً إنسانياً جذابـاً لمبـادئ الإسلام المتمثلة في عقائـده وشرائعـه وأخلاقيـاتـه . وتلـك هي المزيـة التي استوقفتني في سيرته كما قلت .

وما أظن إلا أنه كان مخفقاً في تجربته الأولى على طريق التعليم والتوجيـه ، إذ كان يخاطب من تلامذته عقولهم وحدها ، وكانت بضاعته التي يخاطبهم بها حقائق مـدروسـة ونصوصـاً محفوظـة ، والحقـائـق التي تـدلّ عليهـا النصـوص قـد تغني العقـل بمـزيـد من المدارك ، ولكنها لا تبعث في القلب شيئاً من التأثير .

فلما جمعه الله عز وجل بشمس الدين التبريزي ، وكان بينهما من اللقاءات الخـاصـة التي لم يشترك معهما فيها أحد أيّاً كان .. اتقد سراج قلبه بلوعة الحب ، وسرى من تلـك اللوعة شعاع إلى كيانه الفكري والشعوري كله ، وعندئذ بدأ يرى أن بينه وبين حقـائق الكون كلها طريقاً أقصر وأمتع من طريق الفكر والمنطق ، ألا وهو طريق الحب !..

وراح ينظر متأملاً في ماضي أيـامـه ، إذ كان يصـارع ظلمـات الأوهـام والشكوك بقواعـد المنطق ويستجمـع للتغلب عليهـا دقـائـق الأفكار والعلـوم ، فيرى نفسـه أشبـه مـا يكون بـإنسـان أعرج يتوكأ لبلـوغ مقصـده على عصـا تعينـه في التغلب على وعـورة الطريق .. واليوم وقـد شفيت رجلـه التي يمشي بهـا وغـاب عنهـا الألم وعـاودتهـا القـوة بترياق الحب ، ما أغناه عن تلك العصا التي لم تعد لديه حاجة للتوكُّؤِ عليها .

ولما بدأ يتجه إلى مريديه وتلامذته يشرح لهم الحقـائق ذاتهـا ، ويهـديهم إلى مكوِّن المكونات ذاتـه ، ولكن لا بموازين المنطق ومقـاييسـه الفكريـة كما كان يصنع من قبل ، وإنمـا بقبس الحب الـذي اتقـد ثم لم يخْبُ في فؤاده ، التـاعت أفئـدتهم بـالمشـاعر ذاتهـا ، وسرت إليها من وميض كلماته المعجونة بترياق الحب ما نقلهم من وهدة الضياع وأوديـة الضلال خلال أقصر طريق إلى صعيد الهداية والدراية والعرفان .

والعجيب أن جلال الدين الرومي ، بعد أن نقلـه شيخـه شمس الـدين التبريزي ، هذه النقلة السريعة ، راح ينظر إلى الكون كله ، بكل ما فيـه ، بمنظـار الحب ، وأخـذ يترجم ضجيجه وأصداءه إلى أنغام الحب . ثم راح يصوغ من هذه الأنغام حِكماً ومعـارف يستجليها من صور الدنيا ولوحاتها التي تعج بمظاهر الحياة الحيوانية وغيرها ، ثم يقدمهـا مجلوّة للناس في قصـائـده وشعره ، على طريقـة (كليلـة ودمنـة) ، ليقطفوا منهـا ثمـار العظة والعبرة . غير أن الأصباغ التي كان يستخدمها لتلك الصور واللوحات ، إنمـا هي أطياف الحب ، لا مداد القواعد والعلوم .

ولم يكن ذلـك عن جهل منـه بتلـك القواعـد والعلوم ، بـل لأنـه كان قـد مرّ بهـا فخبرها ثم تجاوزها .

إذن فجـلال الـدين الرومي لم يتجـاوز مرحلـة انكبـابـه على المعـارف والعلـوم المتنوعة ، إلى مرحلـة التفـاعل مع لوعتـه الوجـدانيـة ، تجـاوز المخطّئ لنفسـه والمصحح

لمساره ، كما قد يظن بعضهم ، بل كان تجاوزه إلى ذلك من قبيل الوصول إلى مرحلة قطف الثمار ، ثم إلى مرحلة تذوقها طعاماً ناضجاً سائغاً للآكلين .

لقد أتيح لي أن أقرأ من شعره الكثير ، ولا سيما ديوانه (المثنوي)[١] ، فما رأيت فيه إلا ما يدعم ويؤكد الحقائق الدينية والاعتقادية ، التي تقود إليها العلوم والمعارف العقلية والنقلية ، التي يشتغل بها علماء المسلمين ، والتي أمضى جلال الدين ما يقارب نصف عمره الأول ، في دراستها وخدمتها .

كل ما في الأمر أنه أصبح يعيشها ويشعر بها من خلال ذوق ومعاناة .. بعد أن كان يتلمسها من خلال مناظير الأدلة والأقيسة العلمية على البعد .

وإن من حقه (وقد أحسّ بالفرق الكبير بين وصف الشراب المبهج المنعش بموازين البيان وبلاغة التشبيه ، والشعور بلذته ارتشافاً وانسياباً إلى سائر الحواس) أن ينعي على الذين حبسوا أنفسهم في سجون الوصف والكلام ، واتكؤوا على عصيّ الأقيسة والأفكار ، ثم لم يتجاوزوها إلى الارتشاف الفعلي ، ولم يتحرروا من سجن العبارات ليعانقوا ما في دخائلها من أسرار الجمال .

أجل .. من حقه أن يفعل ذلك . ولكنه يعلم أنه لم يصل إلى الشراب الذي ارتشفه عياناً ، وحقيقة ، إلاّ بعد أن أرشَدَتْهُ إلى ينابيعها أصابع تلك المعارف والعلوم ، وإلاّ بعد أن اتكأ في سعيه إليها على عصيّ تلك الأقيسة والحجج العلمية والمنطقية ، ما شاء الله له أن يتكئ .

وهنا تتبيّن لنا وظيفة كل من المعارف والقواعد والأدلة العقلية في حياة المسلم ، الذي يبتغي الوصول إلى معرفة الله ومعرفة حقيقة هذا الكون ، وإلى التصوف

(١) المثنوي واحد من دواوين ثلاثة لجلال الدين الرومي . وكلمة (المثنوي) بالفارسية تعني (المزدوج) بالعربية . والمقصود أن يكون كل بيت من أبيات القصيدة ذا قافية مستقلة . وبذلك تتحرر القصيدة من أسر القافية الواحدة .

العرفاني القائم على التزكية وتطهير الذاتِ .. أولهما طريق طويل موصل لا تخلو حافاته من الأخطار والعوائق ، وثانيهما انتهاء وبلوغ إلى المقصود . فإذا بلغ السالك عن طريق المنطق والعقل والقال والقيل إلى المقصود ، فقد آن له أن يعرض بكليته عن الطريق الذي اجتازه ، ليتفرغ لما هو أمامه من معانقة المقصود ، ولسان حاله يقول : طلع الصباح فأطفئ القنديلا .

إذن ، فلا بدّ من اجتياز طريق العلم طبق أصوله وقواعده . إذ هو المصباح الوحيد الذي يبدد أمام السالك غبش الظلام ، اللهم إلا قلة من الناس حلّقت العناية الإلّهية بهم فوق منعرجات العلوم ومصابيح الأدلة العقلية ، ثم حطّ بهم الجاذب الإلهي عند ينبوع الحقائق الكونية ، ومصدر الأنوار القدسية .

إنهما سبيلان ، لا ثالث لهما إلى الله ... سبيل الإنابة والقصد . وهو يكون بسعي العبد من خلال طرق المجاهدة العلمية والسلوكية إلى الرب ، وسبيل الاجتباء ، وهو يكون بجذب الرب للعبد عندما يشاء أن ينتشله في لحظة واحدة من حضيض التعلق بالأغيار إلى صعيد التوحيد والشهود .

ولما كان العبد يعلم وظيفته التي كلفه الله بها ، ولا يعلم شيئاً عن اجتباء الله الذي هو مخفيّ في غيب الإرادة الإلّهية ، فقد كان عليه أن ينشط لأداء الوظيفة التي كلف بها ، سيراً إلى الله من خلال الطريق الوحيد المفتوح أمامه ، وألا يقعد عن ذلك مُنتظراً النفحات الإلهية الخاصة بمن يجتبيهم الله عز وجل ، ومتوقعاً أن يكون مثل شمس الدين التبريزي وأمثاله .

أما الآن ، فلننظر كيف يتطابق القرار العلمي الذي وصلنا ووصل إليه جلال الدين الرومي ، عن طريق الأدلة والحجاج ، مع الشهود الوجداني الذي انتهى إليه أخيراً جلال الدين عن طريق التزكية والمعاناة القلبية . وها نحن نعرض لذلك طائفة من الأمثلة .

المثال الأول : يقرر العلماء أخذاً من دلائل كتاب الله عز وجل أن الروح الإنسانية هابطة إلى كيان الإنسان من الملأ الأعلى ، وأنها وثيقة الصلة بخالقها وبارئها عز وجل .. ومن ثم فإن روح الإنسان تختلف في الجوهر والهيولى ، عن روح سائر الحيوانات الأخرى . ومن ثم فإن العلماء يقررون أن هذه الروح الحبيسة في الجسد الإنساني تظل نزاعة إلى عالمها الذي أهبطت منه ، بالشوق والحنين . وهي لا تحب إلاّ الذات الذي كانت تسعد بشهوده والقرب منه . ثم حجبت بهذا الجسم الترابيّ عنه .

غير أن الغرائز الحيوانية المثبتة في كيان الإنسان ، من شأنها أن تصادر أشواق الروح وحنينها إلى عالمها العلوي ، فتترجمها وتسخرّها لحسابها ، وتوجهها نشيداً غريزياً هابطاً إلى الصور والأشكال والأهواء .

وها نحن نقرأ هذا القرار العلمي ذاته ، الذي أكده أمثال الغزالي وابن سينا وابن القيم بالأدلة والحجاج ، نقرؤه في أحد مثنويات جلال الدين الرومي ، لا بتلك الأدلة العقلية ، ولكن من خلال مشاعره الوجدانية ، بل من خلال حنينه الروحي الصادق الذي استعار ، للتعبير عن أشجانه وأشواقه ، لغة الناي . فلنصغ إلى حنين الروح عندما يترجمه نواح الناي :

ـ استمع إلى الناي كيف يقص حكايته .. إنه يشكو آلام الفراق . يقول :

ـ إنني منذ قُطعتُ من منبت الغاب ، والناس ، رجالاً ونساء يبكون لبكائي .

ـ إنني أنشد صدراً مزّقه الفراق ، حتى أشرح له ألم الاشتياق !..

ـ فكل إنسان أقام بعيداً عن أصله ، يظل يبحث عن زمان وصله .

ـ لقد أصبحت في كل مجتمع نائحاً . وصرت قريناً للبائسين والسعداء .

ـ وقد ظن كل إنسان أنه قد أصبح لي رفيقاً . ولكن أحداً لم ينقّب عما كمن في باطني من الأسرار .

ـ وليس سري ببعيد عن نواحي .. ولكن أنّى لعينٍ ذلك النور ، أو لأذن ذلك السمع الذي به تدرك الأسرار !..

ـ وليس الجسم بمستور عن الروح .. ولا الروح بمستور عن الجسم .. ولكن رؤية الروح لم يؤذن بها لإنسان .

ـ إن صوت الناي هذا ، نارٌ ، لا هواء .. فلا كان من لم تضطرم في قلبه مثل هذه النار .

ـ إن الناي نديم لكل من فرقه الدهر عن حبيب . وإن أنغامه قد مزقت ما يغشّي أبصارنا من حجب !..

ـ إن الناي يروي لنا حديث الطريق الذي ملأته الدماء ويقصّ علينا قصص عشق المجنون »[1] .

ولكي نتبين المزيد من دلائل التلازم بين ما تثمره البراهين العلمية المجردة ، وما قد يصل إليه السالك عن طريق الذوق أو المعاناة الوجدانية ، نتذكر الحقيقة التالية :

وهي أن الذي تشبع بمعنى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيتُهُ ونفختُ فيهِ من رُوحي فقَعُوا لهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٢٩/١٥ و ص ٧٢/٣٨] ثم أصغى بعقله إلى ما يقوله العلماء المسلمون عن أصل الروح في الإنسان ، والمصدر الذي أتت منه ، فإنه يصغي إلى هذه الأبيات التي قالها مولانا جلال الدين ، بكل إذعان وتأثر .

أما من لم يسبق له أي دراية علمية بهذه المسألة ، ولم يقف على أي بحث فكري بصددها ، فإنه إنما يطرب لهذه الأبيات التي أصغينا إليها الآن ، لما تضمنته من جمال التشبيه وروعة التخيل ، واستنطاق الجماد بما يشبه أن يكون ترجمة لرقة صوته وعذوبة

---

(١) ترجمها عن الفارسية الدكتور محمد عبد السلام كفافي . وانظر (مثنوي جلال الدين الرومي) للدكتور كفافي ٧٣ .

شجوه .. أما أن يصدّق هذا الذي يهدف إليه جلال الدين من وراء ذلك ، من أصل الروح ومصدرها ، فهيهات !..

إذن فالدراية العلمية طريق لا بدّ منه لبلوغ هذا الصفاء الوجداني الذي قد يغني أخيراً عن العلم .

☆ ☆ ☆

مثال ثان : إن الذين وقفوا على معنى قول الله تعالى : ﴿ قَد جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وكتابٌ مبينٌ ، يَهدِي بِهِ اللهُ من اتَّبَعَ رضوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ ويخرجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النورِ بإذنِهِ .. ﴾ [المائدة : ١٥/٥ ـ ١٦] وأصغوا إلى ما قاله العلماء في بيان معنى النور هنا ، أدركوا أن الله عز وجل كما جعل وجود النور المكافئ لطاقة البصر شرطاً لا بدّ منه لعملية الإبصار ورؤية الأشياء على حقيقتها ، كذلك جعل وجود نور مكافئ لطاقة البصيرة ، أي العقل ، شرطاً لإدراك العقل أشياءه الذهنية المجردة التي يسعى إلى إدراكها .

وإذا كان النور المكافئ للعين الباصرة ، هو ضياء الشمس ، فإن النور المكافئ للعقل المدرك ، هو ضياء الوحي الرباني ، بمعناه الاصطلاحي الخاص الذي يكرم الله به الرسل والأنبياء ، وبمعناه العام الذي يتنزل إلهاماً على أفئدة من أحب الله من عباده ، فبه يستنير العقل ، ويدرك الحقائق الخفية على وجهها .

ومن حرم من إشراقة هذا النور الرباني في فؤاده ، فلن تغني عنه حدّة العقل ولا سمو عبقريته شروى نقير . وصدق الله القائل : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ من نُورٍ ﴾ [النور : ٤٠/٢٤] .

وها هو ذا جلال الدين الرومي ، يقرر الحقيقة ذاتها ، ولكنه يتبينها ويقررها من خلال مشكاة شعره وشعوره وشفافيته الروحية . فهو يقول :

« ـ إن الروح ظاهرة قريبة منا ، لكنها غائبة عن أعيننا . مثلها كمثل الجوف يملؤه الماء ، على حين الشفتان جافتان كحلق الإبريق .

ـ كيف ترى الأحمر والأخضر والوردي ، إذا لم تر النور قبل هذه الألوان ؟

ـ أما وقد ضاع عقلك في الألوان ، فقد أصبحت هذه الألوان حجاباً لك عن النور !..

ـ ولما كانت هذه الألوان تحتجب عنك في الظلام ، فقد علمت كيف أن إبصارك للألوان كان مستمداً من النور .

ـ والنور الخارجي يجيء من الشمس وضيائها ، غير أن النور الباطني يأتي من انعكاس الأنوار العليا .

ـ والنور الذي في العين ليس إلا أثراً من نور القلب .

ـ وأما النور الذي في القلب فهو من نور الله » .

☆ ☆ ☆

ويتحدث جلال الدين الرومي عن أفعال الإنسان ويؤكد أن خالقها هو الله ، دون أن يخدش ذلك في حرية الإنسان واختياره ، ويقرر هذه الحقيقة تقرير إنسان عليم ، ولكن من خلال شعره العرفاني والوجداني ، وكأنه يلقي على سمعك محاضرة علمية دقيقة في هذا الموضوع . فأنت لا تدري : أهو في حديثه هذا يخاطبك من خلال شخصيته العلمية والعقلانية المستندة إلى مقاييس المنطق والبراهين ، أم يخاطبك من خلال شخصيته الوجدانية المستندة إلى مشاعر الروح وأشواقها المتضرمة إلى الله عز وجل .

إن شاعرنا الحكيم ، ينبهنا إلى أن الثواب والعقاب ليسا على ما يصدر عن الإنسان

بخلق الله وقدرته من أفعال الخير والشر ، وإنما الثواب والعقاب على القصد الذي هو مستقر وثابت في النفس ، وهو ما سماه القرآن بالكسب .. وأعلن أكثر من مرة أنه مصدر الثواب والعقاب ، وذلك في مثل قوله تعالى : ﴿ لها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا ما اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة : ٢٨٦/٢] .

ثم إنه ينبهنا ، تماماً كما يقرر العلماء ، إلى أن الكسب الذي هو قصد الإنسان إلى فعل الخير أو الشر ، هبة منحها الله للإنسان وتفضل بها عليه . فأصبح بذلك صاحب قدرة على أن يمارس حريته في التوجه بعزمه على فعل كل من الخير والشر . وليس فينا من لا يشعر بهذه المزية التي متعنا الله بها .

فإن أنكر منكر هذه المنحة الإلهية التي يتمتع بها الإنسان ، وزعم أنه كما لا يملك فعله الذي هو بخلق الله ، كذلك لا يملك اختياره الذي هو أيضاً بخلق الله ، أسكته شاعرنا المتحرق بالمثال الذي يذكره علماء التوحيد والكلام لردّ هذا الوهم ، ألا وهو بيان الفرق الواضح الذي يحسّه كل منا بين اليد التي تهتز من الارتعاش واليد التي تهزها بقصدٍ منك وبعزمٍ على ذلك . ويزيد هذا الفرق وضوحاً فيقول :

« إنك قد تندم لأنك قد هززت يدك ، ولكن هل يتأتى للمرتعش أن يندم على ارتعاشه » ؟

ويفرض جلال الدين الرومي هنا عناد الباحث المجادل ، عندما لا يجد أمامه إلا ضياء البراهين والحجج المنطقية ، ومن ثم فهو لا يملك أن يستعين بشيء آخر من ورائها ، فيدعوه ذلك إلى أن يرفض الاستجابة لحكم الله وأمره ، بدعوى أن كل شيء من الله ، حتى الحركة الإرادية وحركة الارتعاش .

وعندئذ يلفت جلال الدين الرومي هذا المعاند إلى قرار الروح الذي هو أجلّ وأسمى من قرار العقل وحكمه . وهل يأخذ العقل ضياءه إلا من الروح وما قد أودع

فيها من الأسرار ؟ ومن ظل متكئاً على عصا العقل دون أن يتجاوزه إلى ينابيع الروح وأناشيدها العلوية المنبعثة من كيانه ، عاش سجين أحكام سطحية قائمة على الوهم .

تأمل في كلامه إذ يقول :

« ـ إن البحث العقلي ، ولو كان درّاً ومرجاناً ، لا يسمو إلى درجة البحث الروحي .

ـ إن البحث الروحي له مقام آخر ، وخمرة الروح لها قوم آخرون .

ـ عندما كان البحث العقلي هو وحده الحاكم ، كان عمر صفياً لأبي الحكم .

ـ ولكن عندما انطلق عمر من العقل إلى الروح ، تجلّى له في شخص أبي الحكم معنى كونه أبا جهل !..

ـ فلتعلم أن قرار العقل والحسّ متصل بالأثر والسبب ، وأما قرار الروح فمتصل بمصدر العجب .

ـ ولقد أشرق ضياء الروح أيها المستضيء ، فلم يعد هناك لازم وملزوم ، لم يعد هناك نافٍ ومقتض !..

ـ إن المبصر الذي بزغ أمامه نور الله ، هو أبعد ما يكون عن الحاجة إلى دليل العصا !..

☆ ☆ ☆

وكم وقف علماء الظاهر ، أعني علماء المقاييس المنطقية وحدها ، أمام قول الله عز وجل : ﴿ وهُوَ مَعَكُم أينَمَا كُنتُم ﴾ [الحديد : ٥٧/٤] فلم يستطيعوا ببحوثهم أن يفهموا جاهلاً أو يقنعوا مناقشاً .

ولكن فلننظر كيف كشف جلال الدين الرومي عن مكنون معنى الآية ، من خلال إصغائه إلى حديث الروح ، ثم ترجمته لهذا الحديث في الأبيات التالية :

« ـ ها نحن أولاء قد عدنا إلى القصة مرة أخرى .. ومتى كنا قد خرجنا من تلك القصة ؟

ـ إننا لو أتينا إلى الجهل ، فهذا سجنه (الضمير راجع إلى الله) ولو جئنا إلى العلم فهذا إيوانه . وإذا استسلمنا للكرى فإنا سكارى به ، وإذا صحونا فإنا يده .

ـ وإذا بكينا فإنا سحابه المحمل بالرزق ، وإذا ضحكنا فإنا حينئذ برقه .

ـ ونحن في الغضب والحرب صدى لقهره ، ونحن حين الصفح والصلح صدى لحبه .

ـ فمن نحن في هذا العالم المعقد ؟ إننا كالألِفْ . فماذا تملك الألفُ من الحركة ؟ لا شيء !..

إنها إذن ليست معية قرب وبعد أو مكان محدد ، ولكنها معية المؤثر مع المتأثر ، والفاعل بالمنفعل ، وهي المعية التي عبّر عنها قول الله عز وجل : ﴿ وَمِن آيَاتِهِ أن تَقُومَ السَّمَاءُ والأَرضُ بأَمرِهِ ﴾ [الروم : ٣٠/٢٥] .

ومعاذ الله أن تكون هذه المعية بهذا المعنى الذي فهمه جلال الدين الرومي ، بعقله العلمي ثم بوجدانه الروحي ، تعبيراً عن وحدة الوجود التي كان شديد التحذير منها ، والتي لا يمكن أن يقول بها عاقل عرف الله وآمن به وأيقن بما قد وصف به ذاته من صفة الخلق والإبداع .

☆ ☆ ☆

ثم إن من مظاهر قصور العقل عندما يكون هو وحده السند والمعتمد ، أنه يقف عاجزاً أو حائراً أمام الخوارق التي لم يألفها العقل ، ومهما استسلم لخبر الصادق المصدوق جلّ جلاله ، فإنه لا يستطيع أن يزيل الوحشة التي تتلبس بها النفس تجاهها ، ولا يستطيع من باب أولى أن يحيل هذه الوحشة النفسية إلى أنس وانسجام معها .

إننا نقرأ قصة أصحاب الأخدود في سورة البروج ، ونقف على تفصيلها فيا يقوله المفسرون . ونقف عند حديث الطفل الصغير لأمه ، التي راودوها أن تسجد للصنم ، وتكفر برب الغلام ، أو يلقى بها في النار ، ونصغي إليه وهو يشجع أمه أن تلقي بنفسها في النار ، ويؤكد لها أنها لن تجد منها ، بعد وقوعها فيها ، إلا برداً وسلاماً .. إننا نصدق بحكم العقل ما يقوله هذا الطفل الذي استنطقته قدرة الله وهو في المهد ، ولكن هيهات للعقل أن يقوى وحده على انتزاع الوحشة من النفس تجاه هذا الذي يُطلب من الأم ، أي إن العقل بوسعه أن يوجد الإدراك ويزيل الريبة والشك ، أما النفس فتبقى متأثرة بما هو مألوف ومعروف ، خائفة من النتائج والعواقب .

شيء واحد يملك أن يحيل وحشة النفس من هذا الأمر إلى طمأنينة وأنس ، هو تفاعل الروح المهتاجة شوقاً إلى ربها ، والمستيقنة بوعده وخوارق إكرامه . ويقين الروح ، بكل تأكيد ، أسمى وأرسخ من يقين العقل .. وإنما يأتي يقين الروح من رحلة طويلة على طريق التزكية وصقل النفس بمشاعر الحب والشوق والإجلال .

فإن كنت في شك من هذا الذي أذكره لك . فتعال فاسمع منطق الحب في رسم أحداث هذه القصة ، واسمع حديث الطفل لأمه فيا يفقهه شجو الروح المؤمنة بربها المتجهة إليه بالحنين والشوق ، لا فيا يقرع الآذان ثم يستقر في الإدراك .

اِصغ إلى جلال الدين الرومي يقول :

ـ أحضر الطاغية امرأة مع طفلها أمام ذلك الصنم .. كانت النار مضطرمة .

ـ أُخِذَ الطفل منها وألقي به في النار !.. تمزق قلب المرأة إشفاقاً وخوفاً . وأرادت أن تسجد أمام الصنم .

ـ لكن الطفل صاح : إني لم أمت فإني بخير ، وإن كان ظاهري أنني وسط النار .. ! إن هذه النار حجاب للعين يمنع عنها الرؤية . فها هي ذي رحمة الله قد أطلّت من الخفاء .

ـ تعالي يا أماه ، وانظري برهان الحق . انظري لتشاهدي سعادة أصفياء الحق ..

ـ تعالي ، وانظري الماء الذي يتبدّى لك ناراً . ودعي هذا العالم ، الذي هو نار تبدو كأنها ماء !..

ـ تعالي وانظري أسرار إبراهيم الذي وجد في النار السرو والياسمين . لقد رأيت الموت ساعة مولدي منك . وكان خوفي عظيماً إذ كنت أنفصل عنك .

ـ وعندما ولدت ، خلصتُ من حبس ضيق إلى عالم طيب الهواء جميل الألوان .

ـ أما الآن فأرى العالم مثل الرحم الذي كنت فيه ، بعد إذ رأيت في النار هذه السكينة والسعة .

ـ تعالي يا أمي بحق الأمومة ، وانظري كيف أن هذه النار لا نارية فيها .

ـ لقد رأيتِ قدرة ذلك الكلب .. فتعالي وانظري قدرة لطف الله !..

ـ أقبلي ، وليقبل الآخرون معك . فإن الملك الحق قد أقام في النار الخوان .

ـ كان الطفل يصيح على تلك الوتيرة ، وسط الجمع ، فامتلأت قلوب الناس من ذلك رهبة وخوفاً . وأخذ الخلق من رجال ونساء يلقون بأنفسهم في النار .

ـ لم يكن ثمة مَلَكٌ يدفعهم .. وإنما هو عشق الحبيب ، ذاك الذي يجعل كل مر حلو المذاق .

ـ واسود من الخجل وجه الملك الطاغية ، واعتراه من جراء ذلك اعتلال القلب ..

ـ فقد أصبح الخلق بالإيمان أكثر عشقاً ، وصار عزمهم على إفناء الجسم أكثر صدقاً .

إن هذا الحديث الذي يرويه جلال الدين الرومي على لسان الطفل ، ليس افتئاتاً على واقع ولا افتراءً على الحقيقة .. إنه ينقل بدقة حديث المشاعر بين واقع

الطفل وهو في النار ، وحال أمه وهي تتلقى في تلك الساعة ألطاف الله !. غير أن حديث هذه المشاعر لا ترصده الآذان ، ولا تقوى على نقله الكلمات والحروف . وإنما هو حديث الروح للروح عندما يتجه كل منهما إلى مصدره الأسنى بالمعرفة أولاً والحب والحنين ثانياً .

ولو لم يكن حديث الروح هذا على لسان الطفل صحيحاً ودقيقاً ، لما سرى أي تأثير إلى مشاعر الحاضرين الذين وُضِعُوا بين خياري اقتحام النار ، أو السجود للصنم والرجوع عن الإيمان بالله .. ولما دفعهم ذلك التأثر إلى أن يتزاحموا على النار ، فيبردوا لظى شوقهم إلى الله باقتحامها .

إن اليقين العقلي وحده أقل وأضعف من أن يحمل صاحبه على التحرر من أسر النفس وأهوائها ومخاوفها ، وعلى التحرر من سلطان المألوف من سنن الكون والحياة .. وما من شك في أن الذين تحرروا من ذلك الأسر كله ، إنما حررتهم مشاعر اللوعة والحب التي ترجمها ، بل ترجم جزءاً يسيراً منها جلال الدين الرومي على لسان هذا الطفل في حواره لأمه .

ولو لم يكن جلال الدين قد ارتشف ثم ارتشف من خمرة الحب الذي يتجاوز بصاحبه رسوم القواعد والحجج والكلمات ، إلى صعيد اللوعة والشهود ، لما وجد سبيلاً إلى ترجمة مشاعر هذا الطفل التي ألهبت مشاعر أمه ، ثم ألهبت مشاعر كل تلك الجموع التي كانت من حولها .

والآن ، تعالَ في ختام هذه الطوفة ، نصغي إلى جلال الدين الرومي ، وهو يتحدث عن حنين الجذع يوم أقصاه رسول الله إلى طرف المسجد ، واستبدل به المنبر الذي أقيم له في مكانه[1] ، ويترجم حنينه هذا إلى كلمات لا ترصدها الآذان ولا تحويها

(١) حديث حنين الجذع رواه البخاري في صحيحه ، في كتاب (صلاة الجمعة) باب : الخطبة على المنبر . من حديث جابر .

لغتنا الضيقة هذه ، وإنما ترصدها وتعيها الروح التي رقّت وصفت واستبدت بها لوعة الحب .

إن جلال الدين الرومي يلفت نظرنا من خلال حديثه عنه وترجمته له ، إلى أن هذا الجذع الخشبي الجامد ، لم يحتج لكي يفيض كيانه حنيناً وشوقاً إلى رسول الله ، إلى عقل يتمتع به ، وعلوم يتأمل في موازينها ومقاييسها .. فلقد أغناه عن ذلك كله ، السر العجيبُ الذي كان يسري في كل ذرة منه ، ليهمس بالنشيد الرباني القائل : ﴿ وإن مِّن شَيْءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُم ﴾ [الإسراء : ١٧/٤٤] ، ثم ليقول لنا بعد ذلك : وأنت أيها الإنسان الذي صاغك الله على عينه ، وأقام فيك أسرار ملكوته ، وميزك بالقلب النابض ، كيف ترضى أن يكون ذلك الجذع أرقّ منك شعوراً ، وأسمى منك تحناناً إلى حبيبك المصطفى عليه الصلاة والسلام .

فاستمع إلى ما يقوله الجذع ، وتأمل حرقة قلبه ـ وللجذع قلب إن كنت لا تعلم ذلك ـ المنبعثة من هذه الكلمات :

ـ لقد كان الجذع الحنان ينوح ، من جراء هجر الرسول ، كأنه من أصحاب العقول .

ـ قال له الرسول : ماذا تريد أيها الجذع ؟

ـ قال الجذع : إن روحي قد أصبحت بفراقك دماً .

ـ لقد كنت مستنداً لك ، فتخليت عني ، واتخذت لك مستنداً فوق رأس المنبر .

ـ قال له الرسول : أتود أن تصبح نخلة سحوقاً يجتني منها الشرقي والغربي الثمار ؟ أم تريد أن تغدو في هذا العالم سرواً يُغْرَسُ في أعلى رابية ويبقى ريان نضراً ؟

ـ قال الجذع : إنني أبتغي ما يدوم له البقاء .. أبتغي القرب منك ..

ـ ألا فلتستمع إلى ذلك أيها الغافل ، ولا تكن أقلّ إدراكاً من هذه الخشبة .

ـ ولقد دفن رسول الله ذلك الجذع عند منبره تحت التراب ليحشر مع الناس يوم القيامة .

ـ إن كل من كان له مع الله عمل وشأن ، يجد إلى ذلك المصير سبيلاً من عالم الروح .. أما من لم يكن ذا حظ من الأسرار ، فأنى له أن يصدق نوح الجماد ؟

ـ ولو لم يكن في الدنيا من هم واقفون على أمر ﴿ كن ﴾ لكان هذا الكلام مردوداً .

ـ إن الاستدلاليين يسعون على ساق خشبية . والساق الخشبية متعثرة واهية .

ـ والعصا ، هي ساق الأعمى . وهي معه حتى لا يتعثر بالحصا فينقلب على رأسه . والأعمى وإن أبصر الطريق بالعصا ، فإنما هو في رعاية الناس المبصرين[1] .

☆ ☆ ☆

هذا ، ولا يبعد أن في القراء من يتساءل فيقول : هل يمكن العثور على هذا النهج في التعامل مع حقائق الإسلام : عقائده وأحكامه وآدابه ، في حياة رسول الله ﷺ وأصحابه ، أو حياة السلف الصالح ، رضوان الله عليهم أجمعين ؟

والجواب هو أن هذا الذي وضعته بين يدي القارئ من سيرة جلال الدين الرومي وحياته الوجدانية التي أفرزت هذه النتائج والمواقف ، إنما هو حال تعتري المشاعر والوجدان ، وليس نهجاً فكرياً أو أسلوباً علمياً تنطق به الألسن أو تدبجه الأقلام . لذا فإن من الخطأ البين أن تبحث عن هذه الحال التي انتهى إليها جلال الدين وأمثاله ، في كلمات علمية دونها الصحابة أو من بعدهم من رجال السلف .. ولو ترجمت هذه الحال الوجدانية إلى كلمات تعبر عن أصول وقواعد منهجية يخاطب بها العقل والفكر ، إذن

(١) انظر تتمة هذه القصيدة المترجمة في (مثنوي جلال الدين الرومي) للدكتور محمد عبد السلام كفافي ص ٢٧٢ وما بعدها .

لعادت هي الأخرى واحدة من العصيّ التي ينعى جلال الدين الرومي على كثير من الناس الاستمرار في الاعتماد عليها وحدها .

ولكن إن أردت أن تتجاوز ديباجات الألفاظ والبيانات النظرية ، التي كثيراً ماتكون طلاء يجمّل به اللسان أو يزهـا به الفكر وصاحبه بين الناس ، إلى الحال الصامتة التي تتلبس المشاعر فتقودها إلى صعيد الشهود ، وتقف بها على مورد الحب وأصله . فلتعلم أن رسول الله ﷺ هو إمام هذه الصفوة من الناس ، وأن أصحابه رضوان الله عليهم كانوا أول وأصدق قدوة له في ذلك .

إنّ ليالي التعبد في حياة رسول الله ﷺ كانت من مفرزات هذه الحال .. وإن حديث : « إنه ليغان على صدري فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة » من مفرزات هذه الحال .. وإن نداء الحب الذي توجه به إلى السماء قائلاً : « اللهم بالرفيق الأعلى .. » إنما هو من مفرزات هذه الحال ...

وإن استهانة الصحابة بالدنيا ، وتسابقهم إلى فنون التضحيات ، واستخفافهم بأشدّ الشدائد ، وتزاحمهم على موارد الموت ، حيث يشمون رائحة الجنة من قريب أو بعيد .. ليس إلا من مفرزات هذه الحال ..

أجل ، فمن هو الذي يجهل أن ابتسامة السعادة ، بل النشوة والرضا التي لم تفارق وجه عمران بن حصين خلال ثلاثين عاماً من مرضه الذي أحاله إلى كتلة عظام في كيس من جلد متغضن ، إنما كانت من ثمرات هذه الحال ؟ ومن الذي يجهل أن مناجاة معاذ بن جبل لربه ، وهو يتقلب في سكرات الموت ، قائلاً : « أي رب ، اخنقني خنقاتك ، فوحقك إنك لتعلم أن قلبي يحبك » ليس إلا من نتائج هذه الحال ؟.. ومن الذي يجهل أن معانقة عليّ كرم الله وجهه لظلمات الليالي راكعاً ساجداً ، ثم باكياً يخاطب الدنيا فيقول : أي دنيا إليك عني .. غرّي غيري ، إليَّ تعرضتِ أم إليّ قصدت ، طلقتك ثلاثاً بتتُّك ثلاثاً . عمرك قصير ، وخطرك يسير . آه من قلة الزاد وطول

الطريق ، أقول : من الذي يجهل أن هذا الشأن الذي كان ديدنه دائماً إنما هو من ثمرات هذه الحال ؟..

وهل في العقلاء من يصدق أن هذه الاستهانة العجيبة بالدنيا وشدائدها ، والتي ضرب الصحابة في سيرتهم أروع الأمثلة لها ، إنما كانت ثمرة معارف وقواعد منطقية وفكرية فقط حشيت بها عقولهم ؟!..

بل من الذي قال : إن عصر الصحابة كان عصر اهتمام بهذه القواعد وتفنن في هضمها وتكرارها وتجميل الألسن والمجالس بها ؟.. لقد كان منطلق سيرهم إلى الله تجاوز مرحلة أساسية من العلم ، عبّدتها فطرتهم السليمة ، ويسّرت اجتيازهم لها أفكارهم الصافية عن شوائب الشبهات والفلسفات الجانحة ، ثم إنها أسلمتهم إلى المرحلة الأشق ، ألا وهي مرحلة تخلية القلب من التعلق بالأغيار ، ثم الاتجاه به ـ حباً ومهابة وتعظيماً ـ إلى الله الواحد القهار .. وتلك هي الحال التي يلحّ جلال الدين الرومي على الناس كلهم أن يتجاوزوا مرحلة الاتكاء على عصيّ المنطق والبراهين الوافدة إليهم من الخارج ، وأن ينتهوا إلى مرحلة الاعتماد على قبس الحب الذي ينبثق من الداخل صاعداً إلى العالم العلوي في الخارج .

إن العالم كان ولا يزال مليئاً بالناس الذين أثقلت عقولهم المعارف والعلوم ، وموازين المنطق والحجاج ، ولكن أثقال علومهم هذه زجّت بهم في مزيد من التيه ، وأسدلت على ما بينهم وبين أسرار الكون وحقائقه ، مزيداً من الحجب الكثيفة . إذ حرموا من النور الرباني الذي لا يشعّ إلاّ من داخل قلب ، تعرَّضَ فطال تعرضه ، لنفحات اللطف الإلهي وتجليات ذي الرحمة الواسعة ، ذاك الذي بيده وَحده الخلقُ والأمر . وصدق الله القائل :

﴿ وَمَن لَم يَجعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَالَهُ مِن نُورٍ ﴾ [النور : ٢٤/٤٠] .

☆ ☆ ☆

والآن ، دعني يا قارئي أختم مجلسنا هذا عن جلال الدين الرومي ، ببعض أحاديثه الكثيرة عن الحب !.. فلقد كان الحب هو سرّ توفيق الله لي .. ولقد كان الحب هو السّر الجاذب الذي سرى في حديثي المقروء وكلامي المكتوب ، فكان له في أفئدة الناس التفاتة متميزة . **ولو كان الزخم العلمي في كلامي هو السر ، إذن لكانت رتبتي في** إقبال الناس إليّ متأخرة عن رتبة كثير ممن هم أرسخ مني قدماً في العلم وفنونه ..

لقد شاء الله لي أن أسير خلال رحلتي العلمية والفكرية في دنيا الناس هذه ، في طريق محفوف بلوحات الجمال المرئية والمسموعة ، عن يمين وشمال .. ولكم ذاب قلبي منذ نعومة أظفاري في وهج ما كانت تتقد به تلك اللوحات من نور ونار !..

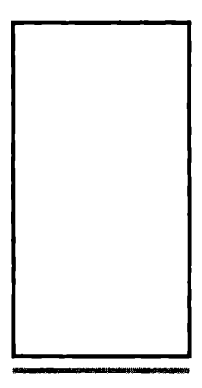
غير أني لم أحبس نفسي ولا عينيّ أو أذني ، أمام أيّ من تلك المناظر والصور ، ولم أتوقف ، رغم افتتاني بكل ما أسمع وأرى ، عن متابعة المسير . فلقد كنت ولا أزال أسمع نداء يصيح بي من أعماق كياني : تابع السّير ولا تتشاغل بما ترى ، فإن مصدر الجمال وسرَّ كل ما تراه عيناك أو تسمعه أذناك ، ماثل أمامك ، ليس بينك وبينه إلا حجاب المسافة .. فاخترقها بالمسير نحو ما هو أمامك ، ولا تقطع نفسك عن مواصلة الرحلة بالسير في متاهات السبل المتعرجة عن يمينك أو عن شمالك .

وها أنا ـ ولا أزال سائراً على متن هذا الطريق ـ أرى بوارق الجمال الحق أمامي تلوح لعينيَّ على البعد ، وأملي بالله عز وجل مزدهر وكبير أن لا تقطعني عوارض الأحلام الوردية الزائفة عن متابعة السير إلى المنتهى . بل إن رجائي من الله عز وجل أن لا يريني في صور الجمال المتنوعة الكثيرة التي تتألق من حولي إلا جمال ذاته ، وأن لا يجعل قلبي إلا وعاء لحبه .

إذن ، تعال نختم مجلسنا مع جلال الدين الرومي قدس الله روحه بالإصغاء إلى أنشودته التالية :

- إن الروح التي ليس شعارها الحب الحقيقي ، من الخير أن لا توجد .
- فليس وجودها سوى عار !..
- كن ثملاً بالحب . فإن الوجود كله أنشودة حب .
- وبدون التعامل مع الحب لا سبيل إلى الحبيب .
- يقولون ما الحب ؟ قل لهم إنه ترك الإرادة .
- ومن لم يتخلص من إرادته ، فلا إرادة له .
- إلى متى تعانق المحبوب الميت ؟
- عانق الروح ، وإن كانت لا حدود لها .
- إن الأزهار التي تولد في الربيع تموت في الخريف .
- وبستان المحبة لا انقضاء لربيعه .

رحم الله مولانا جلال الدين الرومي الذي توفي في مدينة قونية عند غروب الشمس في الخامس من جمادى الثانية عام ٦٧٢ هـ . رحمه الله ويسر لنا سبيلاً إلى الارتباط به دون حاجة إلى عصيّ الاستدلالات العقلية والبراهين المنطقية التي قد تحجب صاحبها عن نور الهداية والعرفان .



بديع الزمان سعيد النورسي

تجربة عمله السياسي

في مجال الدعوة الإسلامية

١٢٩٣ هـ ـ ١٣٧٩ هـ

١٨٧٣ م ـ ١٩٦٠ م

مقدمة

يعود اهتمامي ببديع الزمان (سعيد النورسي) إلى عام ١٩٦١ ، عندما وقع في يدي لأول مرة مخطوط كبير باللغة التركية ، يتضمن سيرة بديع الزمان وبيان مراحل حياته .. استهواني هذا الكتاب ، ورأيتني أعيش فيه مع سيرة إنسان فريد من نوعه .. فريد في نشأته ودراسته .. فريد في عبقريته وذكائه .. فريد في جرأته النادرة في الدعوة إلى الحق والدفاع عنه .. فريد في تحمل ألوان الأذى والصبر على الشدائد وشظف العيش .. فريد في مرافعاته مدافعاً عن الحق وعن نفسه أمام سلسلة المحاكات الطاغوتية الجائرة .. ثم فريد في ربّانيته وعباداته ووجدانياته التي امتزج فيها العلم الغزير بألوان التبتل وأخذ النفس بالأذكار والأوراد والمراقبة الدائمة !..

ولم يشف غلّتي أن أقرأ الكتاب إلى آخره ، متأثراً منه بالمشهد تلو المشهد ، بل رأيتني مندفعاً إلى أن أترجم سلسلة هذه المشاهد الأخاذة إلى اللغة العربية ، ليشترك مجتمع بلادنا العربية معي في التأثر بسيرة هذا الإنسان وأخذ العبرة ، بل العبر الكثيرة من حياته .

غير أن ظروفي الدراسية ، وكنت آنذاك معيداً في كلية الشريعة من جامعة دمشق ، لم تكن تسمح لي بالوقت الذي لا بدّ منه لترجمة تلك المخطوطة من أولها إلى آخرها ، وهي تبلغ زهاء ست مئة صفحة . فعمدت إلى ترجمة خلاصة ما قد ورد فيها من سيرة هذا الإنسان العظيم ، مركزاً على محاكاته ودفاعاته .. مقتدياً بالمبدأ القائل : (ما لا يدرك كله ، لا يترك كله) .

ونشرت هذه الترجمة ضمن سلسلة مقالات ، في مجلة (حضارة الإسلام) التي كانت تصدر في دمشق آنذاك ، ثم إني ضمنتها آخر كتابي الذي صدر عام ١٩٦٦ (من الفكر والقلب) .

أعتقد أن الله عز وجل تفضل عليّ فسخّرني لأكون أول من يعرف العالم العربي بالداعية العبقري الكبير سعيد النورسي ، من خلال هذه الترجمة الأولى لحياته ، وعرض فقرات مؤثرة من كلامه ، الذي كان يهدر به أمام المحاكم ، التي كان يساق إليها واحدة إثر أخرى .

ثم مرت السنوات ، وقيض الله من نهض بترجمة جلّ ما كان قد أملاه على تلامذته من الرسائل المفيدة جداً ، والتي سميت برسائل النور ، نهض بذلك مشكوراً ومأجوراً ، إن شاء الله تعالى ، صديقنا الأستاذ إحسان قاسم الصالحي . وهي الآن معروفة ومنتشرة في أمهات بلادنا العربية والإسلامية .

غير أن الذي أراه ، هو أن مجتمعاتنا العربية اليوم أحوج إلى الوقوف على أنباء محاكماته ، ومرافعاته ودفاعاته العجيبة التي لا تزال حبيسة داخل مخطوطات ومطبوعات تركية نادرة !.. أجل فهذه المجتمعات أحوج إلى الوقوف عليها ، من حاجتها إلى مدوناته العلمية في العقائد ، أو الإعجاز القرآني ، أو اللمعات ، أو الشعاعات الفكرية الجميلة .. إن مجتمعاتنا العربية قد أتخمت مكتباتها بالمؤلفات التي تتضمن أمثال هذه المعارف . ولكنها كانت ولا تزل فقيرة إلى نماذج للبطولات الإسلامية الفعالة لا القوالة . وبديع الزمان نموذج فريد لهذه البطولات ..

أرجو أن يعلم الإخوة القائمون على ترجمة آثار بديع الزمان إلى العربية ، أن لباب الفائدة فيما تركه سعيد النورسي من بعده ، إنما يكمن في مواقفه العجيبة وخطاباته وبياناته النادرة التي كان يهدر بها في قاعة محكمة أفيون وغيرها . وما هو إلا أن تنتشر أصداؤها في ربوع تركيا قاطبة وتأخذ بمجامع القلوب والعقول .. فما الذي يشغلهم ترى

عن ترجمة هذا اللباب العجيب الذي كان ولا يزال نوراً ونـاراً ، ويحملهم على التوجـه ـ بدلاً عنه ـ إلى مسائل فكرية أو علميـة يترجمونهـا لتتخـذ مكانهـا في المكتبـة العربيـة إلى جانب كثير وكثير من أمثالها ؟!..

ولقد كان بودّي أن أنفّذ أنا ما أدعو إليـه إخواننـا الفضلاء ، غير أن سلّم الأوليـات في المشاريع والمشاغل التي تحدق بي تضطرني إلى تأجيل هذا العمل إلى أن يحين ميقاته ، ولا أدري هل سيكون في العمر فسحة لتنفيذه في ذلك الميقات ؟..

أمـا الآن ، وقبل أن أتحـدث عن تجربـة العمل السيـاسي في حيـاة الأستـاذ سعيـد النورسي ، وهي من النقاط التي يجب عرضها على أنشطـة العـاملين في الحقل الإسلامي في بلادنا العربية اليوم ، أودّ أن أتساءل عن نوع الصلة بين ما كان يلح عليه النورسي في كل مناسبة وفي غضون كل بحث ، من ضرورة وحدة الجماعة الإسلامية والحـذر من وقوع التمزق في صفوفهـا ، والحـال التي نرى تـلامـذة النـورسي عليهـا (وهم من الكثرة بحيث يملؤون رحب تركيا بحمد الله) من التفرق والتدابر والانقسـام إلى فئـات يتجـه بعضهـا ذات اليمين وبعضها ذات الشمال ؟!..

بعد هذه المقدمـة ، أبـدأ فـأتحـدث في لبـاب الموضوع . أمـا من أراد أن يطلع على سيرة بديع الزمان ومراحل حياته ، فليعد إلى ما كتبته في ذلك ، في كتـابي (من الفكر والقلب) .

تجربة العمل السياسي في حياة بديع الزمان

١ ـ لن نطيل الكلام في التذكير بحقيقة معروفة لكل من درس حياة الأستاذ بديع الزمان ، أو اطلع على ملخص لها ، ألا وهي تعلقه رحمه الله تعالى بالسياسة منذ أن ناهز العشرين من العمر ، واتجه داعياً إلى الله ، حريصاً على تعريف شتى فئات الناس وطبقاتهم بحقائق الإسلام .

ولكن المهم أن نتجاوز هذه الحقيقة المعروفة لكل من عرف بديع الزمان ، إلى الوقوف عند شيء آخر ، ألا وهو التساؤل عن العوامل الكامنة وراء هذا التوجه السياسي الذي صاحب فجر نشاطه الإسلامي وأعماله الدعوية .

لقد استوقفني هذا التساؤل ، وفكرت في الإجابة التي تمثل الواقع أو الدافع الحقيقي الكامن وراء ذلك . فانتهيت إلى يقين بأن الدافع يتلخص فيما يلي :

كانت مشاعر الاعتزاز بالذات ، والاهتمام بالنفس ، تشكل ما يشبه التوأم الولادي المصاحب لنشأة اهتمام بديع الزمان النورسي بالإسلام . فقد انبثق هذان الاهتمامان في ميلاد مبكر واحد من حياته رحمه الله .

ومن ثم فقد أمضى شطراً كبيراً من شبابه ، وهو ينظر إلى مشكلات المسلمين ، ومشكلات الدعوة إلى الله ، من وراء زجاجات نفسيته الملوّنة بلون الاهتمام بالذات ، والاعتزاز بالشخص والكيان .. ولقد أشار إلى هذا بديع الزمان رحمه الله في أكثر من مناسبة ، في ملحق (أمير داغ) ، ولا سيما عند عرضه لجملة من الحقائق ذكرها تحت عنوان (اعتراض وليّ عظيم ودفعه) .

صحيح أنه رحمه الله تعالى لم يسخّر واجب الدعوة إلى الله في يوم ما ، لإشباع حظوظه النفسية أو طموحاته الشخصية ، لا في شبابه ولا في كهولته ، بل عاش أبعد ما يكون عن استغلال الإسلام أو استغلال نشاطاته الإسلامية ، للوصول إلى مغنم سياسي أو تبوّء مركز رئاسي ، أو أي حظوة دنيوية .

غير أن طبيعته التي تفتحت لديه مع فجر شبابه ، جعلته يركن إلى أشخاص أعجبوا بمزاياه النادرة ، وأفكاره العميقة ، واطلاعاته الواسعة . وصادف أن كان جلّ أولئك الأشخاص من ذوي النشاط السياسي بحكم مراكزهم السياسية التي كانوا يتبوؤونها . ولقد كان اهتمامهم به واستفادتهم من معارفه العلمية وأفكاره الاجتماعية والفلسفية ، أكثر من اهتمامه بهم وسعيه إليهم واستفادته منهم .

فإذا لاحظنا بالضرورة ظاهرة الانسجام الطبيعية بين مشاعره النامية في صدر شبابه من الاهتمام بالذات والاعتداد بالنفس ، وبين إعجاب هؤلاء الأشخاص به وركونهم إليه إلى حدّ يشبه التلمذة للأستاذ أو الشيخ المرشد ، أدركنا طبيعة المناخ الذي لعب الدور الأكبر في نشاطاته السياسية كخادم للدعوة الإسلامية إبّان تلك المرحلة بالذات .

من هؤلاء الأشخاص الذين ارتبطوا ببديع الزمان ، مصطفى باشا رئيس عشيرة ميرا ، ومنهم والي بتليس الذي قامت بين الأستاذ وبينه صداقة متينة ، بسبب إعجاب الوالي بشخصيته العلمية والفكرية النادرة ، وركن إليها الأستاذ بسبب الإعزاز والتكريم اللذين لقيهما من ذلك الوالي واللذين كانا ، بدون شك ، مصدر راحة ورضا لشخصيته السامية المتعززة في تلك المرحلة من حياته .

كان الجو الذي نشأت فيه هذه العلاقات بين الأستاذ رحمه الله والمعجبين به ، تهيمن عليه السياسة ، ولا سيما في تلك المرحلة التي اهتاجت فيها أنشطة (الاتحاد والترقي) ، وهبت عواصف المكر والتربص بالخلافة الإسلامية المريضة ، لقد كانت عوامل التحرك

كلها ، على اختلافها وتصادمها ، عوامل سياسية . وكان بديع الزمان يعيش في ذلك المعترك . لذا فقد كان عليه ـ وهو يسعى إلى حماية الإسلام مما يراد به ـ أن يستفيد من العوامل ذاتها ، وأن يتحرك ابتغاء أهدافه ضمن المناخ ذاته الذي وجد نفسه ـ للأسباب التي ذكرناها ـ محاصراً في داخله .

وهذا مادفعه إلى أن يحارب جماعة (الاتحاد والترقي) ويقطعها عن سبيلها الذي مهدته إلى غاياتها الهدامة ، بالسلاح التكتيكي ذاته الذي كانت تلك الجماعة تستعمله .. فراح رحمه الله ينادي بالشعارات ذاتها التي ينادي بها الاتحاديون ، وهي الحرية والإخاء والمساواة . ولكنه أخذ يلحّ على ربط هذه الشعارات بتشريعات الإسلام وعقائده ، ثم راح ينشر المقالات الثورية ضارباً فيها على هذا الوتر بشدة وعنف ، وكان ينادي من منطلقه السياسي هذا قائلاً :

« إن لم نلتجئ إلى الحرية التي خط طريقها الإسلام ، فإن استبداداً واستعباداً عظيمين سيلحقان بنا من وراء افتتان الناس بشعار الحرية هذه ، وسنصبح ضحية لها عما قريب » .

كان هذا النهج السياسي هو السبيل الأمثل إلى تنبيه الناس لخطر يجثم في رأس الاتحاديين ، في الوقت الذي لا يستطيع الاتحاديون أن يأخذوه بأي جريرة تدينه ، إذ هو ينادي بشعاراتهم ذاتها .

وهكذا فإن الأستاذ رحمه الله وجد نفسه في المناخ السياسي المحيط به من كل جانب ، بسبب ركونه إلى صداقات نشأت بينه وبين كثيرين من ذوي الفكر السياسي ، من جراء ما كان يتمتع به آنذاك من عظيم الاعتداد بالذات ، وما كانت تحققه تلك الصداقات من دعم وتغذية لمشاعره تلك ، فكان لا بدّ ـ وهو الداعي المخلص بل المتحرق على الانتصار لدين الله ـ مِن أن يمارس دعوته وأنشطته الإسلامية ضمن ذلك

المناخ ، وأن يتخذ من أحابيل السياسة ذاتها مصلاً واقياً ضد سياسة المكر والتربص بالدين وسلطانه .

☆ ☆ ☆

٢ ـ غير أن هذا التحليل يبدو وكأنه يحمل مسوّغات ذلك النهج السياسي الذي كان الأستاذ رحمه الله تعالى مندفعاً للسير فيه .. إنه لشيء منطقي ومقنع أن يسابق رحمه الله تعالى ـ وهو الإنسان اللقن الذكي الفذ ـ الاتحاديين إلى الشعارات الرائجة والمقبولة لدى الناس ، فيسبقهم إليها ليكسوها خلعة الإسلام ، قبل أن ينجحوا ، هم في تسخيرها لأهدافهم الاستبدادية الهدامة ..

فما الذي جعله رحمه الله يعزف عن هذا النهج ويهدر هذه المسّوغات ؟ وما البديل الذي جنح إليه بعد ذلك ؟

إن الذي جعله يعزف عن ذلك النهج السياسي ، تنامي مشاعر الإخلاص في قلبه لله عز وجل . وإذا تنامت مشاعر الإخلاص لله في قلب الإنسان فأصبحت أعماله خالصة له وحده ، لم يعد يقبل بوجود أي من الشوائب والقصود الأخرى التي من شأنها أن تعكر صفو توجهه الخالص إلى الله وحده . هذا هو السبب ، في عبارة كلية موجزة . ولكن فلنتبع هذا الإيجاز بشيءٍ من التفصيل ، من خلال تعداد العوامل التي أقصته عن مخاضة العمل السياسي :

أولاً ـ يقرر بديع الزمان رحمه الله ، وهو الذي خاض كلاً من تجربتي الانخراط في العمل السياسي والابتعاد عنها ، أن السعي إلى خدمة الإسلام داخل التيارات السياسية ، من شأنه أن يضطر صاحب هذا السعي إلى التعاون مع بعض تلك التيارات والركون إليها بل الاندماج فيها في كثير من الأحيان ، وذلك كي يتمكن من التصدي لتيارات أخرى ، لا تتفق مع الرسالة التي ينادي بها ، بل ربما لا تتفق مع التكتيك السياسي الذي يلعبه ويمارسه . ذلك لأن من المستحيل أن يندمج في العمل السياسي ،

ثم يبقى في الوقت ذاته بعيداً عن كل تلك التيارات المتصارعة ، إذ هو لون من أوضح ألوان التناقض الذي يستعصي على التطبيق .

وهيهات أن ينسجم الإخلاص لوجه الله وحده في العمل ، مع الركون بشكل من أشكال التحالف ، إلى أي من الجماعات السياسية المحترفة . ذلك لأن هذا الركون يستدعي سكوتاً عن كثير من الانحرافات والمحرمات التي قد تصدر عنها ، كما يستلزم قدراً كبيراً من المجاملة والمهادنة لها على حساب المصلحة الإسلامية ، التي يزعم أنه حارس **أمين عليها وداع مخلص إليها ، هذا فضلاً عن أن مصانعة هذه الجماعة تؤدي إلى مصادقة** حقيقية لأفرادها واستئناس بهم . ولا بدّ من أن تتراكم من ذلك آثار مظلمة على القلب تبعث فيه القسوة وتنسيه ما هو بأمس الحاجة إليه ، من غذاء التبتل وزاد الطاعات والقربات إلى الله عز وجل .

ولنصغ إلى ما يقوله الأستاذ رحمه الله في بيان هذا السبب :

« إن أهم سبب لهذا الاجتناب وعدم الاهتمام بالتيارات الجارية ، هو الإخلاص الذي هو أساس مسلكنا . فالإخلاص هو الذي يمنعنا عن ذلك . لأن في زمن الغفلة هذا ، ولا سيما بالنسبة إلى من يحمل أفكاراً موالية لجهة معينة ، فإنه يحاول أن يجعل كل شيء أداة طيّعة لمسلكه ، بل يجعل حتى دينه وأعماله الأخروية وسائل لذلك المسلك الدنيوي ، بينما الحقائق الإيمانية والخدمة النورية المقدسة ، تأبى أن تكون وسيلة لأي شيء في الكون . ولا يمكن أن تكون لها غاية إلا رضا الله سبحانه ..

وفي الحقيقة إنه من الصعب الحفاظ على سر الإخلاص في خضم الصراعات المتنافرة للتيارات الحالية . ومن العسير الحيلولة دون جعل الدين وسيلة لمكاسب دنيوية . لذا فإن أفضل علاج لهذا ، هو الاعتماد على العناية الإلهية وتفويض الأمر إلى توفيق رب العالمين ، بدلاً من الاعتماد على قوة التيارات السياسية »[1] .

---

(١) ملحق أمير داغ ـ ٢٢١/١ .

ثم إنه ، رحمه الله ، يجسد هذه الحقيقة التي أبرزها هنا بتحليل نظري ، في تجربة واقعية سجلها في مكان آخر حيث يقول :

« إن أعظم قوة لرسائل النور تجاه معارضيها الكثيرين ، هي الإخلاص . فالرسائل مثلما لا تكون أداة لأي شيء في الدنيا ، لا تهتم أيضاً بالتيارات التي تنبني على مشاعر الانحياز والموالاة ، ولا سيما للتيارات السياسية . وذلك لأن عرق الانحياز يفسد الإخلاص ويغير لون الحقيقة . حتى إن السبب في تركي السياسة منذ ثلاثين سنة ، هو أن عالماً صالحاً قد أثنى بحرارة على منافق يحمل فكراً ينسجم مع فكره السياسي ، وفي الوقت نفسه انتقد عالماً صالحاً يحمل أفكاراً تخالف أفكاره ، انتقاداً شديداً حتى وصمه بالفسق »[1] .

ثانياً ـ إن الأسلوب السياسي يقوم ـ كما هو معلوم ـ على التغاضي عن كثير من الأخطاء والانحرافات التي كثيراً ما تتمثل في ظلم الآخرين ، أو في إفساد نظام الحياة الاجتماعية أو الاقتصادية ، ابتغاء الوصول إلى هدف معين ؛ ولا يشترط لشرعية هذا التغاضي في ميزان النهج السياسي إلا قناعة أصحاب هذا النهج بهدفهم الذي يسعون إليه . وكثيراً ما يكون ذلك الهدف معتمداً في شرعيته على مجرد رؤية سياسية ، وقد تكون مرحلية ، تتبناها جماعة ذات فكر سياسي معين .

فإذا اندمج الداعي إلى الله في خضم التيارات السياسية ، فلا بدّ من أن يستسلم لسلطان هذا التغاضي ، فيغمض العين عن سلسلة إفسادات تتم بل يبرمج لها ، وعن *كثير من المظالم تنحط على برآء آمنين ، وذلك انسجاماً مع ما تقتضيه ضرورات المحالفة* السياسية ، لمن قرر الداعي التعاون معهم على هذا النهج . غير أن بدهيات المبادئ الإسلامية الكبرى تتناقض مع هذا النهج مناقضة حادة . إذ هو يتناقض بشكل حاد مع مبدأ ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزرَ أُخرَى ﴾ [الأنعام : ١٦٤/٦ ومواضع أخرى] ومن ثم مع مبدأ

(١) المرجع السابق ٣٦٩ .

« درء المفاسد مقدّم على جلب المصالح » المستخلص من قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعجِبُكَ قَولُهُ في الحَيَاةِ الدُّنيَا وَيُشهِدُ اللهَ على مَا في قَلبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ ، وإذا تَولّى سَعَى في الأَرضِ لِيُفسِدَ فيها وَيُهلِكَ الحَرثَ وَالنَّسلَ واللهُ لا يُحِبُّ الفَسَادَ ﴾ [البقرة : ٢٠٤/٢ ـ ٢٠٥] ومع قوله عز وجل : ﴿ مِن أَجلِ ذَلِكَ كَتَبنَا على بني إِسرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفساً بِغَيرِ نَفسٍ أو فَسَادٍ في الأرضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَن أحيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحيَا النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ [المائدة : ٣٢/٥] .

إن النهج السياسي في معالجة الأمور يأخذ سلطانه دائماً من الرعونات البشرية ، ومن ثم فإنه لا يبالي أن يقوض صروحاً من المكاسب أو القيم ، في سبيل تحقيق مآرب شخصي قد يكون باطلاً أو خطأً من أصله . أما المنهج الإسلامي المستخلص من كتاب الله وسنة رسوله ، فإنما يأخذ سلطانه من رحمة الله ولطفه بعباده جميعاً ، ومن ثم فهو يفضل حماية البرآء من الناس ، والإبقاء على غراس الصلاح في المجتمع ، على معاقبة آحاد المجرمين أو المفسدين عند تناقض المقصدين ، لأن ترويع البرآء واقتلاع غرس الصلاح أوغل وأسرع في نشر الفساد والموبقات والفتن في المجتمع ، من التجاوز عن جزئيات المفاسد وجزئيات الجنح والانحرافات . وهذا ما عناه المصطفى ﷺ في الحديث الذي يروى عن السيدة عائشة موقوفاً ومرفوعاً « ادرؤوا الحدود بالشبهات ما استطعتم ، فإن الحاكم لأن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة » .

وقد عبر الأستاذ بديع الزمان رحمه الله عن هذا العامل الثاني بأدق بيان وأوضحه ، عندما أجاب الذين سألوه عن سبب ابتعاده عن استخدام النهج السياسي في الدعوة الإسلامية ، بعد أن كان كثير الاندماج فيها والركون إليها ، قائلاً :

« إن القانون الأساسي للسياسة البشرية هو : يُضحّى بالأفراد من أجل سلامة الأمة ، وتفدى الأشخاص حفاظاً على الجماعة .. فجميع الجرائم البشرية التي ارتكبت إلى الآن إنما ارتكبت لسوء استعمال هذا القانون .. إن الحربين العالميتين قد نشبتا من

سوء استعماله ، فأبادتا ما توصلت إليه البشرية من رقي منذ ألف سنة ، كما سمح الإعراض عن هذا القانون أو سوءُ استعماله بأخذ تسعين بريئاً بجريرة عشرة من الجناة . كما سمح بتدمير قصبة كاملة ابتغاء ملاحقة مجرم واحد ، لأغراض شخصية مستترة تحت اسم المصلحة العامة !.. » .

« ولقد وجدت القانون الأساسي للقرآن العظيم النازل من العرش الأعظم ، يحذر من هذا الظلم الشنيع قائلاً : ﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزرَ أُخرَى ﴾ [الأنعام : ٦/١٦٤ وغيرها] ، وقائلاً : ﴿ مِن أجلِ ذَلِكَ كَتَبنَا على بَنِي إسرَائِيلَ أنَّهُ مَن قَتَلَ نَفساً بِغَيرِ نَفسٍ أو فَسَادٍ في الأرضِ فَكَأنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعَاً ﴾ [المائدة : ٥/٣٢] ، فإن هاتين الآيتين تعلمان القاعدة الجليلة الآتية : لا يؤخذ أحد بجريمة شخص آخر ، ثم إن البريء لا يضحى به حتى من أجل جميع الناس ، دون رضاه . ولكن لو ضحى هو بنفسه بإرادته ورضاه ، فتلك هي مرتبة الشهادة » .

فهذه القاعدة الجليلة التي أكدها بيان الله عز وجل هي التي أقصتني عن مزج عدالة القرآن بظلم السياسة »[1] .

ويقول في الشعاعات : « إن الداخلين الآن ساحة السياسة ، لا يستطيع أحد منهم أن يحافظ على استقلاليته وعلى إخلاصه ، لأن تياراً من تياراتها سيجرّه إليه ويجعله يعمل لحسابه ويستغله في مقاصده الدنيوية ، مما يؤدي إلى الإخلال بقدسية عمله وخدمته . ثم إن أشد أنواع الظلم مع أشد أنواع الاستبداد قد أصبحا دستوراً وقانوناً من قوانين الصراع والنزاع المادي في هذا العصر ، وهذا يعني أن كثيراً من الأبرياء يذهبون ضحية خطأ فرد واحد ، أو يقع هذا الفرد مغلوباً على أمره . عندئذ يتوهم من هجر دينه من أجل دنياه أو جعل دينه وسيلة لدنياه ، أن حقائق القرآن المقدسة ، قد تم استغلالها في ساحة الدعاية السياسية .. على أن أفراد الأمة بجميع طبقاتها ، المعارضين

(١) الملاحق : أمير داغ ـ ١/٣٣٥ .

منهم والمؤيدين ، لهم حصة في تلك الحقائق القرآنية وهم بحاجة إليها . لذا كان على طلبة النور أن يبقوا محايدين تماماً ، وكان من الضروري لهم عدم الخوض في السياسة وفي الصراع المادي وعدم الاشتراك فيه »[1] .

ثالثاً ـ إن الشأن في منبر الدعوة إلى الله والتبليغ عن الله ، أن يطل على الناس كلهم بشتى فئاتهم ومشاربهم ومستوياتهم ، من مستوى واحد ، وأن تتجه إشعاعات الدعوة إليهم جميعاً بموضوعية تامة ، ودون أي تحيز أو مصانعة لفئات دون أخرى منهم . ومعنى هذا أن الداعي إلى الله يجب أن يتسم بالحياد التام ، وأن يكون شأنه مع الناس جميعاً كشأن القاضي مع الخصوم الذين يحدقون به . فهو يخاطب الحكام والقادة ، كما يخاطب الدهماء والعامة ، كما يخاطب الموسرين والمترفين ، كما يخاطب الفقراء والمساكين ، أي بقدر متساوٍ من الغيرة عليهم والحب لهم والاهتمام بمصيرهم ، نعم قد يختلف الأسلوب حسب تفاوت السامعين ثقافة وعلماً ، وحسب تنوع الشبهات وتفاوتها في ميزان الأهمية والنظر ، فهذا شيء آخر مردّه إلى الحكمة التي يجب أن يتصف بها الداعي إلى الله . غير أن توجهه إلى الناس جميعاً يجب أن يكون على قدر واحد من الغيرة والشفقة عليهم والحب لهم . وهذا هو شأن الرسل والأنبياء وسائر الربانيين من الدعاة الذين جاؤوا من بعدهم .. فهل يتسنى لمن اقتحم تيارات العمل السياسي ، وانجذب بالضرورة إلى بعض المحاور المتصارعة فيها ، أن يعطي الناس كلهم من نفسه شعوراً متكافئاً من الإخلاص والحب لهم جميعاً والغيرة والشفقة عليهم جميعاً ؟!.. بل هل يتسنى له أن ينال ثقتهم جميعاً فيما يحاورهم به ويدعوهم إليه ؟..

إن الجواب عن هذا السؤال واضح بالبداهة . فهو وقد اقتحم غمار العمل السياسي ووضع نفسه داخل المحاور والتيارات المتنافسة بل المتصارعة ، لا بدّ من أن يجد نفسه منافساً بل مخاصماً لكل ما عدا الفئة التي طاب له ، لسبب ما ، أن يتحالف معها .

(١) الشعاع الرابع عشر ص ٤٢٤ من كتاب (الشعاعات) .

فكيف وأنى لـه أن يمـدّ فيا بينـه وبينهـا جسور التفـاهم والتوافق والحب ، ليـدعوهم من خلالها إلى الله ؟

وهكذا تبدو مهمة الدعوة إلى الله والتبليغ عنه ، مهمة إنسانية تتسامى فوق صعيد المنافسات والصراعات السياسية ، حيث تسري هـذه الـدعوة خلال أشعـة الإخلاص لهم والغيرة عليهم جميعاً ، لتتغلغل في سائر الأوساط ، ولتسري إلى جميع الأفئـدة والعقول . ومن هذا المستوى الباسق والصافي عن سائر التهم والشوائب ، استطاع بديع الزمـان أن يوجه نصائحه بل أن يدلي بتعليماته إلى سائر رجال الأمة وفضائلها ، بدءاً من أتـاتورك ذاته ، إلى مجلس الشعب (المبعوثان) إلى بقيـة القـادة والزعمـاء ، ثم إلى سـائر النـاس ، دون أن تتسرب أي شائبة إلى صفاء قصده ، ودون أي تحيّز منـه إلى أي فئـة أو جمـاعـة منهم .

☆ ☆ ☆

٣ ـ بقي أن نزيل لبساً قـد يتسرب إلى أذهـان كثير من النـاس ولا سيما المتحمسين للعمل الإسلامي ، عند الحديث عن خطورة مزج الدعوة الإسلامية بالعمل السيـاسي ، وعن آثاره وذيوله الضارة بالإسلام والأنشطة الإسلامية على اختلافها .

ففي هؤلاء الناس من قد يفهم من حديثنا هـذا أو من الموقف الـذي اتخـذه بـديع الزمان رحمه الله ، أنها دعوة إلى فهم الإسلام على أنه مجرد صلـة تمتـد بين الإنسـان وربـه عن طريق جملة من العبادات والقربات ، وأنه لا يُعنَى بقضايا السياسة والحكم ولا شأن له بها ، فهو ليس دينـاً ودولـة معـاً كما كنـا ولا نزال نؤكـد . وإنمـا هو دين معزول عن المجتمع ونظامه داخل المعابد والمساجد !..

غير أن هذا الفهم ، بالإضافة إلى كونه تنكباً في خطـأ فـادح ، ينم عن جهل ذريع بالإسلام وغفلة عن الفرق بين الطريق الموصل إلى الإسلام ، والجوهر الذي يتكون منـه

الإسلام . وهـذه الغفلـة إن جـاز أن يتعرض لهـا أو يقع فيهـا العـوام من المسلمين ، فما ينبغي أن يتعرض لها المشتغلون بالدعوة الإسلامية والمهتمون بالعمل الإسلامي .

ينبغي أن نعلم جميعاً أن هنالك فرقـاً كبيراً بين الطريق الـذي ينبغي أن يسلكـه المبلغون عن الله والمعرفون بـدين الله للوصول بـالمجتمع إلى رحـاب الإسـلام والاصطبـاغ بأوامر الله وأحكامه ، وبين الحقائق والمبادئ التي يتألف منها الإسلام وشرائعه .

أما الطريق الموصل إلى انتشار الإسلام وبسط سلطانـه وحكمـه ، فيجب ، كما أكـد بديع الزمان رحمه الله ، أن يكون صافياً من شوائب التيارات والمنعرجات السيـاسيـة ، للأسباب التي ذكرها وأكدها وشرحها أكثر من مرة .

وأمـا مضمون الإسلام الـذي نسعى إلى إقنـاع النـاس بـه ومن ثم إلى تطبيقـه ، فهو ما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ، من جميع المبادئ والأحكام التي من شأنها أن تهـذب حياة الإنسـان في حق نفسـه ، وأن تهـذبهـا في نطـاق التعـاون مع أخيـه الإنسـان ، وأن ترعى حقوق الأسرة ونظـامهـا ، وأن تبني هيكل المجتمع الإسلامي وتقيم نظـام الحكم فيـه وتنسق العلاقات الإنسانية الصحيحة بين القـادة والرعيـة ، وتقيم فيما بين الطرفين نظـام الشورى متكاملاً مع ضوابط النصوص الآمرة والناهية ، كما من شـأنهـا أن تنسق العلاقـة الدولية بين المسلمين وغيرهم ، في كلا حالتي السلم والحرب .. إلخ .

وقد تكفلت موسوعات الفقه الإسلامي ببيـان تفـاصيل هـذه الأحكام كلهـا ، على أوسع نطاق وبـأتم وجـه .. فهل يبقى بعـد ذلـك من شـك في أن الإسلام الـذي أمرنـا باعتناقه رب العالمين عز وجل ، إنما يتألف من هـذه المبـادئ والأحكام كلهـا ؟.. وهل تبقى إذن شاردة من شوارد سياسة الحكم أو العلاقات الـدوليـة ، بعيـدة أو خـارجـة عن دائرة هذا الدين وسلطانه ؟

غير أن الذي كان ينبه إليه بديع الزمان رحمه الله ، في أعقاب تجربتـه العمليـة مع السياسة وألاعيبهـا ، هو أن الوصول إلى إقـامـة هـذا البنيـان الإسلامي الشـامل ، رهن

بالسير إليه في طريق من الدعوة الخالصة إلى الله والتعريف بدين الله ، وتحبيب هذا الدين إلى قلوب عباد الله ، بعيداً عن الانجذاب إلى المحاور السياسية أو الدخول في أفلاكها ، متسامياً عن حمأة الانحياز إلى بعض الفئات ابتغاء مجابهة الفئات الأخرى .

فالسير في هذا السبيل ، هو لا غيره ، الثمن الذي لا بدّ من بذله للتمكن أخيراً من ترسيخ البنيان الإسلامي الشامل لكل من مصالح الآخرة والدنيا والمستوعب لسائر الضرورات الفردية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

ولا شك في أن الذين يستعجلون فيمزجون سبيل الوصول إلى هذا البنيان الإسلامي الشامل بالأنشطة السياسية ، ويستعيرون في سبيل ذلك من محترفي السياسة منعرجاتهم وأساليب مناوراتهم ، ويصطنعون لأنفسهم على هذا الطريق أحلافاً ضد آخرين ـ يحرمون أنفسهم وشعوبهم من بلوغ هذا الشأو الإسلامي المستوعب لسائر جوانب الحياة الإنسانية المثلى ، بل يحرمون الإسلام ذاته من بسط سلطانه التربوي والاجتماعي والسياسي على حياة المسلمين . وما أصدق الحكمة القائلة : (من استعجل الشيء قبل أوانه ، عوقب بحرمانه) .

☆ ☆ ☆

وبعد ، فإن النصيحة التي أكدها وكررها لنا بديع الزمان نتيجة تجربة ومعاناة ، تتضح سلامة مضمونها وصحة آثارها ونتائجها ، على صعيد واقع العمل الإسلامي في كثير من البلاد العربية والإسلامية اليوم .

إن أكثر الجماعات والحركات الإسلامية ، قد تورطت فيما حذر منه الأستاذ النورسي ، رحمه الله ، فقد طاب لها أن تتبع في أنشطتها الإسلامية سبل الأحزاب والمنظمات الأخرى التي لا شأن لها بالإسلام وخدمته ، وإنما تضع من السياسة هدفاً نصب عينيها ، وسبيلاً في طريقها . فالسياسة هي حرفتها ، وهي الواسطة والغاية معاً في حياتها .

فقد أخذ أكثر هؤلاء الجماعات يقلدون أولئك السياسيين المحترفين ، دون أن يلاحظوا الفروق الهائلة الكبرى بين جوهر الغرضين ، وطبيعة المنهجين . فكانت النتيجة هذا الذي حذر منه الأستاذ النورسي رحمه الله ..

أعرضوا عن تبليغ رسالات الله وتعريف الناس بالإسلام ودعوتهم إليه ، واستبدلوا بذلك التوجه إلى كراسي الحكم ومزاحمة الحكام وذوي الأهداف السياسية على هذا الطريق ، وكان لا بدّ لهم ـ وقد اتخذوا لأنفسهم هذا السبيل ـ مِنْ أن يحالفوا على هذا النهج فئات ويخاصموا آخرين . فماذا كانت النتيجة ؟

كانت النتيجة أن بقيت ساحة الدعوة إلى الله والتعريف بدينه فارغة ، يملؤها ويا للأسف المبشرون والهدامون والمرجفون .. ثم كانت النتيجة الثانية أن اختلطت هويات الإسلاميين بالحرفيين السياسيين على طريق واحدة ، وتمازج هؤلاء وأولئك في نسق واحد ، فكان أن تسرب ، بل اندلق ، إلى صفوف الإسلاميين كثير من ذوي الأهداف السياسية وأولي الرغائب الذاتية في القيادة والحكم وغطوا أنفسهم ومقاصدهم برداء الإسلام ، وكان مما يسّر ذلك أن المنهج واحد والأسلوب واحد ، والتظاهر بالهدف الإسلامي بعد ذلك سائغ ويسير .. فاختلطت الأوراق ، وامتزج الصدق بالخداع ، وضاعت المعالم على العامة ، وتخلت عنهم القدرة على التمحيص والتمييز .

ثم كانت النتيجة الثالثة أن استساغ هؤلاء الإسلاميون السبل السياسية ، التي يمارسها عادة قادة الأحزاب والمنظمات السياسية ابتغاء الوصول إلى أهدافهم المنشودة ، من إفساد في الأرض ، وتخريب للمصالح ، وترويع للآمنين ، وتقتيل للأبرياء .. وكلها كما أكد بديع الزمان سبل عدوانية محظورة في دين الله بمقتضى قانون ﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزرَ أُخرَى ﴾ [الأنعام : ١٦٤/٦ وغيرها] ، وقانون « درء المفاسد مقدم على جلب المصالح » .

ثم كانت نتيجة هذه النتائج كلها أن استغلقت السبل أمام هؤلاء إلى ما يحلمون به

من إقامة المجتمع الإسلامي المنشود ، بل ازدادت الشقة بينهم وبينها عمقاً ، وتضاعفت العوائق التي كانت تحول بينها وبينهم . فلا الجاهلون والتائهون تخلصوا عن جهلهم وتيههم لينعطفوا إلى الارتباط بالإسلام ، ولا القادة والحكام وثقوا بسلامة قصدهم الإسلامي وصدق ولائهم للإسلام ، بل استيقنوا في أنفسهم أنهم ليسوا إلا صنفاً متميزاً من هواة السياسة وعشاق الحكم ، وإن اخترعوا لأنفسهم إلى ذلك سبلاً خدّاعة جديدة .. ولا هم ، أي هؤلاء الإسلاميون ، أبقوا على شيء من صفاء الإخلاص لدين الله ، والتبتل في محاريب العبودية والعبادة له ، إذ إن السعي إلى زرع أسباب الفساد وإلى تقويض مصالح العباد ، والاستهانة بقدسية حياة البرآء والآمنين ، لا يمكن أن يبقي في القلب بارقة من ضياء الإخلاص ، كما لا يمكن أن يذيق صاحب هذه الأعمال شيئاً من حلاوة التبتل بين يدي الله أو التخشع والتذلل على أعتابه .

ثم كانت عاقبة هذه النتائج كلها أن ألصق بالإسلام ما هو منه بريء ، من دعوى تبنّيه لأعمال الإرهاب ، ودعوته إلى نشر عوامل الإفساد في الأرض ، وتقويض مصالح العباد ، وتبريره التضحية بجموع البرآء في سبيل تغذية رعونات فردية أو تحقيق مصالح شخصية .. واستغل الفرصة الذهبية هذه دول البغي والعدوان في الأرض ، فنفخوا في نيران هذه التهمة ، وبالغوا في الوصف ، وتزيّدوا على الواقع ، وجندوا لذلك وسائل إعلامهم المرئية والمسموعة .

وهكذا دارت دائرة السوء على الإسلام ، وتسلسلت من ذلك الأضرار المتعاقبة التي أفسدت الكثير من روائه ، وذهبت بالكثير من صفائه ، وشوهت مرآه وواقعه أمام أبصار كثير من المسلمين التائهين والجاهلين ، وكثير من غير المسلمين الذين كانوا ولا يزالون يتطلعون إلى معرفته ، وينشدون كثيراً من الآمال داخل مبادئه وتعليماته .

وإنما تفجر ينبوع ذلك السوء من هذا التنكب الذي تورط فيه كثير من الإسلاميين تحت اسم العمل الإسلامي ، ثم تسلسلت وتتابعت ذيول السوء وآثاره من

جراء خبث الكائدين والمتربصين ، الذين استغلوا هذا التنكب أيما استغلال ، بل استحلبوه واستثمروه لإنفاذ خططهم المدروسة والمبنية ضدّ الإسلام والمسلمين .

ولا يزال ينبوع الخطأ يتفجر ويفور ، والمتورطون ماضون في تورطهم ، على الرغم من الطوفان الذي يغرق ويجتاح ؛ ولا يزال الكائدون من أعداء الدين واقفين بالمرصاد يستثمرون .. ويستغلون .. ويمعنون في لصق أخطاء المسلمين بالإسلام .

ترى هل سيصحو هؤلاء الإخوة المتورطون على أمواج هذا الطوفان المغرق ، أو على نصائح من قد سبقهم عندما غامر بهذه التجربة ، ثم رجع منها حاملاً نصائحه المعلنة لكل من لم يتورط بعد ..[١] .

أعتقد أنه لن يملك أي جواب حاسم عن هذا السؤال ، إلاّ قادمات الأيام التي نسأل الله أن تحمل معها إلينا بشائر الانعطاف إلى الحق والرجوع عن هذه التجربة الخاسرة ، التي لم تَسِرْ بأصحابها إلاّ عبر نفق مسدود .

(١) من الأمثلة الواقعية التي تؤكد هذا الذي نبه إليه الأستاذ النورسي مراراً أن ثلة من العلماء المرتبطة بجماعات إسلامية يزيد عددهم على الأربعين ، كانوا خلال السنوات الثمان التي مرت من عمر القتال الدائر بين المسلمين في الجزائر باسم الجهاد ، كانوا بين مؤيد له وصامت .. وإذا بهم يصدرون قبل أيام بياناً يدعون فيه إلى إيقاف هذا القتال والتحذير من استمراره وتأكيد عدم شرعيته !..
ومن المعلوم بداهة أن هذا البيان إن كان تعبيراً عن الحكم الشرعي الصحيح ، إذن فلا ريب أن القتال الذي كانت تدور رحاه خلال السنوات التي مرت في الجزائر لم يكن شرعياً . فما لهم كانوا صامتين بل مؤيدين له ؟ وفيم كانوا يخطّئون من كانوا يقولون في التحذير منه وفي بيان عدم شرعيته ما يقولونه هم أنفسهم عنه اليوم ؟ وفيم كانوا يتهمونهم بإلغاء حكم الجهاد في الإسلام ؟
أما إن كان المعبّر عن الحكم الشرعي الصحيح ، هو ذلك القتال الذي استحرّ بالآلاف من المسلمين البرآء خلال كل تلك الأعوام ، وأما إن كان ذلك القتال جهاداً كما كانوا يؤكدون =

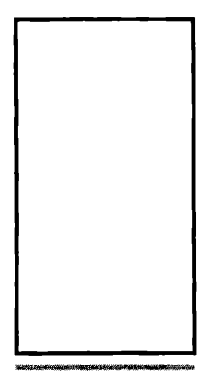
= ويرددون ، إذن فينبغي أن تستمر شرعيته إلى اليوم وما بعد اليوم ، لأن المبررات التي كانت تعتمد عليها جبهة الإنقاذ لاتزال موجودة ، إذ الناس هناك اليوم هم أولئك الناس أنفسهم : إما كفرة ظلمة يحكمون بغير ما أنزل الله (على حدّ تعبيرهم) ، أو أعوان لهم يدورون في فلكهم .

ومما هو معلوم بالبداهة أيضاً أن الوحي انقطع بعد رسول الله ﷺ . فلا سبيل لأن يكون جبريل قد تنزل في الأمس إلى هؤلاء العلماء بحكم يتضمن شرعية ذلك القتال آنذاك .. ثم إنه نزل اليوم بحكم مناقض جديد ينسخه ويحرمه .

أربعون عالماً من ذوي الارتباطات بالجماعات الإسلامية ، ظلوا صامتين ومؤيدين لأنهار تلك الدماء الزكية خلال كل تلك الأعوام ، لو أنهم أدلوا ببيانهم الشرعي هذا خلال تلك الفتن أو في مقتبلها ، إذن لَقُطِع دابر ذلك النزيف أو خفت حدته كثيراً على أقل تقدير .. ولكنها السياسة علمتهم متى يصمتون مؤيدين ومتى ينطقون مستنكرين !!!

أرأيت إذن كيف يغدو الأمر والسلطان للسياسة في هذه الحال ، وكيف يصبح الإسلام بكل مبادئه وأحكامه خادماً أميناً على باب هذا السلطان ، يتحرك بحركته ويتلون بلونه !!..

اللهم لا تخضعنا لسلطان غير سلطانك ، ولا تبعدنا عن حمى العبودية لك ، ولا تحرمنا نعمة الإخلاص لوجهك .



جمال الدين الأفغاني

نقاط غامضة في حياته

١٢٥٤ ـ ١٣١٥ هـ

١٨٣٨ ـ ١٨٩٧ م

قلّ أن تجد شخصاً نشط نشاطاً تجاوز حدّ الإقليم الواحد ، في النهوض بعمل إنساني أو خدمة بعض الحقائق الدينية ، بحيث أخذ نشاطه طابع الحركة العالمية ، إلاّ واكتنفت حياته نقاطٌ غامضةٌ ، إن لم نقل : شبهات تبعث على الريبة والتحفظ .

وأعتقد أن جمال الدين الأفغاني رحمه الله ، واحد من هذه الشخصيات . فقد لفت نشاطه السريع في تحركاته والواسع في آفاقه أنظار كل من العالمين الإسلامي والغربي ، إلى درجة أن كثيراً من الطامعين في الكيد للإسلام والمسلمين ، والمروجين للمذاهب الهدامة الباطلة رأوا فيه ما يمكن أن يكون أداة ـ بشكل ما ـ لتحقيق أطماعهم ، أو لنشر مذاهبهم وأفكارهم ، فواصلوه وواصلهم ، وحاولوا أن يستجروه كما حاول هو الاستفادة منهم .

فكان أن نشأت من جراء هذا الواقع في مجمله ، نقاط بل مواقف أقلُّ ما يمكن أن يقال عنها إنها غامضة تبعث على التساؤل والريبة ، كما قد تبعث على التحفظ في إطلاق أيّ أحكام عمومية في حقه .

ونظراً إلى هذه الحقيقة ، فإنني لست معنيّاً في هذا البحث بالحديث عن تاريخ حياة هذا الرجل من أولها إلى نهايتها ، بالطريقة التقليدية المألوفة في الكتابة عن حياة أي شخصية تاريخية وتسجيل ترجمة وافية لحياتها . فإن كتابة مثل هذه السيرة من السهولة بمكان ، ولكنّها لا تحلّ مشكلة ولا ترفع أي غموض .

وإنما سأكتفي بعرض أهم النقاط والمواقف التي يكتنفها الغموض في حياة هذا

الإنسان الذي فاضت حياته بالمواقف والأنشطة التي تلفت النظر وتثير التساؤل .. أقف عندها ملتزماً واجب البيان والتوثيق فقط . ثم لا أحمّل نفسي مسؤولية أي حكم أدلي به سواء كان للرجل أم عليه . إذ إن حكماً من هذا القبيل في حق شخص كجمال الدين ، قد يحمّل صاحبه مسؤولية كبرى بين يدي الله عز وجل ، ينال من جرائها النكال والوبال ، بدلاً من أن يكسب المثوبة والأجر .

☆ ☆ ☆

النقطة الأولى : ما غدا معروفاً بيناً للمهتمين بترجمة هذا الرجل الذي كان شديد الحرص على تلقيب نفسه بالأفغاني ، والظهور في الأوساط بمظهر عالم متميز من علماء السنة ، أنه لم يكن في الحقيقة إلا إيرانياً من مدينة أسد آباد ، وأنه كان شيعياً جعفري المذهب .

أكد ذلك ابن أخته ميرزا لطف الله خان الأسد آبادي في أكثر من موضع في كتابه (حقيقة جمال الدين الأفغاني) . وقد ترجم هذا الكتاب أخيراً من الفارسية الدكتور عبد المنعم حسنين أستاذ قسم اللغات الشرقية وآدابها بكلية الآداب بجامعة عين شمس[1] .

وقد تحدث المؤلف ابن أخت جمال الدين عن بقايا أسرة جمال الدين في مسقط رأسه أسد آباد .

ولعل من أبرز ما يكشف عن هذه الحقيقة وينفي عنها أي احتمال ما يذكره المؤلف من علاقة جمال الدين بشاه إيران آنذاك ، ناصر الدين شاه ، والرسائل التي كان يبعثها إليه ، وهي كلها تنطق بهويته الإيرانية والشيعية بشكل صريح . ولما اغتيل شاه إيران هذا ، واتجهت أصابع الاتهام إلى جمال الدين ، إذ كان هذا الثاني قد حقد عليه لطرده إياه من إيران ، لأسباب منها تحامل علماء إيران عليه واتهامهم إياه باعتناق البهائية التي كانت تكيد آنذاك للعرش الإيراني وحكمه ، أقول : لما اغتيل شاه إيران في

(١) انظر مقدمة المترجم لهذا الكتاب ، ٩ و١٠ . وانظر ٢٩/٢ من الكتاب ذاته . وهو ما أكده أيضاً شكيب أرسلان في كتابه حاضر العالم الإسلامي ٣٠٥/١ .

هذه الظروف والملابسات ، أرسل ابن الشاه ، مظفر الدين إلى السلطان عبد الحميد الذي كان قد أحسن وفادة جمال الدين إليه وأكرم مقدمه ، ظاناً أنه كان فعلاً كما قد عرّف بنفسه ، أفغانياً من علماء السنة ، أرسل إليه ابن الشاه يؤكد له أنه إيراني الجنسية وأن أفراد أسرته معروفون في مدينة أسد آباد . كما أوضح صلته المتينة بالطائفة البهائية .

ومن المعروف أن هذه الرسالة التي انتقم بها مظفر الدين لوالده ، هي التي وغرت نفس السلطان عبد الحميد على جمال الدين إلى درجة أنه قرر ـ فيما يراه كثير من الباحثين ـ التخلص منه[1] .

ومحل الغموض في هذه النقطة ، السبب الذي حمل جمال الدين على أن يخفي عن الناس هويته الحقيقية ، وأن يتظاهر كلما خرج من إيران بأنه سني المذهب أفغاني الموطن .. ومما يمكن أن يعدّ ذيلاً لهذه النقطة أنه لم يكن يركن إلى زي واحد يلازمه ويثبت عليه ، كما هو شأن أمثاله من العلماء الذين كانوا على شاكلته ومستواه !... فقد كان يظهر في إيران بالزي الشيعي والعمامة الشيعية ، ويظهر في مصر بالزي العربي المألوف ، فإذا اتجه إلى أوربة ظهر بالزي الأوربي واستقر عليه ، أما عندما استقر به المقام في استانبول ، فقد كان يبدو كأنه واحد من الأتراك !..

إن بوسعي أن أفترض أن جمال الدين رحمه الله كان قد حمّل نفسه مهمة جمع العالم الإسلامي على كلمة سواء ، كما يؤكد ذلك كل من قد تحدث عنه وترجم له ... وأنه نظر ، فوجد أن المسؤولين ورجال العلم والفكر الإسلامي لن يثقوا به في حمل هذه المهمة بصدق ، إن رأوا أنه ينتمي إلى إحدى الأقليات المذهبية ، فرأى أن من الخير لإنجاح مهمته القدسية حقاً أن يخفي عن الناس هويته الحقيقية ، وأن يبرز لهم من نفسه عالماً سنياً متميزاً ينتمي إلى المذهب الذي يمثل سواد هذه الأمة وجمهرتها الكبرى .

أقول : بوسعي أن أفترض وجود هذا العامل الخفي وراء هذه الظاهرة التي تبعث على التساؤل ، ولعله اجتهاد مقبول ، والأمور بمقاصدها كما قالوا .

(١) حقيقة جمال الدين ٢/٩٤ و٩٥ .

ولكن هل هذه هي الحقيقة ؟.. علم ذلك عند الله عز وجل . كل ما أملك أن أقوله هو أنه لا يكفي أن نقف عند هذا الافتراض ، ثم نركن إليه ونطمئن إلى أنها هي الحقيقة . ولا سيما إن أخذنا بعين الاعتبار سخط علماء إيران عليه ، واتهامهم له باعتناق البهائية .

☆ ☆ ☆

النقطة الثانية : ما ذكره كثير من الكاتبين عنه والمترجمين له ، من علاقته الوطيدة بالمذهب البابي والبهائي (والكلمتان تعبير عن مذهب بل عن ديانة واحدة) ، وهو كما نعلم مذهب خارج عن الملة الإسلامية . وقد ورد خبر هذه العلاقة في أكثر من موضع في كتاب (حقيقة الشيخ جمال الدين الأفغاني) ، كما ورد ذلك مفصلاً في كتاب (السلطان عبد الحميد الثاني) للدكتور محمد حرب[1] ، والدكتور محمد حرب من خير من نثق بأمانتهم فيما يخبرون ، وباختصاصهم العلمي فيما يحققون .

وقد وقعت على نص رسالة أرسلها إليه عباس البابي وهو الداعية البهائيّ الكبير ، وقد أرسلها إليه من مقره في عكا بفلسطين . وهذا هو نصها :

إلى حضرة الفاضل المحترم الجهبذ الفهام الشهير جمال الملة والدين أيد الله برنامجه : لقد تلوت مقالتكم الردّية الغراء في جريدة مصر النوراء على بعض الجرائد الإنكليزية ، فوجدت أجوبتكم مطابقة للحق والواقع ، وبيانكم مؤيداً بالبرهان الساطع ، ثم وقعت في يدي رسالة من تأليف مدحت باشا ، مضامينها مؤيدة ومصدّقة لتلك المقالة الصحيحة العظمى . لذا أحببت تقديمها لجنابكم . والله مؤيد كل حق بالحجج والبرهان[2] .

الداعي البابي

المسجون في عكا : عباس

---

(١) انظر ١٧٨ منه ، وما بعدها إلى ١٨٠ ، ط دار القلم بدمشق .

(٢) انظر نص هذه الرسالة في كتاب (حقيقة جمال الدين الأفغاني) ١١٢/٢ .

وينبغي ألا يفوتنا أن علاقة هذا الداعي البابي الكبير بالعالم الإسلامي كانت سيئة للغاية لما ينطوي عليه مذهبه من زندقة وكفر ، ولما كان يربطه ببريطانيا من صلة القربى والكيد العلني للإسلام والخلافة الإسلامية . وكان قد أعدم زعيم البهائية والبابية محمد علي الشيرازي قبل ذلك رمياً بالرصاص .. فتفرق أتباعه من بعده ، ثم استقر بهم المقام في مدينة عكا .

ترى ما سرّ هذه العلاقة بين جمال الدين وعباس البابي هذا ، وهي علاقة حارة كما يعبر عنها نص الرسالة ؟ إن هذا ليس أكثر من سؤال استفهام ، والهدف منه استثارة الأفكار الموضوعية المخلصة للبحث والنظر ، ابتغاء الوصول إلى إجابة شافية مقنعة .

☆ ☆ ☆

النقطة الثالثة : تتمثل في مرحلتين متناقضتين من علاقة السلطان عبد الحميد بجمال الدين فقد استقدمه في المرحلة الأولى إلى حاضرة الخلافة ، وأكرم مقدمه ، ورأى فيه الأمل الكبير ، بل البطل الأول ، لتحقيق الحلم الذي كان يخطط له ويدعو إليه ، ألا وهو حلم الجامعة الإسلامية التي ينبغي أن تتسامى على القوميات واللغات والأعراق ، والتي من شأنها أن تزيد وحدة المسلمين قوة ، وأن ترسخ جذور الخلافة الإسلامية ضد المتربصين بها . فقد كان يتخذ من جمال الدين مستشاره الأول لتنفيذ هذا الهدف الإسلامي المقدس الذي كان أمنية في حياة جمال الدين نفسه ، فيما يبدو .

ثم ما هو إلا أن اكتشف فيه السلطان عبد الحميد ما جعله ينفض يديه من الآمال التي كان قد علقها عليه ، بل جعله يرى فيه الخطر الأكبر على هدفه المقدس الذي كان يسعى إليه ؛ فأبعده عن بلاطه ، وأحاط به الرقباء يحصون حركاته ويسجلون عليه سائر أقواله ورسائله ، ومنعه من الخروج من استانبول .

والذي نعرفه من الملابسات التي اقترنت مع هذا التحول الذي طرأ على السلطان ،

أنه أيقن بأن جمال الدين إيراني شيعي ، وليس كما كان يوهمه أفغانياً سنياً ، وأنه وقع في يده ما يدلّ على أنه كان بهائي النحلة والمذهب ، ثم اطلع على ما عدّه دليلاً على ضلوعه في تحقيق الخطة التي كانت ترمي بريطانيا من ورائها إلى تحطيم طوق الخلافة الإسلامية بالتعاون مع الصهيونية العالمية الناشطة آنذاك[1] .

يقول السلطان عبد الحميد في مذكراته :

« وقعت في يدي خطة أعدّها في وزارة الخارجية الإنجليزية كل من مهرج اسمه جمال الدين الأفغاني وإنجليزي يدعى : بلنت ، قالا فيها بإقصاء الخلافة عن الأتراك . واقترحا على الإنجليز إعلان الشريف حسين أمير مكة خليفة على المسلمين .

كنت أعرف جمال الدين الأفغاني عن قرب ، كان في مصر ، وكان رجلاً خطراً . اقترح عليّ ذات مرة ـ وهو يدعي المهدية ـ أن يثير جميع مسلمي آسية الوسطى ، وكنت أعرف أنه غير قادر على هذا . وكان رجل الإنجليز ، ومن المحتمل جداً أن يكون الإنجليز قد أعدوا هذا الرجل لاختباري . رفضت فوراً ، فاتّحد مع بلنت »[2] .

والراجح أن جمال الدين مات مسموماً ، كما يؤكد ابن أخته في كتابه المذكور . ولكن من الذي وضع الخطة وأشرف على تنفيذها ؟ يرجح ميرزا لطف الله خان أن سفير إيران ومندوبها فوق العادة الذي كان قد أوفد إلى استانبول بمهمة ، هو الذي أرسل من قد دسّ سماً في طعامه ، فقضى نحبه بذلك . وهناك من يرى أن السلطان هو الذي فعل به ذلك . والله أعلم بحقيقة الأمر .

المهم أن هذا التحول الذي بدا في حياة السلطان عبد الحميد تجاه جمال الدين ، والذي قفز من أقصى طرف الإكبار والتقريب ، إلى أقصى طرف الإبعاد والتجريم ، من النقاط التي تلفت النظر وتثير عوامل الريب ، لا سيما إن تذكرنا ما هو معلوم لدى

(١) انظر مذكرات حاييم وايزمن ٥٢ وما بعد .

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة الدكتور محمد حرب ٦٧ ط القاهرة .

الناس جميعاً من الدهاء الذي كان يتصف به السلطان والخطط الدقيقة النافذة التي كان يرسمها ، إلى جانب ما عرف به من الإخلاص لدينه وأمته وقضايا الإسلام في عهده ، واحترامه الكبير للعلماء الذين يثق بإخلاصهم وصدقهم . إن رجلاً بهذا المستوى يبعد أن يتحول موقفه من جمال الدين هذا التحول الكبير بدافع مزاجي مجرد .

ولقد أطال شكيب أرسلان في كتابه (حاضر العالم الإسلامي) ، في تمجيد السلطان عبد الحميد بهذه المناسبة ، وتحدث عما هو معروف ومتفق عليه من دهائه وذكائه وعمق فراسته ، ولكنه اتهمه أيضاً بالمزاجية التي تعرضه لتناقضات غير مفسرة في علاقاته ومعاملاته[1] . وإني لأستبعد هذا الذي تصوره شكيب أرسلان ، وأعتقد أن لا دليل له على ذلك إلا هذا التحول المبهم في علاقته أو معاملته لجمال الدين . إن كون هذا التحول مبهماً عندنا لا يجعل من هذا الإبهام دليلاً على أن عبد الحميد كان يخضع في معاملته للآخرين لطبيعة مزاجية . فالجهل ما كان يوماً ما دليلاً على حقيقة ثابتة .

☆ ☆ ☆

النقطة الرابعة : ما اشتهر واستفاض من انتساب جمال الدين الأفغاني إلى أحد المحافل الماسونية الإنكليزية في مصر ، وهو محفل (كوكب الشرق) الذي لم يكن يدخله إلا المصريون . والمراجع التي تؤكد ذلك كثيرة جداً[2] .

غير أن ابن أخت جمال الدين أثبت سلسلة من الرسائل التي كتبها جمال الدين بخط يده إلى شخصية كبيرة لم يذكر اسمها في أي واحدة منها ، بل كنى عن الاسم بكلمة مولاي ، عندما كان يجتاز قناة السويس عائداً من الهند متجهاً إلى أوربة . وهي موجودة في الكتاب المذكور وقد أثبتت صورة منها بخط يده .

(١) حاضر العالم الإسلامي ٣٠٦/١ وما بعدها .

(٢) انظر على سبيل المثال : الماسونية والماسونيون في الوطن العربي لحسين عمر حمادة ٢٢١ ، وصوت الماسونية لزكي إبراهيم ١٦٢ وما بعدها .

يقول في إحدى هذه الرسائل ـ وهي أطولها ـ ما نصّه :

« وأنا شخصياً كنت أتصل بالماسونيين بعلم من الخديوي وطلب منه . فكان الخديوي كل يوم يرسل إليّ كاتبه كال بك قائلاً : إن أفندينا يسلم عليك ويقول : ليس لنا في هذا الأمر سواك لدفع شر جماعة من الإفرنج الماسونيين وأذنابهم .. » .

ثم يقول : « وأنا حبّاً في الخديوي ظاهرتهم بالعداوة ، وقابلتهم بالخصومة ، ورفضت مجلسهم ، ونبذت رئاسة محفلهم ، وأنا الرئيس عليهم من سنين .. وكل هذا ما فعلته إلا ثقة بحب الخديوي » .

ثم يقول : « ولكن الحاسدين والكارهين لقربي من الخديوي دسّوا لي عنده ، وزيفوا حقيقة موقفي من الماسونيين ، وصوروا له أنني رأسهم المفكر ، وأنني القوة المحركة فيهم .. فأمر الخديوي بطردي من البلاد .. » .

ويتحدث بعد ذلك عن السوء والازدراء اللذين عومل بهما أثناء عملية إخراج المسؤولين له من مصر ، في كلام مطول . إلى أن يقول :

« ولما يئس إخواني الماسونيون من الرجوع إليهم والاتفاق معهم ، ورأوا تصلبي على رأيي القائل بغير رأيهم ، نصبوني هدفاً لسهامهم وأطلقوا عليّ ألسنتهم السليطة ، وأشاعوا كذباً وبهتاناً أني عازم على قتل الخديوي .. وأنني قبل ذلك ما عاديتهم وما رفضت رئاسة مجلسهم ، وكان ذلك اتكالاً مني على الخديوي وثقة به .. » .

ثم إنه يعرض في ختام رسالته رجاءه بذلٍّ وانكسار لمولاه الذي يخاطبه دون أن يذكر اسمه أن يصدر توجيهاته لتسليم خادمه (العارف) أمواله وكتبه وأشياءه الأخرى الباقية له في مصر ، ثم يعود فيرجوه بضراعة واستكانة ـ على حدّ تعبيره ـ أن ينظر إلى تلامذته بنظر الرعاية خصوصاً الشيخ محمد عبده والسيد إبراهيم اللقاني ..[1] .

(١) بوسعك أن تقرأ النص المطول لهذه الرسالة في الجزء الثاني من كتاب (حقيقة جمال الدين الأفغاني) من ٣٣ إلى ٤٣ .

إذا تأملنا في الفقرات التي ذكرتها من هذه الرسالة المطولة ، رأينا أنفسنا ـ فيما أعتقد ـ أمام عقدة محيرة في تفسير كلامه : ترى أكان انتماؤه إلى المحفل الماسوني وبلوغه درجة الرئاسة فيه خدمة للخديوي ليطلعه على الخطط والنوايا التي تتجه ضده ، أم كانت صلته بالخديوي وعلاقته به خدمة للمحفل الذي كان يرأسه ، وحبكاً لخيوط المكر والوقيعة ضده ؟ أعتقد أن من العسير الإدلاء بأحد القرارين دون تحفظ . والله أعلم بخبيئة الأمر .

☆ ☆ ☆

النقطة الخامسة : تتمثل في بعض الرسائل التي كان قد وجهها الشيخ محمد عبده إلى جمال الدين الأفغاني . وهي موجودة في الطبعة الأولى من كتاب (تاريخ الأستاذ الإمام) لمحمد رشيد رضا . ثم إني فتشت عنها في الطبعات التالية ، فلم أعثر عليها . ولعل سبب حذف المؤلف لها وإسقاطها من كتابه يتضح جلياً إذا وقفت على نصّ بعض هذه الرسائل ، فإن فيها عبارات تحمل في طيها الكفر البواح الذي لا يحتمل أي ريب ولا تأويل .

غير أن هذه الرسائل ثابتة وموجودة بوثائق خطية نشرتها جامعة طهران . ثم إن ابن أخت السيد جمال الدين أثبتها مصورة بخط الشيخ محمد عبده في كتابه (حقيقة جمال الدين الأفغاني) . **وإليك هذه الفقرات العجيبة التي وردت في واحدة منها :**

« مولاي المعظم حفظه الله وأيد مقاصده : ليتني كنت أعلم ما أكتب إليك ، وأنت تعلم ما في نفسي كما تعلم ما في نفسك ، صنعتنا بيدك ، وأفضت على فؤادنا صورها الكمالية ، وأنشأتها في أحسن تقويم . فبك عرفنا أنفسنا ، وبك عرفناك ، وبك عرفنا العالم أجمعين ، فعنك صدرنا ، وإليك ، إليك المآب » .

ثم يقول : « ... إنني منك في ثلاث أرواح ، لو حلّت إحداها في العالم بأسره ،

وكان جماداً ، لحال إنساناً كامل الصورة ، فصورتك الظاهرة تجلت في قوتي الخيالية ، وامتد سلطانها على حِسّي المشترك ، وهي رسم الشهامة ، وشبح الحكمة ، وهيكل الكمال ، فإليها ردّت جميع محسوساتي ، وفيها فنيت مجامع مشهوداتي . وروح حكمتك التي أحييت بها مواتنا وأنرت بها عقولنا .. فكنا أعدادك وأنت الواحد ، وغيبك وأنت الشاهد . ورسمك الفوتوغرافي الذي أقمته في قبلة صلاتي رقيباً على ما أقدم من أعمالي ، ومسيطراً عليَّ في أحوالي ..)[١] .

ليس من شك في أن مخاطبة غير الله بهذه العبارات كفر بواح . ولكن قد يقال : فما وزر جمال الدين في كلام ليس هو قائله ؟ وهل يتحمل المخاطَبُ جريرة اللغو الذي يوجهه إليه المخاطِب ؟

ونقول في الجواب : إنها أولاً جريرة من ينطق بهذا الكلام وينعت به غير الله عز وجل . غير أننا نكاد نجزم بأن جمال الدين الأفغاني الذي كان يعدّ نفسه أستاذاً لمحمد عبده ، كما رأينا في رسالته السابقة ، هو الذي عود تلامذته على النطق بمثل هذه المعاني في حقه . ولو أنه استنكر هذا اللغو واستتاب تلميذه محمد عبده منه ، لسجل هذا الاستنكار ولذاع وشاع ، كما ذاعت وشاعت رسائله كلها ، ولبدد هذا الاستنكار جريرة ذلك الكلام .. ثم إن هذا الكلام وما يشبهه من الهرطقة والمعاني الحلولية ، مما يردده ويتبادله البهائية الذين تدور عقائدهم على محور الحلول ، أي حلول الله في الأشخاص . وإذا تذكرت ماقلناه من علاقة جمال الدين بطائفة البهائية ، وكيف أنه نظم في استانبول للبهائية جمعية سماها جمعية إيران الفتاة ، أدركت وجه التناسق بين الأستاذ والتلميذ في اعتناق هذه الأفكار .

---

(١) بوسعك أن تقرأ هذه الرسالة وغيرها في الجزء الثاني من كتاب (تاريخ حياة الأستاذ الإمام) لرشيد رضا ، الطبعة الأولى ، أو في كتاب (حقيقة جمال الدين الأفغاني) تأليف ابن أخته ميرزا لطف الله خان ص ١١٤ وما بعدها .

النقطة السادسة : تتمثل في أن جمال الدين أرسل من خلال أسفاره الكثيرة رسائل إلى كبار المسؤولين في الدولة العثمانية يحذرهم من خطر روسيا القيصرية على المسلمين والخلافة الإسلامية . ولدى استقرائنا لرسائله هذه لا نعثر على أيّ رسالة حذر فيها من أخطار الكيد البريطاني على الدولة العلية ، هذا مع ما هو معلوم من أن الذي كان يكيد آنذاك للمسلمين وللخلافة ، إنما هو بريطانيا في حين أن روسيا القيصرية لم تكن معنية بشيء من هذا الأمر ، وإن كانت العلاقة بينها وبين المسلمين عموماً على غير ما يرام . فما الذي جعل جمال الدين يلفت النظر إلى خطر وهمي يبالغ فيه ويحصر الالتفات إليه ، ويقصي الأنظار عن الخطر الواضح المحقق ، ألا وهو خطر بريطانيا ؟

لعلّ خير من يجيب إجابة موضوعية عن هذا السؤال ، هو ابن أخت السيد جمال الدين الذي ألّف كتابه عن خاله دفاعاً عنه وإعلاءً لشأنه . يقول :

« إن جمال الدين لم يذكر خطر الاستعمار الإنجليزي على الشعوب الإسلامية في القارة الآسيوية ، ولم ينبه زعماء المسلمين في آسيا أو المسؤولين في الدولة العثمانية إلى هذا الخطر ، لأنه كان يستعين بإنكلترا في تسهيل زياراته للدول الإسلامية المختلفة التي زارها وقضى فيها مدة كأفغانستان والهند وإيران ومصر وتركيا ، فكان ممثلو إنجلترا في هذه الدول يرعونه وييسرون مهمته وتحركاته وأسفاره . فلم يكن منطقياً أن يهاجم جمال الدين دولة ترعاه وتيسر زياراته وتحركاته في دول لإنكلترا فيها نفوذ .. » .

ثم قال : « وعلى كل حال ، فإن عدم الإشارة إلى الخطر الإنجليزي في خطاب جمال الدين إلى المسؤول التركي الكبير ، وعدم التنبيه إلى هذا الخطر ، يعدّ أمراً لافتاً للنظر ، ما لم يكن سببه ما ذكرنا »[1] .

أقول : ولعل كلاً منا لا بدّ أن يتساءل : أليس هذا هو العذر الذي يعدّ أسوأ من الذنب نفسه ؟ أي أليس من المنطق أن نتساءل : فما الذي كان يجعل جمال الدين في

(١) حقيقة جمال الدين الأفغاني ٢/٢١ .

وضع يحمل إنجلترا على رعايته الرعاية المادية والمعنوية اللازمة ، وتيسير رحلاته وأسفاره الكثيرة ، وتغطية سائر تكاليفها ؟

☆ ☆ ☆

وبعد ، فرب سائل يقول : ولكن هذه النقاط في مجموعها من شأنها أن ترفع الغموض ، وأن تتلاقى على ضبط السيد جمال الدين في مواقف وتصرفات تدينه ، وتكشف عن وجه الحقيقة غير المشرّفة في حياته ، فلماذا تلح على تسميتها نقاطاً غامضة ؟

والجواب أن الذي جعل الغموض ملازماً لها على الرغم من تضافرها في مجموعها على مدّ أصابع الاتهام ، هو مواقف كثيرة أخرى عرف بها . وإني لأرى أن من أهمها أقواله ومقالاته التي كان يصدرها في (العروة الوثقى) التي كان يصدرها من باريس ، فلقد كان جميعها يدور على محورٍ من الدعوة الحارة إلى جمع كلمة المسلمين ، ونبذ أسباب الفرقة التي قد تتسرب إليهم .. كان يرد بمنطق بليغ وبحجة دامغة على من يمجدون التعصب للوطن ويحطّون من شأن العصبية الدينية (على حدّ تعبيره) فيرميهم بالغفلة ، وبأنهم أبواق المستعمر الذي يحاول توهين العصبية الدينية ، ليقطع الرابطة التي تجمع بين شعوبها . ويدلل على كذب المستعمرين وتدليسهم بأنهم أكثر الناس عصبية للدين في كل ما تجري عليه سياستهم[1] .

فما ينبغي لتلك المواقف الغامضة أن تنسخ هذه الحقائق الثابتة .. كما أنه لا ينبغي لهذه الحقائق التي أثارت أنظار العالم الإسلامي كله بالتأثر والإعجاب أن تشطب على تلك المواقف الغامضة التي تبعث الريب وتستثير عوامل التأمل والنظر .

ولعل من شأن الذكاء الخارق أن يبعث الاعتداد في النفس والثقة بالنجاح في

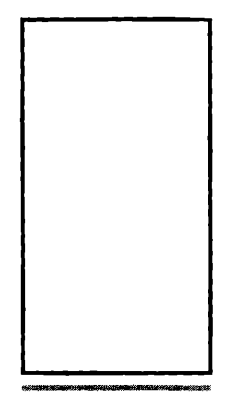
(١) انظر طائفة من مقالات جمال الدين الأفغاني في (العروة الوثقى) ، في كتاب (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر) للدكتور محمد محمد حسين ١٠٣/٢ و١٠٤ .

المغامرات وطرق الأبواب غير الآمنة .. ومن شأن الاعتداد بالنفس والثقة بالنجاح من وراء المغامرات أن يدفع صاحبها ـ ربما ـ إلى استغلال المؤسسات الهدامة والمذاهب الباطلة ، واستخدامها لنيل أهدافه وإنجاح خططه .

ولعل صاحب هذا الذكاء والاعتداد بالنفس يقول في سره : لماذا ينجح الهدامون والمبطلون في الكيد للإسلام وأهله عن طريق تظاهرهم باعتناقه والغيرة عليه ، ولا يتأتى لأهل الحق أن يكيدوا للباطل وأهله ، عن طريق تظاهرهم بالانتساب إلى باطلهم والانخداع به ؟..

لا أقول هذا تبرئة لجمال الدين مما قد يدينه ، ولكني أقوله تأكيداً لما بيّنته من أن في حياته وسلوكاته مواقف غامضة ، تحتاج إلى دقة في النظر والتحليل ، وإلى أناة في المقارنة وجمع أطراف الخيوط . ثم إن الحكم فيها يحتاج إلى موضوعية تامة ، وإخلاص صادق لدين الله عز وجل .

ولعلّ تعاوناً تتلاقى جهوده في ندوات ومؤتمرات تعاونية ، ينهي الغموض ويكشف عن الحق سجافه ، ويوصلنا إلى القرار العادل المطمئن . والحمد لله رب العالمين .



مصطفى حسني السباعي

صور لما بعد حياته الحزبية والسياسية

١٣٣٤ ـ ١٣٨٤ هـ

١٩١٥ ـ ١٩٦٤ م

مقدمة

الشيخ الدكتور مصطفى بن حسني السباعي واحد من أبرز رجالات سورية . عرفته مجامع دمشق وجامعتها عالماً محققاً جليلاً ، واعتزت به محافلها ومنابرها خطيباً فذاً مؤثراً يأخذ بمجامع القلوب ، وتألقت به مساجدها ومراكزها الثقافية داعية ، ذا قلب متحرق إلى الإسلام الحق ، البعيد عن جهالة التقاليد ، المحصّن بالعلم والمعتز بالدراية والوعي .

غير أني لن أتحدث عنه وعن شيء من سيرته يوم كان واحداً من أبرز جماعة الإخوان المسلمين ، ثم مرشداً لها في سورية ، فإن شيئاً من أيامه آنذاك لم يستوقفني ، بل لم أكن أعرفه إذ ذاك معرفة مخالطة وقرب .. وقد علمتَ أنني إنما أتحدث في هذا الكتاب عن الشخصيات التي استوقفتني وكان لي معها شأن .

وإنما سأتحدث عنه ، في المرحلة الثانية من حياته ، إذ أعلن حلّ جماعة الإخوان ، دعماً بل اندماجاً في الوحدة التي قامت بين سورية ومصر ، وتأمّل كما تأملنا جميعاً أن تكون نواة ومنطلقاً لوحدة عربية فإسلامية شاملة ، ولم يأل جهداً في التعبير عن مشاعره الحارة بالاغتباط بتلك الوحدة وتعليق الآمال الكبيرة عليها .

وما إن تخلى السباعي رحمه الله عن نشاطه مرشداً لجماعة الإخوان ، حتى أخذ يولي كل اهتمامه للعمل العلمي ، من خلال عمادته لكلية الشريعة ومحاضراته المتميزة التي كان يلقيها .. ومن خلال سلسلة مؤلفاته التي عكف على إخراجها ، وكتاباته الدينية والاجتماعية في المجلة التي كان يصدرها باسم (حضارة الإسلام) .

كان لي موقف وشأن مع الأستاذ السباعي رحمه الله في هذه الفترة الثانية من حياته ، فقد ظهر لي من شأنه ما دعاني إلى إكباره ، وما ملأ قلبي إعجاباً به وتقديراً له . بل لقد وقر في نفسي أخيراً أنه إنما كان واحداً من كبار العلماء الربانيين الذين طهرت قلوبهم بل نفوسهم أيضاً من عكر الأهواء والعصبيات والسعي إلى المغانم الدنيوية باسم الدين وتحت ستاره .

ولست أدري ، أكان إبّان نشاطه الإخواني متميزاً بهذه الصفات النادرة ، أم هي حالة من الصفاء أكرمه الله بها بعد ذلك .

أنا اليوم لا أكتب كلاماً جديداً عنه ، بل أضع القراء أمام ما قد كتبته يوم بلغتني وفاته وأنا في القاهرة أحضّر لنيل درجة الدكتوراه .. وأمام كلمة أخرى كتبتها في حياته ، إذ أودعت فيها انطباعاتي الحقيقية غير المتكلفة عن كتاب أصدره آنذاك سماه (هكذا علمتني الحياة) .

وقد خطر ببالي أن أعود فأصوغ ما كتبته آنذاك من جديد ... ولكني رأيت أنني إن فعلت ذلك ، ضيعت ما تحويه كتابتي السابقة عنه آنذاك ، من مشاعري المهتاجة وانطباعاتي الطبيعية غير المتكلفة ، وإذا كان البناء قائماً كما هو ، فهل في تقادمه ما يبرّر تفكيكه ثم إعادة تركيبه وصوغه ؟.. بل المعلوم أنه كلما تقادم قوياً راسخاً ، كان أكثر حفظاً لعبق ما كانت تحمله الأيام الخالية من مشاعر وأحاسيس ، مما يجعل الداخل إليه ينتعش بذلك نشوة وذكرى .

لذا فلن أجري قلم تغيير أو تجديد أو تنقيح على ما كتبته في بيان موقفي من هذا العَلَم الإسلامي الراحل . وإنما أقدمه للقارئ مرآة لشعوري الحقيقي آنذاك ، أي في النصف الأول من الستينات .

☆ ☆ ☆

أولاً : شخصية مصطفى السباعي
كما تبدو في كتابه (هكذا علمتني الحياة)

الصورة التي ينسجها مجموع ما أدبر عنه الدكتور مصطفى السباعي من آثار ومؤلفات ، في أذهان القراء ، هي صورة مجاهد يظل يغزو القلوب بسلاحين اثنين : سلاح من نار الثورة والحماسة ، وآخر من نور العلم والفقه والتشريع . وهو يبدو في كلا الحالين متدفقاً ثائراً ، مرة ينفث في القلوب ضرام الثورة والحماس ، وأخرى يحاكم العقول إلى حقائق العلم وروح القانون وهدي التشريع .

ولكن هذا الكتاب الأخير (هكذا علمتني الحياة) يشفّ عن صورة أخرى للدكتور السباعي . إنها ليست هذه المرة صورة ثائر يصول يمنة ويجول يسرة ، ولا صورة مجادل في الأبحاث يعطي مداً ويأخذ جزراً ، ولكنها صورة لجمال خاشع يسبح في مزيج من الإشراق الإلهي العظيم ، والسعادة الروحية الصادقة ، والحكمة البديعة الصائبة ، والذوق القلبي الذي يكرم الله به عباده العارفين .

إنها صورة لزبدة ما يثور المسلمون من أجله ، وما تعكف عقولهم عليه ابتغاء نيله ، ولا والله ما نفع علم ولا بحث ولا ثورة ، إن لم يتوج كل ذلك بإشراق من نور الله وقلب يفيض بالحب ، وحكمة تمخر ظواهر الأشياء إلى حقائقها . ولقد والله وقفت بالأمس خاشعاً بعد أن طويت آخر صفحة من هذا الكتاب ، مكبراً لهذا الرجل الذي لم يعد فقط ، كما كنت أحسبه ، زعيماً يسير في طريق الثائرين ، وعالماً يسلك سبيل المجتهدين . ولكنه اليوم ذواق أيضاً يسير في طريق العارفين .

ولقد تخيلته في كتابه هذا ، بعد الذي كتبه من أبحاث وتآليف ، كالماء العذب إذ

ينتشر رقراقاً يشفّ عما تحته في تـألّق وإشراق ، بعد أن كان يتصبب هـائجاً زخـاراً ، فيه لألاء الفضة وقوة الاندفاع .

على أن الماء العذب هو هو ، فيه جوهر الرقة والصفاء ، ولديه طبيعة الثورة والهياج ، سواء أكان يتصبب من راسيات الصخور ، أو يتجمع في الجداول ووسط المروج .

وتلك هي طبيعة المسلم الصادق في إسلامه : عمق في الإحساس ، وصفاء في النفس ، ورقة في القلب ، حتى وهو يثور قائلاً : صّبحكم مسّاكم .. وثورة في العزم ، وحزم في الإرادة ، حتى وهوْ يتفيّأ ظلال أهنأ الساعات من عمره .

ولقد هاجني هذا الكتاب الرّقراق العذب ، كما لم يهجني أي كتاب ثوري ينفخ في طوايا النفوس و يدق على أوتار القلوب ... ولقد أبكتني منه صفحات وصفحات ... ولقد وجدت فيه متعة روحي ووجداني ، ولقد استفقت من هذا الشعور على نوع الظمأ الذي أعانيه ، بل يعانيه معي كثير من الشبان المسلمين . إنه ليس الظمأ إلى الحماس (الحركي) باسم الإسلام ... وليس أيضاً الظمأ إلى مزيد من التحقيق والجدل والمناقشات . ولكنه ظمأ الروح إلى مناجاة خالقها ، والانتهال من معين حبه ، والتبتل لعظمته وحكمته وجلاله . وهل يشبه حال المسلمين في حماسهم الشعوري ، بدون أن يتعهدوا قلوبهم بهذا المعين ، إلاّ كمن يدلج بليل في طريق بدون سراج .

وليطمئن كل من يقرأ كلامي هذا على اختلاف وجهاتهم ، إلى أنني لاأكتب هذا الكلام مجاملة أو مداهنة .. فمن فضل الله عليّ وجليل نعمته أنني قد عشت إلى اليوم ، دون أن أستعمل قلمي مرة واحدة لمدح من لاأومن بفضله ، أو قدح من لا يطاوعني قلبي على ذمه .

و يعلم الدكتور السباعي وغيره من الناس ، أنني كتبت أكثر من مرّة ، أنتقده ، وأردّ على بعض أفكاره ، ومن الإنصاف أن أتحدث اليوم عما فاض به قلبي من أحاسيس

ومشاعر عن كتابه الجديد هذا ، وعن مدى إكباري لهذا الذي يفوح في كثير من كلماته ، في هذا الكتاب ، من رائحة القلب الملتاع بحب الله جل جلاله .

بل من الإنصاف أن أحدث الناس عما فوجئت به ، من الشعور الذي يكنّه الدكتور السباعي في نفسه ، حيال ما قد كنت كتبته من ردود على بعض أبحاثه ، ونقد لبعض مواقفه .

لقد قال لي : لعلك تحسب أن في نفسي شيئاً عليك ، بسبب كتاباتك عني .

ولقد سكتُّ إذ ذاك ولم أجب .. ولكنه تابع يقول : إن الإسلام يا أخي ليس فيه مجاملة . فاكتب جميع ما تعتقده وتراه ، فذلك واجبك . ولقد أحببتك لإخلاصك (هكذا يظن هو) وإنني أطمئنك أنه لن يتغير ما في نفسي عنك ، مهما كتبت عني بعد اليوم أيضاً من انتقادات وردود .

لقد كانت هذه المفاجأة كافية لأن تقنعني بإخلاص الأستاذ السباعي ، وتملأ جوانحي إكباراً لأخلاقه . والإخلاص سيد كل المعاني والأخلاق التي يحويها الضمير .

ومما أعرفه في نفسي ، أنه لا يأسر فؤادي شيء ، كالإخلاص في القول ، والصدق في الإحساس . ولقد وجدت في كتاب (هكذا علمتني الحياة) من دلائل الإخلاص والصدق في الإحساس ، ما هزّ فؤادي هزاً ، وجعلني أعيش في تلك الأحاسيس .

استمع إليه مثلاً وهو يقول : « يا زوار الحبيب الأعظم ، إذا وقفتم بين يديه ، فأبلغوه السلام من محب ، سفح الدمع يوم لقيه ، ومزق القلب يوم ودّعه ، وما خاس بعهده أن يزوره في كل عام ، ولكن عوائق الأقدار أبطأت به . فسلوه إن كان يحب محبّه ، أن يسأل له الله إطلاق سراحه . سلوه ، ولا تبلغوني عتبه إن كان عاتباً » .

واستمع إليه أيضاً وهو يقول : « يا حبيبي ، وحقك لولا ثقتي بحبك لعتبت عليك . ولولا علمي برحمتك لشكوتك إليك . ولولا ثقتي بعدلك لاستعديتك عليك .

ولـولا رؤيتي نعمتـك لاستبطـأت كريم إحسانــك . ولكني ألجمت الشــك بـاليقين ، والتسخط بالرضا ، والتبرم بـالصبر ، فلـك مني يـا حبيبي رضـا قلبي وإن شكا لسـاني ، وهـدوء نفسي وإن بكت عيوني ، وإشراق روحي وإن تجهم وجهي ، وأمـل يقيني وإن يئس جسمي ، فلا تؤاخذني بصنيع ما يفنى مني . ولك مما أعود به إليك ما تحب » .

هنيئاً لك يا سيدي نشوة هذا الحب ، وليزدك الله سعادة بنعيم هذا الرضا .

لقد سعدت بقطرات من الـدمع ، وأنـا أقرأ لـك هـذا الكلام .. لقـد شعرت بنعيم البكاء ، وأنـا أرى هـذا الـذي تمرّ بـه عينـاي ، فكم كان نعيمـك يــا ترى ، وأنت تكتب ما ينبع به قلبك !!

أستطيع يا سيدي أن أتصور أن سعادة احتراق القلب بحب الله ، لا تعدلها سعادة ، وأستطيـع أن أعلم أن شيئـاً من حِكَم هـذه الحيـاة وأسرارهــا ، لن يتجلى للقلب مــا لم ينعكس إليه وهج من نار ذلك الحب . فـادع الله للمسلمين أن يسعـدوا بهـذه اللوعـة كما دعا لهم محمد إقبال بذلك من قبل .

أما نحن ، فنـدعو من صميم الفؤاد أن يضمّ الله لـك إلى سعـادة هـذا الحب ، سعـادة البرء والشفاء ، وأن يجمع لك بين راحة القلب والجسم .

واطمئن يا سيدي أنك ثائرٌ في خواطرك الرقراقـة الهـادئـة هـذه ، كما أنت ثـائر في مقدمة صفوف المجاهدين أو في طليعة المنـاضلين . وإن مكان مثل هـذه الخواطر لمستقرّ في مقدمة الركب الإسلامي الثائر ، وإن كنت قد أبيت إلا أن تظن نفسك متنحياً عن الركب ، وأن تقول :

لا تلـومــوه إن تنحى عن الركـ ـب قليــلاً فجسمـــه غير ســـالم

سلّمك الله كما تحب ، وسلّم للمسلمين قلبك وأشواقه كما يحبّ . وسلّم حياتك وقلمـك ذاخرين بنور الإيمان ودعوة الإسلام والثورة للحق .

ثانياً : خصائص في حياة السباعي[1]

يا لضعف القلم حينما يطلب منه وحده أن يسجل كلمة الحق ، وأن يتحدث عن نفاثات الصدور ، وأن ينقلب إلى عين قريحة تبكي الحق وأهله ، وأن يتحول إلى حربة وسنان ليجاهد الباطل ويصول في ميدان الشرف ، ثم أن ينبض وحده بكل ما يحمله هذا القلب الملتاع من الأحاسيس المحرقة ، والآلام الممضة ، والمشاعر الخانقة .

إنني لأحمل الساعة هذا القلم بين أصابع ترتجف ، وفي القلب طوفان من اللهب الذي لا يهدأ ، وفي الصدر نحيب يختنق ، ولوعة لا تبين . وفي الحلق غصة ، وفي اللسان عقدة . فماذا عسى أن يحمل القلم من ذلك كله ، ومن أين له أن يترجم عذاب النفس كله ، على ما فيه من ضعف في الإبانة ، وعلى ما حُمِّل من قيود وأغلال .

إذا أغمضت عيني عن كل ما حولي ، لأمضي بفكري إلى ماض قريب ، تذكرت مثل هذه الأيام إذ كنت في القاهرة وفاجأني النبأ الأليم ، بأن الداعية الإسلامي العظيم الأستاذ مصطفى السباعي قد توفي .. قد انتقل إلى جوار ربّه ، بعد أن غبر حياته مجاهداً في سبيله .. لقد أصابني يومها دوار شديد ، أعقبه تخبط في النفس ، وتصدعت المشاعر والأفكار وراء صدري ، كما تصدّعت صخرة أهويتَ عليها بمطرقة عاتية ثقيلة ، بعثرتها إلى حصى متفرقة . فما أملك وسيلة لجمع شتاتها في ذهني ، ولا سبيلاً للتعبير عنها بلساني .

ولقد كان لي العذر أن يكون وقع الخبر إذ ذاك ، على نفسي ، بكل هذا العنف !.. فقد عاقتني الظروف عن معرفة الأستاذ السباعي رحمه الله ، إلا بعد أن وقع

(١) كتبتها في الذكرى الثانية لوفاته .

في قبضة المرض .. ذلك المرض الأليم الذي ظل السباعي يغالب كل ما فيه من عنف وشدة ، كي لا يقعد عن حمل أعباء الدعوة وخدمة الإسلام يوماً ، ولا يلقي قلم الجهاد عن يده ساعة .

لقد عرفت الأستاذ السباعي معرفة اختلاط وقرب ، في غمرة صراعه هذا . ومن قبلها لم أكن أعلم عنه شيئاً ، إلا كما يسمع عامة الناس باسمه ، دون أن يعلموا شيئاً من ترجمته أو الجلّي من أمره .

لقد وجدتُني يومها أبصر إنساناً امتزجت آلام المرض في جسمه ، بلوعة الدعوة الإسلامية في قلبه ، وربت بين جوانحه محبة إلّهية عارمة ، فغدا مرضه الجسمي مؤثراً جديداً في لوعته القلبية ، وأخذت آلامه المبرّحة ، تذكي محبته الإلهية العارمة . فلم يكن يعاني في مجموع أمره إلاّ آلاماً تنبعث من القلب ، وإن كانت تتجمع فيه من أنحاء الجسم كله ، ومن ثم فلم يكن ليترجم هذه الآلام يوماً ما إلى شيء من التأوهات الجسمية . وإنما كان يعبّر عنها كلها بمزيد من عمله الإسلامي الدائب ، وجهاده اللساني والكتابي الذي يستمر ولا يكلّ !... إي والله ، وكأني أنظر إليه الساعة ، وهو يستقبل نوبات من الألم الحادّ في جسمه دون أن يتبدّى ذلك إلاّ في تقبض يسير في وجهه ، ومزيد من الانشغال بما بين يديه من كتابة أو دراسة أو بحث !..

كان في غمرة مرضه ذاك يحمل على عاتقه عبء إخراج مجلّة (حضارة الإسلام) مستمرة دون تقطّع .. وكان يأبى ، إلى جانب ما يقوم به من كتابة افتتاحيتها ، إلا أن يكتب مقالاً رئيسياً آخر فيها !.. ثم يأبى ، إلى هذا وذاك ، إلاّ أن يحرر بيده بعض الأبواب الدائمة فيها . ثم كان لا ينقطع خلال ذلك يوماً واحداً عن عمله في البحث والتأليف ، ويسعى فوق ذلك إلى الجامعة ليلتقي مع طلاب الشريعة وغيرهم في محاضرات وحلقات بحث منتظمة دائمة . وهيهات أن تشعر ـ وهو يهدر بالتوجيه والإرشاد ، المنبعثين من أعماق قلب متأجج ، ويردّ باطل المبطلين ، ويكشف عن

تلبيس الملبسين بمنطق علمي غزير ـ هيهات أن تشعر أثناء ذلك بأنك أمام إنسان مريض يعاني من تشنج هائل في نصفه الأيسر ، ويستقبل بشكل مستمر نوبات من الألم الممضّ العنيف !... بل هي القوة المتدفقة ، تنبعث من جميع أعصابه ومشاعره ، في استرسال مستمر ، قد يزيد على الساعتين !..

وإنك قد تجد عند بعض الناس ، مثل هذا التفاني ، مع مثل هذه الآلام لغرض من أغراض الدنيا أو لشهوة من شهوات النفس ، فلا يكون ذلك غريباً أو عجيباً .

ولكني قد بلوت الأستاذ رحمه الله ، فما رأيت بين جنبيه إلا دافعاً وغرضاً واحداً ، هو أن تكون حياته ـ في السلامة والمرض ـ في سبيل الله وحده . وربما يصيبه ما يصيب كل إنسان من الخطأ في البحث والرأي ، ولكنه على كل حال لم يكن ليسعى إلاّ نحو هدف واحد فقط ، هو إقامة مجتمع إسلامي سليم لا يسود فيه إلا الحق والخير ... وما رأيته مرة يحقد على خصم أو يتألم من إنسان ردّ عليه رأيه أو خاصمه في بحث من بحوثه . وقد كنت كتبت في الرد على بعض آرائه ، كما سبق أن قلت ، ولقد توقعت بعد أن ضمني إليه العمل في كلية الشريعة ، أن أجد لديه بعض التأثر أو التألم من بعض ما قد كتبت في حقه ... ويبدو أنه أدرك ما كان يجول في نفسي ، فقال لي مرة ، وهو يتجرع آلام مرضه غصة وراء غصة :

يبدو أنك تظن أني عاتب عليك ، اسمع ياأخي : إن الإسلام لا مجاملة فيه . ونحن جميعاً جنود لهذا الدين وحده . فمن واجبك أن تكتب وتدعو إلى ما ترى أنه الحق . وأنا أطالبك بإلحاح أن تظلّ على ما كنت عليه ، بنفس الطريقة والأسلوب مادام أن القصد هو : وجه الله وحده .

وإني لأذكر أنه استمرّ في حديثه في هذه الجلسة نفسها ، إلى أن وصل إلى كلمة دمعت عندها عيناه ، حينما قال مشيراً إلى كلية الشريعة : إنني سعيد أن أرى هذا الغراس وقد أينع .. وهيأ الله له حماة ودعاة أرجو أن يكون هدفهم الأول والأخير ،

بذل كل ما يملكونه في سبيل هذا الدين وحده .. من أجل هذا فإنني لا آسى على شيء في الحياة حينما أجدني أدنو رويداً رويداً إلى الموت .

لا أكتمك يا قارئي أنني ما ندمت على شيء في تلك الساعة ، ندمي على أني لم أعرف الأستاذ السباعي على حقيقته إلا بعد أن صرعه هذا المرض الأليم !.. وما رجوت الله شيئاً في تلك الساعة كرجائي أن يشفيه الله من ألمه ، كي أوضح وأثبت له أن هذا الذي طالما كتب يناقش بعض أفكاره ، لن يعوقه شيء عن أن يسير معه على خط واحد من الدعوة الإسلامية وجهاد القلم واللسان طبق هذا المنهج الرباني السليم .. وما أسهل أمر الخلاف في الرأي ، بل الغلط في البحث في بعض الأحيان ، عندما لا يكون منشؤه غرضاً في النفس أو مصلحة من مصالح الدنيا ، وإنما يكون القصد بلوغ مرضاة الله عز وجل .

وتعلقت آمالي بالرحمة الإلهية أن تتداركه بالشفاء .. ولكن الرحمة الإلهية أرادت له الشفاء من أوصاب هذه الدنيا كلها ، فنقله قضاء الله إلى جوار خالقه الكريم في لحظة لم يكن متشبثاً من هذه الدنيا كلها إلاّ بقلم ينافح به عن الإسلام ، ومكتبة يستعين بها للكشف عن حقائقه وكنوز شريعته وهديه ، وقد انفضّ عنه كل من كانوا عوناً له وجنوداً من حوله ، أيام كانت الدوافع الحزبيّة هي الجامعة والمحركة . بل كانت مواقفهم منه أقرب إلى التثبيط منها إلى الإعراض والتناسي !!

☆ ☆ ☆

أعود بعد هذا لأفتح عينيّ على الدنيا التي من حولنا اليوم .

أعود لأرهف السمع لدقات الساعة التي تمر بعمر الزمن ... لقد فقدنا السباعي رحمه الله كما فقدنا الكثيرين من أمثاله . أمّا هم ، فقد انتقلوا إن شاء الله تعالى إلى فراديس الجنان ، في مقعد صدق عند مالك السماوات والأرض ... وأما نحن فأشتات

متفرقون ويا للأسف ، نعاني من فراغ هائل في التوجيه القويم ، وفي القيادة الرشيدة ، وفي التضحية المقدسة .

أما والله ليس الذي فقدناه في السباعي رحمه الله شخصه الذي عرفناه ، ولا الإنسان الذي ألفناه ، إنما الذي فقدناه فيه ثم لم نعوِّض عنه بغيره ، الأمور التالية :

أولاً : العمل الدائب الإيجابي من أجل الإسلام ، فقد كان واضحاً لكل من عاشره وعرفه ، أنه لم يكن يرى في لقمة الطعام التي يأكلها ، ولا في بيته الذي يؤويه ، ولا في الدنيا البسيطة التي تطوِلها يداه ، ولا في الصحب الذين يراهم من حوله ، ولا في الأنفاس الصاعدة والنازلة وراء صدره ، إلاّ أدوات ووسائل تستعمل من أجل العمل الإسلامي الذي يقربه إلى الله .

وما كان يوماً ما ليجعل العمل الإسلامي أداة أو وسيلة لشيء من مصالح الدنيا وأغراضها . وما عرف عنه يوماً ما أنه كان يكتفي من العمل الإسلامي بأن يتكئ على أريكة ، ثم يصرف الوقت كله في نقد الناس والبحث عن دخائل أعمالهم وتتبع معايبهم .. بل لقد كان من صفاته المعروفة ، أنه يفرح الفرح الشديد في براءة وطيب صدر ، إذا ما قيل له عن عمل إسلامي سليم قام به بعض الناس أياً كان نوع العمل ، ومن أي فئة كان أولئك الناس . وفي ذهني أمثلة كثيرة لذلك لا مجال لسردها الآن .

ثانياً : كفاءة القيادة الإسلامية في شخصه ، وإنها لحقيقة صدقها التاريخ الحافل لحياته . وحسبك أن تعلم أنه لم يعتصر من عمله القيادي شراباً ينتشي به في ظلال الطمأنينة والرخاء . وإنما ترك القيادة نفسها هي التي تعتصر شبابه وحياته ، تورده المخاطر ، وتهوّن عليه المصائب . وإن جرأته أمام جيوش الباطل ، لم تكن حلماً يداعب خياله ، بل عزيمة تملأ حياته . ولذلك ، فما كان ليترجمها يوماً إلى أقوال رنانة ، يسعد بتكريرها في المجالس أو على ذرا المنابر . وإنما كان يترجمها إلى عمل بناء يمخر به عباب

المخاطر . وما كان ينتظر على كل ذلك أجراً من المال أو الجاه في دنياه . وهو الذي يقول في بعض كلماته : « لو عمل كل العاملين انتظاراً للجزاء في الدنيا ، لماتوا هماً وكمداً » .

ولو أنه مدّ يداً لقبول شيء من الدنيا ، وأغمض العين عن النظر إلى العقبى ، لجمع من المال قدراً غير يسير ، ولما ترك من خلفه صبية وأولاداً ، ليس لهم من نشب الدنيا ومتاعها إلا حسن الاتكال على الله وحده .

صحيح أنه لم يجمع إلى ذلك كله ، العصمة من الزلل ، فقد كان يخطئ ربما ، ولعله كان يحاول في بعض الأحيان أن ينتهي إلى غاية نبيلة صحيحة ، فيسلك إلى ذلك سبيلاً غير صحيح ، ولكن مثل هذا لا يمكن أن يبخس شيئاً من فضائله ، ولا يُعقل أن ينسخ به بقيةً ما كان يتمتع به من عظيم خصائصه وأخلاقه .

ثالثاً : لوعة القلب ... تلك اللوعة التي كان يبحث عنها محمد إقبال في صدور خريجي المدارس والمعاهد الجديدة دون جدوى . وأخيراً أدرك أن الأسرار العظيمة التي حجبتها هذه المدارس عن الشبان ، لا يمكن أن تظهر إلا في خلوات الصحارى والجبال .. هذه اللوعة كان منها في قلب الأستاذ السباعي رحمه الله قدر غير يسير .

كان أكثر ما يحركه ويدفعه إلى العمل المتواصل المضني ، هذه اللوعة التي تغمر قلبه ، وتلك هي السنة الإلهية التي فطرت عليها طبيعة الإنسان في الحياة ، له عقل في رأسه به يفكر ويؤمن . وله قلب بين جنبيه به يحبّ ويبغض . وما كان للفكر العقلاني وحده أن يهيج بصاحبه ويحمله على بذل شيء من الطاقة والجهد . ولم يسمع عاقل من الناس أن مسألة في الجبر أو قاعدة في الرياضيات حملت أحداً من الناس ، على عمل من أعمال التضحية والفداء .

وإلاّ فكم في الناس من مستشرقين ومدركين لكثير من حقائق الدين وأحكامه ، ومع ذلك يظلون ، من حيث أعمالهم السلوكية ، سادرين في ظلمات من الغيّ .. وكم في الناس من رجل مشرق العقل والتفكير ، ولكنه مظلم القلب والروح ، فلا يستر

الأول شيئاً من عوار الثاني .. وكم في المسلمين ودعاتهم من أناس لا يعجزهم أن يحلّوا معضلات الدين وأن يبينوا أحكامه في عقلانية دقيقة واعية ، ولكن أعينهم لا تعرف الدموع ، وأفئدتهم لا تذوق الخشوع ، فلن تجد أي فائدة أو تأثير لعقلانيتهم الجامدة ، ولن تجد في هؤلاء الناس من يتخلص يوماً ما من رطانته الفكرية وأثقالها ، كي يندفع في سبيل من سبل التضحية وتحمل الجهد والمشاق .

إنّ لوعة الحب وحدها ، هي السَوْط السائق والتيار المحرك . والحب هو وحده الذي يبذل الجهد شوقاً إلى المحبوب ، فيسهل بذلك عليه الصعب ، ويقرب أمامه البعيد ، وتفنى القوى ، وتذوب الحياة ، ولا يرى أنه قد أوفى بعهد المحبة ، أو قام بواجب شكر النعمة .

لقد كانت هذه اللوعة هي الوقود الذي كنت أراه دائم الاشتعال وراء صدر السباعي عليه رحمة الله ، منذ أن عرفته . فيحمله على العمل الدائب وتحمل الجهد المؤلم ، دون أن يحس بنصب أو مشقة ، بل كان على العكس من ذلك ، يرى فيه لذة وسعادة غامرة .

ولا أنسى يوماً التقى فيه فضيلة الأستاذ والدي رحمه الله بالمرحوم السباعي ، فراح **الوالد يدعو له متأثراً ، بالشفاء من مرضه ، فقال له المرحوم السباعي ، وقد اغرورقت عيناه بالدمع :**

« يا سيدي إذا كان شفائي من المرض يحرمني من حالتي القلبية هذه مع ربي عز وجل ، فأنا أشهدك أنني أفضل بقاء المرض على أن لا أحرم سعادة هذه الحال !.. » .

لقد كان الذي فقدناه بفقد السباعي رحمه الله ، عملاً إيجابياً دائباً ، وكفاءة قيادية رائعة ، ولوعة قلبية ثائرة .

صفات ثلاث ، يحق لنا أن نبكيها في ذكرى انقضاء عامين على وفاة السباعي

رحمه الله فقد اجتمعت هذه الخصائص الثلاث في حياته ، وقلما اجتمعت في حياة إنسان في هذا العصر .

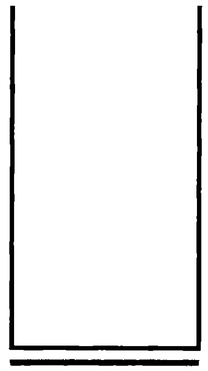
☆ ☆ ☆

يا قارئي العزيز : هذا ما كتبته في أوائل الستينات : كتبت الجزء الأول منه أثناء حياته عام (١٩٦١) ، وكتبت الجزء الثاني منه بعد وفاته عام (١٩٦٥م) .

وها أنا اليوم (ونحن في أواسط عام ١٩٩٩م) أجدني أكثر قناعة ويقيناً بما قد كتبته في حق هذا الإنسان الذي لن يطربه اليوم مدحي ، ولن يجرحه قدحي .. ولا سيا بعد أن مرت أحداث وأحداث ، ورأيت بعيني كيف يتخذ الدين ، لدى كثير من سدنته ورعاته في الظاهر ، مصدر تجارة ورزق ، ومدخلاً إلى زعامة ومكانة وحكم .

حسبك منه أنه تجاهل صلة ما بينه وبين جماعته سعياً إلى مرضاة الله ورعاية لأخوة الإسلام . وحسبك من كثير ممن جاؤوا على أعقابه أنهم يتجاهلون ما به تكون مرضاة الله ورعاية الأخوة الإسلامية ، سعياً إلى ما به تتحقق مرضاة الجماعة ، وتستجر المغانم .

على أن الدنيا لا تخلو من مسلمين ربانيين مخلصين في دعوتهم وجهودهم وجهادهم ، وإن قلّوا .



روجيه غارودي

في الميزان

متى عرفت غارودي

عرفت روجيه غارودي ، وهو في أوج عنجهيته ، زعيماً ماركسياً ، ورسول تجديد للاشتراكية المادية ، لا في فرنسا وحدها ، بل في أوربا كلها ..

كان ذلك في الملتقى الفكري الذي عقد بتمّراست في جنوب الجزائر ..

لقد ضاق يومها ذرعاً بالنقاش الذي توجه إليه من كل صوب ، بسائق من أمل التغلب على أفكاره المادية .. وقَطَع دابر مناقشاتهم ، معلناً أنه ماركسي النزعة والتفكير ، فلا يطمعنّ أحدٌ منه بأكثر مما قد ألزم نفسه به ، ألا وهو تجديد الفكر الماركسي ودفعه إلى مسايرة الحضارة الأوربية الحديثة . ثم إنه فارق جلسات الملتقى صباح اليوم التالي ، وسافر مستنكراً غاضباً !..

ثم عرفته ورأيته ، وهو في أبرز مظاهر تبتّله وعبوديته لله عز وجل ، مستسلماً لشرعته وسلطانه !.. وكان ذلك في الملتقى الفكري الذي عقد في قسنطينة بالجزائر أيضاً . لقد أتْبعتُه بصري يومها ، وقد خرج ضيوف الملتقى مع الغروب من قاعة المحاضرات في جامعة قسنطينة ، في أعقاب يوم حافل ، ورأيته انفرد عنهم ، وقد اتجهوا جميعاً مسرعين إلى الحافلات التي تنتظرهم لتعود بهم إلى مقرّهم في الفندق الذي يقيمون فيه . وتلفَّت هو ، يبحث عن المسجد الذي يجتمع فيه الطلاب للصلاة !.. واندمج الرجل في فلول الطلاب مُتجهاً معهم إلى المصلى الكبير المتواضع لأداء صلاة المغرب .

وفي المصلى ، وقع نظري عليه ، وكان يتقدمني بصف . وأخذت أرقبه وأتأمل في صلاته ، وهو بين ذلك الحشد من الطلاب .. استزاد بعد الفريضة من النوافل ما شاء ،

وراح يطيل القيام والركوع ، ولما هوى ساجداً ، لبث في سجوده طويلاً لا يرفع رأسه .. ونظرت إلى وجهه بعد أن استقرّ جالساً وقد تضرج بحمرة قانية !.. كان واضحاً أنه لم يكن يحفل بشيء مما حوله ، وأنه مندمج في صلاته مع الله عز وجل ، أكثر من أكثر الذين كانوا يصلون حوله ، ولعلّي واحد منهم .

كان هذا المشهد المتبتل بعد تلك العنجهية المتعجرفة ـ وقد رأيت المشهدين وليس بينهما أكثر من عامين ـ ذا دلالة كبيرة في عقلي وتأثير عظيم في نفسي !... ومهما استعنت بالقلم والبيان ، فلن أبلغ إلى التعبير عن معشار هذا التأثر الذي أخذ بمجامع كياني كله !.. ثم إني رأيت هذا المشهد دليلاً لا يقبل الريب عندي على أن الرجل صادق مع نفسه في الإسلام الذي اعتنقه ، بمقدار ما كان صادقاً مع نفسه من قبل في العنجهية التي كان مأخوذاً بها .

ثم إننا تعارفنا وتلاقينا بعد ذلك ، في عدد من المؤتمرات والملتقيات . وتباحثنا في أمور الدين ومشكلات الحضارة ، دون أن أفاجأ خلال ذلك بما يريبني منه أو يشككني في إسلامه .

اهتم روجيه غارودي في السنوات التي تلت إسلامه ، بالسعي إلى بعث فكرة الوحدة الدينية المتمثلة في الحنيفية السمحة التي بعث بها أبو الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وجذْب العقلية الأوربية من خلال ذلك إلى الإسلام .

إنني لم أعلن فقط موافقتي على هذه الفكرة ، بل أعلنت أيضاً عن إكباري لهذه الدقة العلمية في دراسة جوهر الدين الحق الذي لا يمكن إلا أن يكون ديناً واحداً ، صاحب الإنسان منذ فجر وجوده . وهو ما قد أكده القرآن في أكثر من موضع .. وإنما تفرع هذا الدين الواحد إلى أديان متخالفة ، بدافع اختلاقات ساقت إليها عصبيات متحكمة ، أو مصالح وأهواء مسيطرة . تشهد بذلك التطورات الدينية التاريخية

المعروفة ، منذ فجر بعثة المسيح ، إلى أن استقرت الأمور لقسطنطين على النحو الذي خطط له في مؤتمر نيقية .

إن هذا الذي عرفه وتذوقه غارودي عن حقيقة الدين ، ثم نهض يعلن عنه ويدعو إليه ، في قلب أوربة ، جزء لا يتجزأ من المبادئ الاعتقادية الكبرى في الإسلام . ومن ثم فهو أمرٌ يجب أن يلقى من المسلمين ـ بعد اعتقادهم به ـ كل دعم وتأييد ، مع تبصيرهم له بالضوابط التفصيلية التي قد لا يكون بصيراً بها .

ولكن المؤسف أنها حقيقة يجهلها كثير من المسلمين التقليديين الذين يُفترض أن يكونوا أسبق منه في معرفتها والتبصّر بها !.. مسلمون ، ويتصورون أن الله أنزل على عباده أدياناً سماوية شتى ، وأنه خيَّرهم في اعتناق ما يطيب لهم منها ، وأنه جعل لكلٍّ منها رسولاً يدعو إليه وينشر في الناس مبادئه وتعاليمه ؛ يتصورون هذا دون أن تسألهم عقولهم : كيف يتأتى من الإله الواحد أن يخيّر عباده بين عقائد متناقضة وتطبيقات سلوكية متخالفة ؟!.. ودون أن يتذكروا قول الله الذي تذكره ووعاه من دونهم روجيه غارودي : ﴿ شَرَع لَكُم مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى به نُوحاً والَّذي أَوْحينا إِلَيكَ وما وصَّيْنا بِهِ إبْراهِيم وموسى وعيسى أنْ أَقيموا الدِّينَ ولا تَتَفَرَّقوا فيه ﴾ [الشورى : ١٣/٤٢] .

☆ ☆ ☆

تلك هي آخر معلوماتي المباشرة عن أنشطة روجيه غارودي وبرامجه وأنشطته الإسلامية ، إذ انقطعت صلتي به منذ سنوات ، ولم أعلم جديداً من أمره من بعد .

غارودي ومجلة (المجلة)

غير أني اطلعت ، منذ حين ، على حوار أجرته معه مجلة (المجلة) ، استوقفتني فيه آراء وأفكار نسبت إليه ، ليس لها أي وجه من الصحة ، ولا تتفق مع ما أعرفه من صدق إسلام الرجل ، كما لا تتفق مع ما رأيته من سلوكه !..

لقد داخلتني الريبة في أن يكون الرجل قد آل أمره فعلاً إلى أن ينتكس في فهمه للإسلام وتعامله معه وتطبيقه له إلى هذا الحد !... ثم ازدادت الريبة لديّ عندما رأيت الصحافي المحاور ينقل عن لسان غارودي أن مشادة قامت في إحدى الملتقيات بينه وبين الشيخ يوسف القرضاوي في الجزائر ، كان من نتائجها أن احتج القرضاوي وغادر القاعة مغضباً !...

وهنا ، وبالمناسبة ، لا بّد من أن أعبر عن عجبي للتعليق الذي أدلى به الشيخ القرضاوي ، عندما سأله الصحافي المحاور في المجلة ذاتها ، بل في العدد ذاته ، عن حقيقة هذا الذي يقوله غارودي ، فقد قال : لم تقع بيني وبين روجيه غارودي أي مشادة من هذا القبيل ، ولم أقاطع المؤتمر لهذا السبب ولا لغيره . ثم قال : لعل الذي جرت معه هذه المشادة وغادر القاعة هو البوطي !!!..

وأقول : ما من ملتقى حضره روجيه غارودي في الجزائر ، إلا وكنت أنا والشيخ القرضاوي مشتركين فيه ، ومن ثم فإن بوسعي أن أؤكد أن أي مشادة أو سوء تفاهم لم تقع بين القرضاوي وغارودي . وإذن فلم يقع ما يستوجب مقاطعة أحدهما الملتقى . وهذا الذي عرفته عن مشاهدة وحضور ، يعرف مثله بالضرورة الشيخ القرضاوي عني

عن مشاهدة وحضور أيضاً . فهو يعلم أن أي خصومة فكرية لم تقع بيني وبين غارودي ، ومن ثم فلم أقاطع أياً من جلسات الملتقى كما تصور وافترض !..

ثم إن الريبة تحولت ، فداخلتني من أمر هذا الحوار كله ، عندما علمت أن روجيه غارودي أعلن أنه لا علم له بكثير مما نسب إليه من خلال الحوار الذي أجرته معه مجلة (المجلة) !..

ثم إن الريبة ازدادت لديَّ ، عندما تبيّن أن توقيت هذا الحوار جاء متزامناً مع مواقف غارودي المعلنة من الصهيونية العالمية وإسرائيل ، والتي أفرزت كتابه (الخرافات المؤسسة للسياسة الإسرائيلية) .

المهم ، أن شائعة سرت ، بعد موقف غارودي هذا ، في أوساط كثيرة ، بأنه قد ارتدّ عن الإسلام !... وقال قائلون : إن الرجل تظاهر بالإسلام ليفسده من داخله ، وكأن موقفه العدائي المعلن من الصهيونية العالمية ، هو الدليل على رغبته في أن يفسد الإسلام من داخله !...

ثم تناقلت الشائعة ألسنةٌ وأقلام ، وصيغت تعليقات كثيرة ومتنوعة في حقّ الرجل ، على هذه الشائعة التي انطلقت تنتشر في الأوساط منذ ذلك الحين !

وقبل أن أتحدث عن رأيي في هذه الشائعة وما ترتب عليها ، ينبغي أن أتساءل :

أمن الحق أن نثقل أعناقنا بأحكام غيابية ، قد لا نعثر على أشنع منها ولا أخطر ، اعتماداً على أنباء ولقاءات صحافية ، قد تختفي وراءها عوامل وخلفيات شتى ، دون أي تريث أو تحقيق ؟.. ولقد راجت أخيراً سوق الأحكام الغيبية بالردة . اعتماداً على أي تهمة ، أو اعتماداً على أي قال أو قيل ، دون أن يكون للإسلام وشرعته أي وجود مهين في هذه الأسواق الرائجة !..

إنني لا أنكر أن تعامل غارودي مع الإسلام ، صاحبَه كثير من الأخطاء ، ربما في

فهمـه .. ولكن المسلمين الـذين بـالغوا في الاهتمام بـإسلامـه والاحتفـاء بفكره الـديني ، يتحملون مسؤولية كثير من هذه الأخطاء !...

ذلـك لأن الرجل مـا إن أعلن إسلامـه ، حتى أخـذ كثير من المـؤسسـات والجهـات الإسلامية ينظر إليه على أنه تحول فجأة من منظّر مـاركسي إلى منظّر إسلامي كبير .. وراحت هذه المؤسسات تتسابق إلى دعوته إلى مؤتمرات وندوات فكرية إسلامية ، لتفيد من فكره الإسلامي الفـذّ ، ومن معـارفـه الإسلاميـة التي قـد تسـاهم في حلّ مشكـلات المسلمين ، **وكأنّ الرجل قد خُلِق للتوّ واحداً من كبار المتخصصين بالإسلام وعلومه .**

وللحقيقة أقول : إن غارودي لم يكن ينظر إلى نفسه على هذا الاعتبار .. بل لقـد كانوا يـدعونـه محـاضراً ومعلّماً ، فيستجيب دارسـاً ومتعلمـاً .. وكان واضحـاً أنـه يحـاول الاستفادة من كل ما يسمع ، حاملاً أوراقه ، عاكفاً على تقييد كل ما يسمعـه من معـارف وفوائد لا علم له بها ، أثناء المحاضرات والمناقشات .

غير أنه كان مضطراً في الوقت ذاتـه ، إلى أن يتحـدث عن أفكاره ووجهـات نظره من خلال ما قد يكلَّف به من محاضرات ومحاورات ونحوهـا ... ومن غير المتوقع أن تـأتي أفكاره وتصوراته الإسلامية كلها ، صائبة ودقيقـة ، كما لو كانت عصـارة سنوات طويلـة من الدراسة المتخصصة في الإسلام وعلومه .

ومن جهة أخرى ، فقد رأت بعض المحاور السياسية المتنافسـة في منطقتنـا العربيـة والإسلاميـة ، أن الرجل بـاسمـه العـالميّ الكبير وتوجهـه الإسلامي الجـديـد ، يمكن أن يكون مبعث كسـب سياسي ، ومصدر سمعة إعلامية مفيـدة لهـا ، لو تمّ استغلال توجهـه الإسلامي بدقة متناهية .. فكان أن تسـابقت هـذه المحـاور إليـه ، تخطب ودّه ، وتعلي من شـأنـه ، وتعرض عليـه خـدمـاتهـا ، وتـوحي إليـه أن ينـوّه بشـأنهـا وأن يسير على نهجها !..

وللحقيقة أيضاً أقول : كان من اليسير لهذا الرجل أن ينتهز فرصة تسـابقهم إليـه ،

ابتغاء تحقيق مصالحه ، كما انتهزوا هم فرصة إسلامه ابتغاء السعي إلى مصالحهم .. ولكنّ شيئاً من ذلك لم يظهر في طريقة تعامله معهم . فقد ظل يحشد كل اهتماماته الفكرية ونشاطاته المعرفية والسلوكية لخدمة قناعاته الإسلامية التي هيمنت على مشاعره ، واحتلت مركز القناعة من عقله ، دون أن يفوز أي من تلك المحاور بشيء من الأطماع التي كانت معلقة عليه ، ودون أن يطمع هو منها بالوصول إلى أي من المغانم التي يسعى إليها كثير من المسلمين التقليديين ، بل يجعلون من إسلامهم مطية ذلولاً إليها .

فكانت النتيجة التي أعقبت خيبة الآمال المصلحية التي كانت منوطة به ، أن عاد أصحاب تلك الآمال ، فاتخذوا منه موقف المستهين بشأنه ، ثم المعادي له ، والمشكك في إسلامه ، وراحوا يتلمسون له الأخطاء والعثرات ... وكأنهم يستردّون بذلك الثقة التي كانوا قد منحوها إياه !..

والذي أجزم به ، أنه لا الاهتمام الأول بشأنه ، كان نتيجة ثقة بصدق إسلامه ، ولا تهوينهم من شأنه بعد ذلك ، كان نتيجة شكوك ساورتهم بصدق إسلامه ... وإنما هو الانقياد في الحالين وراء مصالح أطمعتهم به في بادئ الأمر ، ثم أيأستهم منه فيما بعد ... ثم إن مواقفه المعلنة عن إسرائيل ، وكتابه الوثائقي الذي أصدره عنها ، حرّك الدوائر الصهيونية في أوربا ضده ، وحرّك عملاءها في العالم العربي والإسلامي لتحطيم سمعته ، ولبعث أسباب الريبة في إسلامه .

☆ ☆ ☆

والآن دعنا نتساءل : ما هي القناعة العقلية والمنطقية التي ينبغي أن ننتهي إليها في أمر إسلام (روجيه غارودي) ، على ضوء كل هذا الذي كتب عنه وقيل في حقه ، بقطع النظر عن الملابسات المتزامنة الهامة التي أشرت إليها ؟

إن ما رأيته بعيني ، من تحول غارودي من أقصى درجات عنجهيته إذ كان لا يزال ماركسياً ، إلى أقصى درجات التذلل لله عز وجل ، في مصلى متواضع ليس فيه إلاّ

طلبة جزائريون ، من الطبقة المتوسطة فما دون ، وقد انفضّ العلماء والمحاضرون والدعاة الإسلاميون ، إلى بيوتهم أو فنادقهم طلباً للراحة ، مترخصين في تأخير صلاة المغرب إلى العشاء ؛ أقول : إن هذا التحول الذي رأيته بعيني ، لا يمكن أن يفسّر إلا بصدق التوجه إلى الله والإنابة إلى دينه . وإن الذهاب إلى تفسير اندماجه في أولئك الطلبة (الدراويش) الذين لا يعرفه منهم أحد ، بأنها مجاملة مصطنعة وتظاهر بخلاف الواقع ، لهو لون من الخيال اللاعقلاني الجانح والمجنّح !..

أما عن استمرار تعامله الفكري والسلوكي مع الإسلام فيما بعد ، فأنا لا أشك في أن الرجل قد زُجّ به في الحديث عن مشكلات تتعلق بالثقافة الإسلامية ، بل ربما تتعلق بجذور من القواعد العلمية الإسلامية المعقدة . ومن الطبيعي جداً أن تخونه معارفه الحديثة والقليلة عن الإسلام ، وأن يقع من جراء ذلك في تيه من الأفكار والتصورات والتفسيرات الباطلة .. ولقد دعاه المناخ الذي أحيط به ، بل الذي فرض عليه ، كما سبق أن أوضحت ، إلى أن يتحول مباشرة من قائد للفكر الماركسي ، إلى قائد للفكر الإسلامي ، بالدرجة القيادية ذاتها ، فاضطره ذلك إلى أن يتحدث عما كان يطلب منه ، من الحديث عن الإسلام وعقائده ومشكلات العالم الإسلامي ، وعن أسباب انحسار المدّ الإسلامي الداخلية والخارجية ، قبل أن يمضي وقتاً كافياً في دراسة ذلك كله ، الدراسة التخصيصة اللازمة ، التي قد لا يحتاج إليها من يريد ممارسة الإسلام لنفسه ، ولكن يحتاج إليها يقيناً ذاك الذي يريد أو يراد منه أن يكون باحثاً إسلامياً ، يلجأ إليه عامة المسلمين وكثير من خاصتهم ، في حلّ مشكلاتهم الثقافية والاجتماعية المتنوعة .

على أنه كثيراً ما كان ولا يزال ، يصيب ـ اعتماداً على عبقريته النادرة ، وثقافته ودرايته الفلسفية الواسعة ـ الحقيقة وينتهي إلى عمقها ، فيما قد يعرض عليه ويسأل عنه ..

غير أن هذا لا ينطبق على الحقائق التي لا تؤخذ إلا عن النصوص وقواعدها

الدلالية . والذي أعرفه أنه كان يتحفظ في الخوض فيها والإجابة عنها ما وسعه ذلك . وقد أنبأني صديقه الأخ الدكتور عربي كشاط ، مدير مسجد الدعوة في باريس أن طبيبة مسلمة سألت غارودي عن رأيه الإسلامي في أن تطبب رجالاً مرضى يلجؤون إلى عيادتها ، وكان إلى جانبه الدكتور كشاط . فقال لها : اسألي العالم بذلك ، مشيراً إلى الكشاط .

قال : ولقد اطلعت على مخطوطة له تناول فيها جوانب من الثقافة الإسلامية ، فرأيت فيها حديثاً له عن السنة وأهمية الاحتجاج بها ، لا يتفق والقواعد الإسلامية الثابتة ، فلفتُّ نظره إلى ذلك ، فقال لي : اشطب كل ما تراه مما تعلم أنه يخالف الثابت من قواعد الإسلام وحقائقه .

إذن ليست المشكلة في أن يتحرى واحد مثل روجيه غارودي معرفة الإسلام ودقائق أحكامه ، ثم يتورط في بعض الأخطاء الفكرية أو السلوكية ، دون قصدٍ منه إلى ذلك أو تعمد ، ولكن المشكلة الكبرى هي أن يأتي من يرقى به فجأة ، ورغماً عن أنفه ، إلى مستوى القيادة الإسلامية العلمية الراشدة ، ثم لا يلبث أن يهوي به إلى حضيض الردة والكفر !... وأخطر من هذا الإشكال أن تلعب الخلفيات الصهيونية دوراً مباشراً أو غير مباشر في ذلك .

☆ ☆ ☆

ولكي لا يتوهم القارئ أني أصانع روجيه غارودي على حساب الحقيقة والدين ، وأنني أطوي عن الأنظار أخطاءه ، ليسلم لي سبيل الدفاع عنه ، ألفت النظر إلى أهم الأخطاء التي قرأتها له ، آملاً أن يتاح له الاطلاع على حديثي هذا عنها ... والمأمول ، فيما أعرفه عنه ، أنه ممن يعود إلى الحق دون حرج ولا تردد ، وأن جرأته في التحول عن الخطأ إلى الصواب ، بعد أن يستبين له ، لا تقلّ عن جرأته في الصدع بالحق أمام أنصار الباطل .

إذن ، فأنا أبرّئ الدكتور غارودي من تهمة الردة عن الإسلام ، بعد اعتناقه له ، ولكني لا أبرّئه من الخطأ في فهم كثير من مبادئ الإسلام وأحكامه .

غير أن العجيب ليس ما قد يتوهمه بعضهم ، من أن يخطئ وافدٌ جديد إلى الإسلام **في فهم بعض عقائده أو أحكامه ... وإنما العجيب أن يتوهم بأن على هذا الوافد أن لا يخطئ في فهم شيء من هذه العقائد والأحكام ، على الرغم من أنه حديث عهد باعتناق الإسلام ومعرفته ، وعلى الرغم من كثرة الأباطيل المكتوبة عن الإسلام باسم الإسلام ، وبأقلام مشاهير مسلمين .**

والكتاب الذي أصدره روجيه غارودي ، في السنوات الأخيرة ، باسم (الإسلام) مظهر لهذا الواقع الطبيعي المتوقع .

إنّ فيه الكثير مما هو حق لا مجال لإنكاره ولا للريب فيه ، ولكنّ فيه أيضاً ما لا يؤيده الواقع أو ما قد تعوزه الدقة .

ونظراً إلى أن الدراسة الموضوعية تتطلب منا ألاّ نجحد بإيمان الرجل وإسلامه ، من أجل أخطاء وقع فيها ، وألاّ نغض الطرف أيضاً عن هذه الأخطاء فرحاً منا بإسلامه الذي أكرمه الله به ، فإن علينا إذن أن نؤكد الحق الذي ورد في كتابه هذا ، وأن نلفت النظر في الوقت ذاته إلى الأخطاء التي لا بدّ من إعادة النظر فيها .

هكذا يكون التعامل مع أخ مسلم ، وفد منضماً إلى ركب المسلمين متعاوناً معهم في جهودهم وجهادهم . نعتز به مسلماً ، ونغار عليه من المزالق الفكرية التي قد يتعرض لها لأكثر من سبب . ولا شك في أن تلوث المناخ الإسلامي بحدّ ذاته ، واحد من أهم هذه الأسباب .

وها أنا أجمع بين يقيني واعتزازي بإسلامه أخاً في الله ، وبين نصحه والتنبيه إلى مزالق زلت فيها قدمه في هذا الكتاب . ولعل عذره يتمثل ، كما قلت ، في كثير من

المراجع المدسوسة التي اعتمد عليها ، والتي لم يتح له أن يعلم ، كما نعلم ، هوياتها وسوء طوية مؤلفيها . وأحسب أن مسألة الدس في الإسلام وعمليات التلاعب به ، من قبل بعض المسلمين ، ستبينها وتتبدّى له عما قريب .

☆ ☆ ☆

افتتح الدكتور غارودي كتابه هذا بفصل نؤيده فيه كل التأييد ، وهو الفصل الذي جعل عنوانه (ليس الإسلام ديناً جديداً ولد مع نبوة محمد عليه الصلاة والسلام) . إن كل ما ذكره في هذا الفصل من مؤيدات هذا العنوان ، لا يعدو أن يكون شرحاً وتفصيلاً لقول الله عز وجل : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّين ما وصَّى بهِ نُوحاً والَّذي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وما وَصَّيْنا بهِ إبْراهِيمَ وموسى وعيسى أنْ أَقيموا الدِّينَ ولا تَتَفَرَّقوا فيهِ .. ﴾ [الشورى : ١٣/٤٢] .

وكل ما ذكره بعد ذلك من تصدّع المسيحية الأولى إلى فرق متصارعة شتى ، وبقاء العقيدة الإسلامية الموحدة فيها والمتمثلة في الأريوسية ، قويةً تغالب قهر الحكام والمستغلين للدين الحق ، لا يعدو أن يكون تذكيراً رائعاً لقصة (الأريوسية) الواردة في كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل ، والذي قال له فيه : « أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن أبيت فإنما عليك إثم الأريسيين »[1] .

غير أن الذي فاته هو التركيز على التغييرات والتبديلات الكثيرة التي أدخلت على

(١) هي نسبة إلى (أريوس) ، وهو أحد رجال الدين الذين كانوا في عهد قسطنطين ، الذي عقد مؤتمر (نيقية) ، وقضى فيه بتغيير العقيدة الصحيحة ، التي كان يؤمن بها أتباع عيسى عليه السلام ، من كونه بشراً من الناس ، وأنه لم يصلب .. فحمل أريوس لواء المعارضة لقسطنطين ، ورفض إدخال أي تعديل على الأناجيل المعروفة آنذاك ، إلى ما يخالف العقيدة الإسلامية الصحيحة . ولكن قسطنطين تغلب بحكم سلطانه في النهاية ، مستقطباً عدداً كبيراً في صفه من رجال الدين أغراهم بالأموال والرتب . فمن ظل بعد ذلك ثابتاً على الحق الذي ثبت عليه أريوس قيل له ولأمثاله (أريوسيون) ، ولا تزال توجد منهم اليوم كثرة كبيرة في ربوع أوربة .

كل من التوراة والإنجيل ، وعلى مفاهيم العقيدة الإيمانية الواحدة ، لأسباب كثيرة ، أشار هو إلى بعض منها .. وهذا ما نبّه إليه القرآن في قول الله تعالى : ﴿ إنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإسْلامُ ، وما اخْتَلَفَ الَّذينَ أُوتُوا الكتابَ إلاَّ مِن بَعْدِ ما جاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ [آل عمران : ١٩/٣] .

لقد كانت وحدة الدين الحق ، هي التفسير الذي لا بديل عنه لانتشار الإسلام في إسبانيا ، وهي من أروع وأهم النقاط التي ركز عليها غارودي ... والتحليل الحق الذي جنح إليه ، هو أن الأريوسية سبق أن دخلت إسبانيا ، وتغلبت بعد لأي وصراعٍ على المذاهب الجانحة الأخرى . ثم إنها تأصلت تأصلاً قوياً في الطبقات الشعبية ، وهيمنت على معظم مدن إسبانيا . فكان ذلك هو العامل الذي عبّد السبل الكثيرة لدخول الإسلام وانتشاره في إسبانيا ، ثم لقيام الدولة الإسلامية فيها ... أي إن الإسلام لم يقتحم بالغزو ساحة دين آخر ليتغلب أو ليقضي عليه ، ولكنه لقي في الأريوسية ولقيت الأريوسية فيه التكامل والتساند اللذين يقومان بين أيّ جزأين لكلٍ واحد .. ومن هنا فقد حق لغارودي أن يقول :

« الواقع أن من دخل أوربة في القرن الثامن هو الإسلام ، وليس العرب » .

وجمل القول أن الدكتور غارودي أمتع القارئ المثقف والمتدبر في هذا الفصل بكلام علمي دقيق ، يجلّي حقيقتين اثنتين :

الأولى : وحدة الدين الحق في جذعه الاعتقادي ، وهو ما تاه عنه كثير من الناس مع الزمن .

الثانية : القيمة الثقافية والعمق الحضاري ، اللذان أثرى بهما الإسلام المجتمع الغربي ، ونقله من طور التخلف إلى مَدْرَج الانطلاقة العلمية والحضارية المتميزة .

☆ ☆ ☆

وفي فاتحة الفصل الثاني الذي تحدث فيه عما سماه : انحسار الإسلام ، نبّـه إلى أخطر عامل من عوامل هذا الانحسار ، وهو ركون الأمراء والحكام (أقول : وكثير من المترفين أيضاً من عامـة النـاس) إلى الترف والـدّعـة ، واتخـاذهم الإسلام مجرد مصـدر لمصـالحهم وسلطانهم وقواهم المادية ، موضحاً أن القوة المادية ومظاهر الترف والبذخ ، لم يفـدهم كل ذلك شيئاً ، عندما فَقَدَ الدينُ في حياتهم إشعاعـه الروحي ، على حـدّ تعبيره ... وجعل من انحسار الإسلام عن الأندلس نموذجاً لهذه الحقيقة .

ولكم تمنيت لو أن المسلمين (الأصليين) لدينـا أدركوا هـذه الحقيقـة !.. لتمنيتُ لو أنهم أدركوا هذا الذي أدركه روجيه غارودي ، من أن التوفيق الذي حظي بـه المسلمون الذين فتح الله على أيديهم مشارق الأرض ومغاربها ، لم يكن بفضل قوة مادية تمتعوا بها - على أنهـا عُـدَّة لا بـدّ منهـا - وإنمـا كان بسرّ إخلاصهم للـه عز وجـل وتحررهم من أسر التعلق بالدنيا وأهوائها .

ولقد آن للمسلمين اليوم أن يعلموا ، ما تعلمه الدنيا كلها ، من أن الضعف الذي كان يعاني منه عبد الرحمن الداخل والثلّة اليسيرة التي معـه ، لم يكن ليصـدّهم عن بلوغ أوج النصر ، لمّا كان الإخلاص لله عز وجل رائدهم وكان بريق الدنيا مُلقىً وراءهم ظهرياً .. وأن القوة المادية التي ورثتها ملوك بني الأحمر من بعدهم ، لم تغن عنهم شيئاً ، لمّـا أصبح قصارى همّهم الركون إلى البذخ وحياة اللهو والترف ، ولما نسوا أو تنـاسوا أنّ الملـك للـه وحده ، وأن الإنسان ليس أكثر من خليفة عن الله في إدارة مملكتـه ، طبق النهج الـذي أمره الله به[1] .

(١) قـارن روجيـه غـارودي ، في محـاضرة ألقـاهـا في مسجـد الـدعـوة في بـاريـس ، بين مسجـد رسول الله ﷺ ، الذي كانت جدرانه من لبن رصف بين جذوع النخل ، وسقفه من الخوص والأعشاب ، ومساجد المسلمين في بلادهم الإسلامية اليوم . وتسـاءل : لمـاذا لم تزدهر مسـاجـد اليوم بالحضارة الرائعة التي ازدهر بها مسجـد رسول الله وأشرقت بهـا الـدنيـا كلهـا ؟ أجـاب قائلاً : لأن المسلمين اليوم أفرغوها من روح العبادة وملؤوها بزينة الدنيا !.. =

هذا ما يتعلق بالعامل النفسي أو الداخلي ، الذي أكد غارودي أنه لعب الدور الأكبر في انحسار الإسلام ... ولم يكن انحساره عن إسبانيا والهند إلا مجرد مثال على حدّ تعبيره .

غير أن غارودي أضاف إلى هذا العامل الداخلي ، عوامل وأسباباً خارجية افتتحها بما سماه (مناسبة تاريخية ضائعة ، مذهب المعتزلة الذي أدانه التعصب ، من الأشعري إلى ابن حنبل) !..

ولا يشك القارئ الذي يتمتع بخلفية ثقافية ذات صلة وثقى بواقع التاريخ والتراث أن غارودي هنا ، ذهب ضحية الكتابات المغرضة الحديثة ، سواء منها تلك التي صيغت بأقلام المستشرقين ، أو التي كتبها مسلمون محترفون ... وليس غريباً أن يقع مثله في هذا الشَّرَك . إذ تلك هي المراجع التي بوسعه أن يعود إليها من خلال الترجمات المتوفرة .. **أما المراجع التراثية الأصيلة التي تشكل المصدر الأول والأساس ، فإنما يعوقه** عن الرجوع إليها والاستفادة منها ، أنه لم يُتَرجم منها إلا النزر اليسير ، على أن لغتها تستعصي على فهم كثير من العرب أنفسهم اليوم !..

وعلى سبيل المثال ، فقد اعتمد غارودي في مضمون هذا العنوان ، على كتاب (تاريخ الفلسفة الإسلامية) لهنري كوربان !.. ولو أتيح له الرجوع إلى أمهات المصادر العربية ، لعلم أن الواقع التاريخي نقيض هذا العنوان الذي اعتمد عليه تماماً ... فابن حنبل وأشياعه من جمهرة المسلمين ، هم الذين أدانهم تعصب المعتزلة ، إلى درجة التعذيب ، والقتل في بعض الأحيان ، وليس العكس كما قد توهم غارودي .

كان سلاح ابن حنبل الذي يمثل أهل السنة والجماعة ، من الأشاعرة والماتريدية ، الحوار واللجوء إلى حرية الكلمة والتعبير ، مع الصمود أمام المحنة التي أشعل أوارها

= ألا ليت الذين يكفّرون غارودي ، يتعلمون منه هذه الحقيقة التي غابت عن عقولهم ، في غمار انصرافهم إلى استخدام الدين لمغانم الدنيا ومنافسة الأقران !..

المعتزلة ، والتي أصرّوا معها على تكميم الأفواه ... ذلك لأن المعتزلة اتخذوا لأنفسهم يداً عند المأمون ومن بعده ، ثم استعانوا بعد ذلك لفرض أفكارهم على الناس بقهر السلطان وبطشه ، وصدّ الأفواه المخالفة عن النطق بما تريد !... وهل في الناس ، مهما ضعفت ثقافتهم ، من لم يسمع بالمحنة التي أنزلها المعتزلة عن طريق سطوة الحكم ، بأهل السنة والجماعة ، ممثِّلين في شخص ابن حنبل وطائفة من أمثاله ؟..

فمن هم إذن الذين لجؤوا إلى سلاح العصبية وخنق الأفواه ، ومن الذين قهرتهم وحكمت عليهم تلك العصبية السوداء ، فحاولوا الفرار منها إلى الحوار ، والتجؤوا منها إلى حرية الكلمة والرأي ، دون جدوى ؟

إنها لَزَلّة كبرى من باحث مدقق محقق كروجيه غارودي ، لولا أن الذي يغفرها له بُعْدُه ، كما قلت ، عن المصادر التراثية الأصيلة الصافية عن شوائب التحريف والتبديل أو السطحية المتناهية في الدراسة والفهم .

والغلطة الثانية التي كنت أتمنى ألاّ يتورط فيها الأستاذ غارودي ، هي انتصاره للوهم الذي تصوره المعتزلة ، شرطاً لعدالة الله بصدد تكليفه الإنسان ..

ومن المعروف أن المعتزلة اشترطوا لذلك ، القول بأن الإنسان هو الخالق لفعل نفسه ، وبأن الله لا يريد من عباده إلا الطاعات التي ارتضاها لهم .. فأما المعاصي التي تصدر منهم فهي إنما تقع منهم بدون إرادته !..

إن المعتزلة ظنوا أن الجزاء الذي يناله المكلف على أعماله ، إنما هو لقاء أفعاله وتصرفاته المادية . فإذا قلنا مع ذلك إن أفعاله من خلق الله وإيجاده ، فقد غدا الإنسان بذلك مقهوراً على فعل أمور ليست عائدة إليه وليس مسؤولاً عنها ، إذ هي إنما وجدت بخلق الله لها فيه . فما ينبغي بناءً على ذلك أن يحمّل شيئاً من تبعاتها ... ففر المعتزلة من الحرج الذي تسبب عن هذا الوهم ، إلى القول بأن أفعال الإنسان إنما تصدر عنه بخلقه هو لها ، لا بخلق الله عز وجل !..

ولو أدرك المعتزلة ما هو مقرر في كتاب الله تعالى ، من أن الجزاء الذي يناله الإنسان إنما هو على عزائمه وقصوده الخفيّة المستكنّة في نفسه ، لا على الأفعال المادية الصادرة منه والتي هي ـ ككل شيء آخر ـ بخلق الله عز وجل ، إذن لما وقعوا في هذا الإشكال الوهمي قط ، ولما فرّوا من مشكلة إلى أخرى أخطر منها وأكبر ، وهي التزامهم بأن الإنسان شريك مع الله في الخلق .

إن الذي يقرره جمهور المسلمين ، أهلَ السنة والجماعة ، أن الجزاء الذي يتلقاه الإنسان إنما هو على قصوده وعزائمه النفسية التي يسميها بيان الله تعالى (الكسب) . وما الأفعال التي يخلقها الله منسجمة مع اختياراته وقصوده إلاّ شواهد يوم القيامة على تلك القصود .

وهكذا فإن خلق الله لأفعال الإنسان ، ليس مصادرة لحريته التي متعه الله بها ، بل هو شاهد على وجود هذه الحرية وسجلّ لآثارها[1] .

وسبب هذا الوهم الذي وقع فيه المعتزلة ، وأوهام كثيرة أخرى تورطوا فيها ، أنهم فوجئوا بالفلسفة الإغريقية مع اتساع الفتوحات الإسلامية ، فانبهروا بها قبل أن تهضمها وتتمثلها عقولهم ، ويدركوا الفرق بين شرابها الحق ، وهو قليل وسرابها الزائف ، وهو كثير . فكان أن أخضعوا عقولهم وعقائدهم الإسلامية لمقولاتها على غير بينة ، ودون أيّ تمحيص .

---

(١) قد تقول : أفليست حرية الإنسان أيضاً بخلق الله ، والجواب أنها هي الأخرى بخلق الله ولا ريب .. ولعلك تقول إذن : فقد عاد الإنسان مجبراً بموجب هذا الخلق .
والجواب أن الله خلق في الإنسان ملكة الحرية والقدرة على الاختيار بمعناها الكلي . ولم يخلق فيه جزئيات التوجه الاختياري إلى الأشياء ، وملكة الحرية هي مصدر الاختيار ودليله ، لا عكسه أو نقيضه . هذا وبوسعك أن ترجع للوقوف على تفصيل هذا البحث إلى كتاب (الإنسان مسير أم مخير) لمؤلف هذا الكتاب .

ومن أبرز مظاهر تأثرهم بالفلسفة الإغريقية على غير بينة ، وإنما بسائق من الانبهار النفسي وحده ، اتباعهم لما تقرره تلك الفلسفة من سلطان العلة الطبيعية وأثرها الحتمي في المعلول ... وقد حملهم ذلك على أن يقولوا بأن في العلل المادية قوة أودعها الله فيها ، بها تؤثر في المعلولات !.. وبذلك حاولوا التوفيق بين عقائدهم الإسلامية ونظرية العلّة المادية عند فلاسفة الإغريق .

وقد مضى حين من الدهر ، وهم يؤكدون هذا الرأي ويجادلون عنه دون أي بينة ، بل مع جود بينة علمية تناقضها .

ولما وضعت الفلسفة اليونانية في العصور التالية ، تحت مجهر النقد والتمحيص ، إذ كان قد مضى عصر الانبهار النفسي الذي وقع المعتزلة تحت تأثيره ، وناقش الغزالي وأمثاله نظرية العلة عند الفلاسفة مطوّلاً[1] ، واتضح بالأدلة العلمية أن صلة ما بين العلة والمعلول محصورة في الاقتران الاستقرائي المستمر ، وأن دعوى وجود رابطة حتمية خفيّة بينهما ، حكم فضولي غيبي وافتراضي لا دليل عليه ؛ أخذ التصور الذي تبناه المعتزلة ردحاً من الزمن ، عن العلة المادية وحقيقتها ، في التراجع والذبول ، حتى عاد الفكر الاعتزالي في ذلك إلى القرار الذي انتهى إليه جمهور المسلمين ، أهلَ السنة والجماعة ، مدلولاً عليه بصريح كتاب الله عز وجل .

ولعلّ في أوساط الناس ، ولا سيما الأجانب منهم ، من يتوهم أن الذي قضى على مذهب الاعتزال ، ملاحقة السواد الأعظم من المسلمين لأئمته وأتباعه بالتضييق والقمع !..

غير أن هذا الوهم يلفظه ألف باء التاريخ البدهية والمعروفة لكل الناس . فإن الذين مارسوا القمع ضدّ السواد الأعظم من المسلمين ، لفترة من الزمن ، هم المعتزلة ، كما سبق أن أوضحت .

---

(١) (انظر : تهافت الفلاسفة للغزالي) .

وإنما الذي قضى على تيار الفكر الاعتزالي فيما بعد ، تراجع هذا الفكر ذاته في رؤوس أصحابه ، بعد أن تكاملت نشأة الفلسفة الإسلامية المستقلة ، وتم اكتشاف مناهج البحث العلمي عند مفكري الإسلام[١] .

وهكذا فقد ساد مذهب المعتزلة تحت تأثير الانبهار النفسي السريع بالفلسفة الإغريقية . ثم إنه تراجع ثم باد ، تحت تأثير أشعة البحث العلمي الذي كشف عن كثير من أوهام تلك الفلسفة وتصوراتها الباطلة .

بقي أنه لا بدّ من أن ألفت نظر الأستاذ غارودي إلى أن الحسن البصري ، إنما هو من جلّةِ أئمة أهل السنة والجماعة ، وليس مؤسساً للمذهب الاعتزالي كما توهم .

كان يغشى مجلسه نبلاء أهل العلم والفضل ، وكان يقرر أصول العقيدة الإسلامية طبق ما تقتضيه الأدلة التي ينطق بها كتاب الله وهدي نبيه محمد عليه الصلاة والسلام . وكان يحضر معهم واصل بن عطاء الذي أصبح فيما بعد واحداً من رؤوس المعتزلة . وقد انقطع عن مجلسه عندما ادعى ذات يوم أن الفاسق ينبغي أن يصنّف في منزلة بين منزلتي الإيمان والكفر ، (وهو واحد من الأصول الخمسة التي تميزت بها عقائد المعتزلة) ، فلم يرتض الحسن كلامه . فانسحب واصل من مجلسه وراح ينشر مذهب الاعتزال مع ثلّة من أصحابه .

وإنما تسرب هذا الوهم الآخر إلى غارودي ، من جراء اعتماده على المراجع الحديثة المتنوعة التي لا يوثق بأكثرها ، إن من حيث الأمانة ، وإن من حيث الدقة العلمية في الفهم والنقل .

☆ ☆ ☆

ويمضي الأستاذ غارودي في كتابه (الإسلام) يستعرض الأسباب الخارجية ، لما

---

(١) *(انظر : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، للدكتور علي سامي النشار)* .

يسميه بانحسار الإسلام ، فيقف عند السنة النبوية وموقف المسلمين منها .. إن القرآن ـ على حدّ علمه ـ لم يَدْعُ الناس إلى هذه السنّة . بل إن القرآن لم يستعمل هذا المصطلح قط !... وهذا يعني أن مهمة رسول الله تنحصر في إبلاغه القرآن للناس ، ثم إنه بعد ذلك واحد منهم يؤخذ منه ويردّ عليه !..

ولا بدّ هنا أيضاً من أن نحسن الظن بباحثنا الإسلامي هذا ، فنقول : وهذه لوثة أخرى سرت إليه من حصره نفسه في الكتابات الحديثة عن الإسلام ، دون أن يقف وقفة تعرف أو تساؤل عن هويات كاتبيها ، ودون أن يمتلك معياراً من الملكة العلمية التي تكشف له الحق من الباطل في هذه الكتابات .

وإني لأقول للأستاذ غارودي : دعك من مصطلح (السنة النبوية) فإن القرار العلمي لا يرتبط بالمصطلحات اللفظية . ولكن تعال فحدثني عن معنى قول الله تعالى : ﴿ وما آتاكُمُ الرَّسولُ فَخُذوهُ وما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر : ٥٩/٧] . وفي القرآن أكثر من خمس آيات تحمل بصراحة هذا المعنى .

ثم حدثني عن معنى قول الله تعالى : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنونَ حتّى يُحَكِّموكَ فيما شَجَرَ بيْنَهُم ثُمَّ لا يَجِدوا في أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّا قَضَيْتَ ويُسَلِّموا تَسْليماً ﴾ [النساء : ٤/٦٥] . وقد علم جميع المفسرين أن هذه الآية تعليق على حكم أبرمه رسول الله ﷺ بين خصمين ، دون أن يكون لهذا الحكم أيّ وجود في القرآن . وتحذير من أي مخالفة لقراره وحكمه .

ولعلك استعجلت جداً ، عندما حصرت وظيفة رسول الله في إبلاغه القرآن للناس ، وكأنه ساعي بريد . ولو أنك رجعت إلى القرآن متدبراً مدققاً لرأيته يُحَمِّلُ رسول الله ثلاث وظائف هي :

١ - تبليغه القرآن بتلاوته على أسماع الناس كما أنزل .

٢ - تربية الناس وتصعيد نفوسهم إلى صعيد الأخلاق الإنسانية السليمة (التزكية) .

٣ - بيانه لغوامض القرآن وتفصيله لمجملاته .

والآية التي تحمّل رسول الله ﷺ هذه الوظائف الثلاث ، هي قول الله عز وجل : ﴿ لَقَدْ مَنّ اللهُ عَلى المُؤمِنينَ إذْ بَعثَ فيهمْ رسولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيهِمْ آياتِهِ ويُزَكّيهِمْ ويُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ والحِكْمَةَ وإنْ كانوا مِنْ قَبْلُ لَفي ضَلالٍ مُبينٍ ﴾ [آل عمران : ١٦٤/٣] .

ومن الواضح لكل ذي عقل ورشد أن الله لم يحمّل رسوله مهمة تزكية الناس وبيانه لمجملات القرآن وغوامضه ، إلا بعد أن جهزه بالمزايا التي تمكنه من ذلك ، وفي مقدمتها العصمة من الذنوب والآثام . أما الأخطاء الاجتهادية ، فقد يتعرض لها عند غياب الوحي عنه ، ولكنه لا يُقَرُّ عليها ، بل لا بدّ أن يدركه الوحي الإلهي الذي يصحح اجتهاده . وفي القرآن أمثلة كثيرة لذلك يضيق المجال عن ذكرها .

على أن ما يسمى خطأً اجتهادياً منه ﷺ إنما يُسَمى ذلك بالنظر لما بينه وبين ربه عز وجل . أما بالنظر إلى ما بينه وبين الناس فاجتهاداته كلها حق يجب اتباعه . إذ إن طاعتهم لرسول الله واجبة عليهم في كل حال . أي إن الذي يملك أن يخطّئ رسول الله ويصحح له اجتهاده هو الله عز وجل ، أما الناس فلا يملكون في كل الأحوال إلا طاعة رسول الله ﷺ .

وإذ قد تبين أن الله أقام رسوله على هذه الوظائف الثلاث ، فقد ثبت بالضرورة أن الله أقامنا على وظيفة الامتثال لتعاليمه وإرشاداته ، وإلاّ فمن العبث أن يُكَلِّف رسول الله ﷺ بواجب النهوض بها دون أن نكلّف نحن بالانقياد له فيها .

وإذا كانت هذه الحقيقة واضحة ، وما إخالها تخفى على أحد ، فلك أن تسمي

وظائفه هذه سنة أو إرشاداً أو منهجاً ، إنما المهم أن تعلم أن وجوب الانقياد لها جزء لا يتجزأ من تعاليم القرآن .

ثم إنه لعجيب جداً من الأستاذ غارودي أن يسلك الطريقة الانتقائية في التعامل مع تعليمات المصطفى ﷺ (ولا نقول : سنته) !.. فهو يرى أن في إرشاداته القولية ومناقبه الفعلية ما لا أهمية له في ميزان الوحي والدين ، ومن ثم فإن من الخطأ ـ على حدّ فهمه ـ اهتمام المحدثين بها ، ويضرب لذلك مثلاً الأحاديث الصحيحة التي يأمر فيها رسول الله ﷺ بالتيامن في تناول الأمور المحببة والمحترمة ، كما ضرب لذلك مثلاً حديث أنس بن مالك « أنه رأى رسول الله ـ وقد كان مدعواً إلى طعام ـ يتتبّع الدباء من أطراف القصعة (نوع من اليقطين) ، قال أنس : فلم أزل أحب الدباء من يومئذ » .

لقد غاب عن ذهن باحثنا الجليل أن جملة الشرائع والأحكام والتعاليم الإسلامية تخضع لما يسمى بقانون سلّم الأولويات .. وبيان ذلك أن سائر أحكام الشريعة تدور على محور المصالح الإنسانية . ولما كان في هذه المصالح ما يرقى من الأهمية إلى درجة الضروريات ، وكان منها ما يقف عند درجة الحاجيات ، ومنها ما لا تزيد أهميته عن مستوى التحسينيات ، فقد جاءت الأحكام المنوطة بها متفاوتة حسب هذه الدرجات من الأهمية .

فليس كل مطلوب واجباً . بل فيه ما يرقى إلى أعلى درجات الوجوب ، وفيه ما يقف عند درجة الوجوب العادي ، ومنه ما يكون مجرد مستحب ومندوب ... على أن الندب أيضاً تتفاوت درجاته حسب مستوى المصلحة التي يحققها ... كذلك المنهيات ، فليس كل ما هو منهي عنه محرماً . بل فيه ما هو محرم ، وفيه ما هو مكروه كراهية تحريم ، وفيه ما هو مكروه كراهية تنزيه ، وفيه ما هو خلاف الأولى .

والأمر بالتيامن (أي استعمال اليد اليمنى) في المحترمات ، داخل في المصالح

التحسينية التي تقف أحكامها عند درجة الندب . واتبـاع رسول الله ﷺ فيما كان يحب ويكره من الأمور الجبلية داخل في معنى الأفضلية المجردة المنبثقة عن الحب ليس إلا ..

فما وجه اعتراضك على شرعة يصنف مشرّعها جل جلاله مستويات أحكامها حسب تفاوت مستويات المصالح المنبثقة عنها ؟... بل قل لي : بأي موجب يحق للمجتمعات الغربية أن تربي أفرادها على التمسك بأدبيات العلاقة الاجتماعية في أصول اللقاءات والمجالسات وفي قواعد التلاقي على موائد الطعام وأصول تناوله ، ثم يحجب هذا الحق عن الإسلام الذي هو أكثر عراقة في التبصير بالآداب الاجتماعية وأصول اللقاءات والعلاقات ؟..

ثم كيف تستهين بالحب الذي يدفع إلى اتباع المحبوب ، سواء في الأمور الهامة أو في الأمور البسيطة ، وأنت الذي تحدثت عن الحب وأهميته ، وفاعليته في حياة المسلمين في صدر كتابك هذا ، حديث إنسان يجمع إلى الفكر العلمي المتبصر ، الفؤاد المهتاج بلواعج الحب ومعانيه وآثاره ؟

لولا الحب الذي دفع الصحابة إلى اتباع المصطفى في صغائر الأمور ، لما رأيتهم اتبعوه إلى درجة التضحية بكل شيء في المبادئ المصيرية وكبريات الأمور ... وكما أن الحب كلٌ لا يتجزأ فإن ثمراته أيضاً تشكل كلاً لا يتجزأ ... ولعلك من أوائل من ينبغي أن يعلم أن إخضاع الحب لقانون الانتقاء في اتباع المحبوب ، يتعارض مع طبيعة الحب ذاته ، ومن ثم فهو سعي خائب ، ومحاولة غير مجدية .

☆ ☆ ☆

بقي أن أذكر الأخ روجيه غارودي بأن مادة (شريعة) وردت في القرآن بمعنى جوهر الدين المتمثل في أركانه الأساسية ، ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وصَّى بِهِ نُوحاً والَّذي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ ومُوسى وعيسى أَنْ

أقيمـوا الـدِّينَ ولا تَتَفَرَّقـوا فيــهِ .. ﴾ [الشـورى : ١٣/٤٢] ووردت فيــه بمعنى الأحكام السلوكية بـما فيهـا من العبـادات والمعـاملات وغيرهـا ، ومن ذلـك قول الله عز وجل : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمنهَاجاً ﴾ [المائدة : ٤٨/٥] .

غير أن هـذا لا يعني أن الشرعــة التي تعني الأحكام الـسلوكيــة خــاضعــة للتغيير الاعتباطي أو للتطوير الذي يبتغى منه مجاراة أمزجة النـاس وأهواء العصور .. بل إن الأحكام السلوكية مرتبطة بنوع دلالاتها ، فما كان منهـا مقيـداً بنصوص ثـابتـة واضحـة الدلالة ، لا يجوز اخضاعها لأي تغيير ، بل هي ثابتة ماضية إلى يوم القيامـة . ومـا كان منها مقيداً بأدلة متطورة كالمصـالح والأقيسـة الخـاضعـة للتبـديل ، فهو معرض للتغيير والتطوير ، على أن يتولى النظر في ذلك علماء مجتهدون مخلصون لله عز وجل .

وإني لأشعر بقــدر كبير من التنــاقض بين اعتزاز الأخ غــارودي بمــا يراه مظهراً للثورة الاجتماعيـة في الإسلام ، كوجوب الزكاة وحرمـة الربـا والاحتكار ، ودعـوتـه في الـوقت ذاتــه إلى التطـوير والتغيير وتجــاوز الأحكام الشرعيــة لصــالـح التطــورات الزمنية !... وليت أنـه بيّن لنـا مـا يراه من الفرق بين مـا يعتزّ بـه ويـدعو إلى ثبـاتـه والإبقاء عليه ، مما يعده مظاهر للثورة الاجتماعية والاقتصادية في الإسلام ، ومـا لا يعتزّ به من الأحكام الأخرى كالحـدود وشرعـة العقوبـات التي يـدعو بإلحـاح إلى تطويرهـا وتجاوزها .

على أني أعذره عندما يجعل من التطبيقات التقليدية للعقوبـات الحـدّيـة في بعض الدول العربية نموذجاً لما لا يروق له ولما يجب أن يخضع للتطور والتبديل . بل مـا أكثر الذين رأوا في هذا النموذج ما قد شوَّهَ روعة التشريعات الحدودية الإسلاميـة في نظرهم ، وأفقد الكثير من أهميتها في اعتبارهم .

غير أن المشكلة ، بالنسبة لهذه التطبيقات ، لا تكمن في أن أحكام الحـدود هنـاك ، قد تقادم عليها العهد ، فكان لزاماً من أجل ذلـك أن تتطور وتتبـدل .. وإنمـا المشكلـة

هي أن كثيراً من المسلمين لا يعلمون ، أو لا يريدون أن يعلموا ، أن أحكام الشريعة الإسلامية ، على تنوعها ، مترابطة الحلقات ، يسري بينها تفاعل دائم . ومن ثم فإن نجاح أي من هذه الأحكام في تحقيق ما ترمي إليه ، رهن بوجود الأحكام الأخرى ورعايتها على خير وجه .

فالشارع لم يأمر بقطع يد السارق مثلاً ، إلا بعد أن شرع من الأحكام الاجتماعية والضمانات الاقتصادية ، ما يحقق المناخ الملائم لترسيخ هذا العقاب الزجري . فقد أمر الشارع الحاكمَ بجمع الزكاة والسهر على توزيعها على خير وجه ، كما أمره بالقضاء على الربا والاحتكار بأنواعها ، وأمره بتوفير مقومات الكفاية والحياة الكريمة ، ونهى عن تبديد الأموال في وجوه البذخ وإشباع النزوات والأهواء .. ثم إنه نهى الحاكم عن ملاحقة الضعيف بالحد والعقاب الزجري مع إغماض العين ، وربما الدفاع ، عن القوي الذي يحتمي بالسلطة ويطمئن بالاً في حصانة الإمارة والحكم .. وإنما أقام الشارع حدّ السرقة وأمثاله ، في هذا المناخ ، وغرسه ضمن رعاية هذه التعاليم .

غير أن الذي يجب أن نعلمه ، هو أننا عندما نجد من يستهين بتلك الأحكام الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية كلها ، وينحط في نقائضها ويفتح السبل إلى المجون والترف وإشباع النزوات لنفسه ولبطانته من أوسع الأبواب ، ثم يحاول أن يغطي ذلك كله بطائفة من العقوبات الحدّية يستعلن بها أمام الناس ، فإن المشكلة عندئذ لا تتمثل في أن هذه العقوبة قد زالت جدواها بالتقادم .. بل تتمثل في أن هؤلاء الناس قد بتروا أوصال هذه الأحكام المترابطة ، التي تشكل المناخ المطلوب ، ثم انتقوا منها ما يخدم مصالحهم ويحقق لهم الدعاية المطلوبة ، غير مبالين بأنها قد جردت بذلك من مناخاتها ، ووضعت خارج المكان الذيْ شرعت فيه .

أي أن المشكلة تتمثل ـ باختصار ـ في التلاعب بتطبيقها ، لا في التقادم الزمني على تطبيقها ، وأنا مع الأستاذ غارودي في ضرورة فضح حال هؤلاء المتلاعبين ، ولكني

لست معه في التضحية بشيء من أحكام الإسلام ، بسبب سوء حالهم ... أصحاب الأحوال السيئة يمضون وينحسرون ، ولكن شريعة الله ينبغي أن تظل باقية سليمة .

☆ ☆ ☆

في المسلمين اليوم من يعرفون هذا الذي قلته عن السنة وأهميتها ، والحدود وضرورة تطبيقها وغير ذلك مما قلته هنا ولفتّ إليه نظر غارودي ، ومع ذلك فإنهم يتجاهلون ما يعلمون ، ويلحّون في الدعوة إلى إهمال السنة والاستغناء عنها بالقرآن ، والدعوة إلى تطوير الشريعة والاستبدال بأحكامها ، لعمالة يمارسونها ، أو لهوى يشوّقهم إلى التحرر من ضوابط الإسلام وأنظمته .

ومن الواضح أنه لا مجال ولا معنى لحسن الظن بهؤلاء الناس ، كما أنه لا جدوى في أن أشرح وأبين لهم ، كما أبين وأشرح لهذا الأخ الذي وفد إلى الإسلام حديثاً .

إذ إن الوافد الجديد يتوقع منه الخطأ في الفهم ، والجهل بالأمر ، والشأن فيه أن يشكر من يصحح له فهمه ، ويكشف له جهله ، ويضعه من سبيله التي يتخبط فيها على الجادّة . إذ هو لا ينطلق إلى جهالته وتخبطه من السعي الخفي إلى هدف مرسوم . وهذا هو شأن الأخ غارودي وأمثاله ممن عرفنا صدق توجهاتهم الإسلامية .. لذا تجدني أقف منه موقف الأخ المرشد والمنبه الذي له سابقة في الإسلام ومزيد معرفة بحقائقه وأصوله وقواعده .

أما أولئك الذين كانوا ولا يزالون من أهل الدار ، يعلمون من الإسلام ما نعلم ، ولكنهم يتجاهلون ما يعلمون استجابة منهم لدعوة خفية وطمعاً بمغانم مادية ومعنوية ، فإن الشأن فيهم أن يتجاهلوا النصح وأن يعرضوا عن التصحيح وأن يمعنوا فيما أخذوا أنفسهم به ، من تنفيذ ما قد كلفوا به ، واستؤجروا من أجله .

وهذا هو فرق ما بين خطأ الوافد الجديد إلى الإسلام ، أو جهله ، وتعمدّ المسلم

الأصيل في إسلامه ، في أن يتجاهل ما يعلم ، وأن يصرّ على التجاهل والتلبيس . لذا لا بدّ من اختلاف المعاملة بين هذا وذاك .

☆ ☆ ☆

بقي أن أشير إلى ملاحظة أخرى ، لم يعد يتسع المقام لأكثر من الإجمال في ذكرها .

إنني أذكرها هنا احتياطاً ، لا عن تخطئة أو اتهام ، غير أني أعلم أن الأخ روجيه غارودي من محبي التصوف ، ومحبي العالم الجليل الشيخ محيي الدين بن عربي ، وأعلم أن له كتابات تحتمل الركون إلى ما يسمى بوحدة الوجود ، كما تحتمل القصد إلى وحدة الشهود . فأولها باطل من القول والاعتقاد ، وثانيهما منتهى التوحيد وغاية الكمال في الاعتقاد . ولعله إنما يقصد في كتاباته ، هذا الثاني ، إلا أن العبارة ربما خانته في التعبير ، أو أن المترجم لم يتسنّ له فهم قصده . أياً كان ، فلابد أن أؤكد له ما يلي :

إنه لا العقيدة الإسلامية الصحيحة ، ولا المعايير العلمية المتبعة ، ولا منطق الأشياء وواقعها المحسوس ، يسمح شيء من ذلك بدعوى أن الله موجود في كل شيء .. ومن المعلوم أن من يسمى بأب الوجودية في الغرب (سيرن كيركجورد) انجرف في هذا الوهم بسائق من المآسي والآلام النفسية التي زجت به في حياة مضنية نكدة ، فمضى به الوهم إلى محاولة التخلص من شقائه النفسي بالسعي إلى اتحاده في الله واندماجه في ذاته ، على حدّ وهمه الذي جسّده أمامه حقيقةً ضباب آلامه ، ثم إنه صاغ من ذلك فلسفة دعا الناس إلى فهمها واتباعها ، ثم تكاثر له على هذا النهج تلامذة وأتباع .

على كلٍ فإن كلاً من العقل والواقع والدين الحق يقول : إن الخالق غير المخلوق ، وإلا لم يكن الخالق خالقاً ، ولا المخلوق مخلوقاً ، ولتلاقي الإيمان والإلحاد عند نهاية واحدة ، إذ يسقط الفرق عندئذ بين من يقول : إن هذه المكونات كانت وما تزال مستغنية عن خالق أوجدها ، ومن يقول : إن هذه المكونات تنطوي في وجودها الذاتي

المستقل على ذات الله ، كلا التصورين يسقط وجود الله تعالى عن خارج دائرة الطبيعة ومكوّناتها .

إن من صفات الله تعالى القدم (أي الأزلية في الوجود) والقديم الذي لا أول له غير الحادث الذي وجد بالأمس وسيهلك غداً ، وإلاّ لاجتمع الزمن كله في ذات الله والمكونات كلها ، في وقت واحد .

نعم إن محبة الله تعالى إذا هيمنت على قلب الإنسان ، وترسخ في يقينه الذهني أن لا حول ولا قوة لشيء من الموجودات إلا بالله عز وجل ، ففاعليتها آتية لحظة فلحظة من الله ، ونظامها مستقر بإمساك الله لها على النهج الذي ارتضاه ، بحيث لو تخلّى الله عنها لحظة واحدة ، لعادت هباء ، بل عدماً كما كانت ـ يسبح عندئذ في بحار التوحيد ، ويهيمن على كل من عقله وشعوره معنى قول الله تعالى : ﴿ أَلاَ لَـهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ [الأعراف : ٥٤/٧] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِـهِ أَن تَقُومَ السَّماءُ والأَرضُ بِأَمرِهِ ﴾ [الروم : ٢٥/٣٠] ، وقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ يُمسِكُ السَّمَواتِ والأَرْضَ أن تَزُولاَ ﴾ [فاطر : ٤١/٣٥] . فهو يرى المكونات والموجودات كلها ويوقن بها ، ولكنه لا يرى من خلالها إلا عظيم صنع الله ولا يقرأ في شيء منها إلا صفات المكوّن جل جلاله . وتلك هي وحدة الشهود التي ينبغي أن ينتهي إليها كل من ينشد التوحيد الحقيقي التام لله عز وجل .. إن الدنيا كلها تصبح عندئذ مرآة نقية صافية لشهود صفات الله عز وجل والتذكير بوحدانيته وسلطانه ، بدلاً من أن تكون شاغلاً عن الله وأداة نسيان له .

ولعل هذا ما يعنيه روجيه غارودي فيما قد كتب حول هذا الموضوع .

☆ ☆ ☆

أما الآن فأكرر ما قد قلته في أول هذا البحث :

إننا لا نملك أن نتهم روجيه غارودي في إسلامه وإيمانه ، ولسنا ممن يتأبط أي

مصلحة تدعونا إلى أن نجازف له بهذا الاتهام ، كما أننا لا ندين بأي تبعية لمن قد يحملنا على ذلك .

ولكننا أيضاً لا نملك أن نجعل من إسلامه شفيعاً لأخطائه ، بل إن حبّنا له ويقيننا بأخوته الإيمانية يستلزمان أن نحاوره ، في حب له وغيرة عليه ، ليتأمل في هذه الأخطاء ثم يرجع عنها .

والذي أعرفه من خلق الأخ غارودي أنه موضوعي النظر والفكر ، وأنه رجّاع إلى الحق .

ثم إن علينا أن ندعمه في مواقفه العلمية الموثقة ضد الصهيونية ، بكل ما نملك ، ومعاذ الله أن نكون من الهوان وذل التبعية ، بحيث نسير وراء أبطال الدجل الغربي ، أولئك الذين يكيلون ، ببهلوانية مرذولة ، بمكيالين متناقضين . إذ يباركون لسلمان رشدي سبابه الساقط المقذع في حق الإسلام ورسوله ، ويجرّمون روجيه غارودي في تحقيقاته الوثائقية الأدبية الملتزمة .

خاتمة ومناجاة[1]

أحمدك اللّهم في نهاية هذا الذي وفقتني لإتمامه ، كما قد حمدتك في بداية ما ألهمتني كتابته والنهوض به . وأحمدك اللهم أن جعلت من توفيقك لي رفيقاً ملازماً لم يتخلّ عني في كلمة مما كتبت ، ولم يتركني لحيرتي وضعفي في شيء مما فكرت .. وأشهد يا مولاي أنك لو تخليت عن عنايتك بي ووكلتني إلى عقلي ونفسي ، وتركتني للقلم الذي بين أصابعي ، لتبلّد مني العقل ، ولغابت الذاكرة ، وليبست الأصابع ، ولعجز القلم عن البيان .

ولكم وقعت في هذه الحال ، عندما لم تشأ أن أمضي في أمور عزمت عليها ، فأنكرتُ نفسي واستوحشتُ من عجزي ، وخانني ما كنت أنسبه إلى نفسي من المعارف والآداب والعلوم !.. ثم تذكرت أنك أنت الملهم والمحرك والموفق ، وازددت يقيناً بأنني لوح لا يثبت عليه إلاّ نقشك وعبد لا يتراءى فيه إلا سلطانك .

---

(١) تلقيت ، وأنا أكتب هذه الخاتمة ، النبأ المفجع بوفاة أستاذ الجيل علي الطنطاوي ولمّا تنقضِ على زيارتي له في جدة أكثر من بضعة أشهر !..
تركت الورق والقلم ، وعدت بخاطري أتأمل في التاريخ الشامي الساحر الذي انطوى ، والواحة الأدبية والعلمية والثقافية التي صوّحت !..
وتساءلت : هل أعود إلى ما قد كتبت ، فأوسع فيه مجالاً لملفّ أفتحه عن حياة علي الطنطاوي الذي كان مرآة لجمال دمشق وأيامها ، وستبقى دمشق أصدق مرآة لفنه وعلمه وأدبه .
=

إن طمعت منك بالأجر فللعزيمة التي عزمتُها بسرٍّ من الاختيار الذي متعتني به ، وإن ساورني منك خوف العقاب ، فللقصد الذي توجهت به إلى ما لا يرضيك بسرٍّ من الاختيار ذاته .

وإني لأسألك اللهم ضارعاً أن تكرمني وترحمني ، فتغلب طمعي في مغفرتك على خوفي من عقابك ، يوم تجمع عبادك كلهم ، الأولين منهم والآخرين ، على صعيد واحد .



= ونظرت .. فرأيت أنني بذلك إما أن أؤخر ظهور هذا الكتاب عن ميقاته ، أو أن أستعجل فلا أوفي هذا التاريخ العظيم حقه ... لا سيما أن رحلتي في الحديث عن علي الطنطاوي تبدأ مع نعومة أظفاري وصدر شبابي .

إذن ، فلأدّخر لحديث الشام عن علي الطنطاوي وأيامه معها وحديثه عنها وعن أيامها معه ، ميقاتاً لملف مستقل ، يوفيه حقه .

أما التعزية بوفاته فأتقدم بها إلى كل من عرف الطنطاوي من قريب أو بعيد ، من خلال هذه الرسالة التي وجهتها الآن إلى آل بيته :

« أعزي العالم العربي والإسلامي من خلالكم ، بانطواء تاريخ مجيد حافل بالعلم الغزير والأدب الرفيع والدعوة الصادقة إلى الله ، والانتصار الدائب للحق ، متوجاً ـ فيما عرفه الجميع ـ بإخلاص نادر لله عز وجل .. أعزيكم بوفاة أستاذ الجيل الشيخ علي الطنطاوي ، الذي سيبقى اسمه ، وستبقى أيامه الطويلة ، المزدهرة بكتاباته الساحرة ، وكلماته المؤثرة ، وحديثه الجذاب ، وصدْعه بالحق مهما أكره على الصمت عنه ، وتساميه على الباطل مهما حمل على النطق به والدعوة إليه : سيبقى اسمه وستبقى أيامه الغالية هذه باقية في ذاكرة العالم الإسلامي ، يتعاقبها جيل بعد جيل ، ما تتابع الليل والنهار .

أسأل الله أن يجدد لقاءنا جميعاً به ، في دار الخلود مع الشهداء والأنبياء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً » .

إلهي : إنك لتعلم أن لي مع كل واحد ممن تحدثت عنهم في هذا الكتاب وقفة ، لها قصة أو خبر . وإنك لتعلم أن وقفتي مع كل منهم لم تكن يوماً ما وقفة لدنيا طمعت فيها ، أو لهوى سعيت إليه ، أو انتصاراً لمذهب عرفت به ، أو تنفيساً عن حقد ابتليت به . وإنما هي وقفة رجوت أن أنتصر فيها لدينك وأن أبلغ بها كريم مرضاتك .

وأنا يا مولاي أحب كل من أشمّ في مرآه أو كلامه رائحة حب لك ممن غبروا في الأزمان السابقة أو ممن لا يزالون يعيشون في حياتنا المعاصرة .

ولكني إنما تحدثت في هذا الكتاب عن أناس ارتسمت في أذهان كثير من الناس علامات استفهام عنهم ، بسبب لغط تكاثر في حقهم ، لأسباب جلها يعود إلى مصالح دنيوية وأهواء أو عصبيات نفسية ، وربما سرى هذا اللغط بشيء من الريبة إلى أذهان بعض الناس في حق الإسلام نفسه ، فأردت أن أكتب عنهم ما يزيل هذا اللغط ، ويعصم حقائق الإسلام عن أن يصيبها رشاش في أذهان الناس من جراء ذلك .

وعلى سبيل المثال : لاقت أبيات[1] نسبت زيفاً إلى عبد الله بن المبارك هوى في نفوس أولئك الذين يستهينون بشأن العبادة والإكثار منها ، وينتقصون العباد والزهاد والمتبتلين ، فراحوا يروجون هذه الأبيات في كل مناسبة ويكررونها على الأسماع ، ويجعلون منها ملصقات على جدران كثير من الأندية وبعض المساجد ، ويجعلون من نسبتها إلى ابن المبارك حجة لا تدحض وبيّنة لا تغلب ... فتوجه من ذلك قدر كبير من الازدراء والانتقاص ، بل السخرية ، إلى الربانيين المنقطعين للعبادات والمكثرين من العكوف على الأذكار والطاعات ، وذلك من خلال شخص الفضيل بن عياض الذي قيل إن تلك الأبيات وجهت إليه ، فكان الفضيل رحمه الله إذن الوقود الذي تمركزت

(١) هي التي مطلعها:

(ياعابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك بالعبادة تلعب)

وقد مرّ الحديث عنها وبيان الأدلة على براءة ابن المبارك منها ، في غضون الحديث عنه في هذا الكتاب .

فيه نيران تلك السخرية اللاذعة ، ليحترق من ثم في ضرامها كل من اقتفى أثره وسار على نهجه من بعده .

وإنه لظلم كبير يا مولاي في حق ابن المبارك الذي علمت أنه بريء من تلك الأبيات ، التي لا تتفق والموازين الإسلامية التي يحترمها عادة عامة المسلمين ، فكيف بعبد الله بن المبارك رحمه الله ، كما أنه ظلم شنيع في حق الفضيل رحمه الله ، الذي كان مضرب المثل في عصره في الصلاح والتقوى والخشية العارمة من الله .

إذن فقد كان حقاً عليّ وعلى أمثالي ردّ غائلة هذا الظلم عن كلا هذين العلمين النادرين من أعلام سلفنا الصالح رضوان الله عليهم أجمعين .

وبالجملة ، فما واحد ممن ترجمت له وتحدثت عنه في هذا الكتاب إلا ويتعلق الحديث عنه بمشكلة من مشكلات المجتمعات الإسلامية في هذا العصر ، تحتاج إلى نظر وحل .. وإني لأرجو يا مولاي أن يكون في التوفيق الذي منحتني إياه ، ما يدلّ على أن فيما قد وفقتني لكتابته ، ما يكون عوناً لحل تلك المشكلات أو كثير منها .

☆ ☆ ☆

أسألك اللهم ، إن كنت على حق فيما قلته هنا وانتهيت إليه ، أن تدخل اليقين به في أفئدة قارئيه ، وأن تحول بينهم وبين العصبية التي تعمي ... والمصالح التي تقصي ... والأهواء التي تنسي ..

أما إن كنت أنا المبتلى من دونهم بشيء من ذلك أو بذلك كله ، فأسألك اللهم أن تعافيني من شر نفسي ومن شر ما جبلت عليه .. إذ ليس لي يا مولاي - بعد التمسك جهد الاستطاعة بميزان كتابك وهدي نبيك - إلا أن ألوذ بحمى رعايتك وتوفيقك ، متبرئاً من أوهام حولي وقوتي إلى حولك وقوتك .

فبصّرني اللهم بما يرضيك ، واشرح له صدري ، ووجه إليه طاقاتي ، وأخضعه

لقدراتي .. وجنبني اللهم ما لا يرضيك ، واصرفه عن قلبي وخاطري ، واقطع عن التوجه إليه أنشطتي وقدراتي .

ثم إني أسألك اللهم ، وقد تطاول بي العمر ، وحلّ خريفه ، أن تبيض بالصفح ما اسوّد من صحائف أعمالي ، وأن تتجاوز بجميل من العفو زلاّت نفسي وهفوات أيامي ، وكل ما قد ساقني إليه ضعفي وعجزي ، وأن تجعل شفيعي في ذلك كله قولك في محكم تبيانك ﴿ وخُلِقَ الإنسَانُ ضَعِيفاً ﴾ [النساء : ٢٨/٤] .

وأسألك اللهم أن لا تقطع رفدك ورعايتك وتوفيقك عن أهلي وأولادي . وأن تجعل من دنياهم سلّماً لبلوغ مرضاتك ، وأن تلهمهم من الإحسان ما يكون سبباً لإحسانك إليهم . واختم الله حياتنا جميعاً بأحب الأعمال إليك ، حتى نلقاك وأنت راض عنا ، يا مولانا ، يا أرحم الراحمين .

دراسات قرآنية CD

ج (١-٢)

أ. د. محمد سعيد رمضان البوطي

محمد سعيد رمضان البوطي

- من مواليد الجزيرة الفراتية ١٩٢٩
- دكتوراه في أصول الشريعة الإسلامية من جامعة الأزهر
- تقلب في المناصب العلمية والتربوية والإدارية في كلية الشريعة حتى شغل عمادتها
- عضو المجمع الملكي لبحوث الحضارة
- يتقن الكردية والتركية ويلم بالإنكليزية
- له أكثر من ستين مؤلفاً ترجم بعضها إلى اللغات الأخرى من **أهمها**:

● مدخل إلى فهم الجذور
● حرية الإنسان في ظل عبوديته لله
● الحكم العطائية شرح وتحليل (١-٥)
● الجهاد في الإسلام
● السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي
● كبرى اليقينيات الكونية
● منهج الحضارة الإنسانية في القرآن
● نقض أوهام المادية الجدلية
● الإنسان مسير أم مخير
● فقه السيرة النبوية
● ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية
● المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الرباني
● من روائع القرآن

هذا إلى جانب كثير من المقالات والمحاضرات والدروس العلمية التي يواظب عليها من عشرات السنوات